

الحرب النفسية

مفاهيم إعلامية وأحكام فقهية

مُحَقَّقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

١٤٣٠هـ - ٢٠١٠م

الطبعة الأولى

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

٢٠٠٩/٦/٢٥١٣



دار النفائس

للنشر والتوزيع - الأردن

العبدلي - مقابل مركز جوهرة القدس

ص.ب ٩٢٧٥١١ عمان ١١١٩٠ الأردن

هاتف: ٠٠٩٦٢٦٥٦٩٣٩٤٠

فاكس: ٠٠٩٦٢٦٥٦٩٣٩٤١

Email: ALNAFAES@HOTMAIL.COM

www.al-nafaes.com



للنشر والتوزيع

العراق - بغداد - الأعظمية

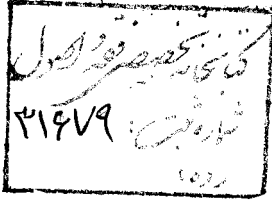
٠٠٩٦٤٧٩٠١٣٨٩٤١٠

٠٠٩٦٤٧٩٠٤٥٣١٤٥٢

EMAIL:

daralfajir@yahoo.com

tahaazz@yahoo.com



الحرب النفسية

مفاهيم إعلامية وأحكام فقهية

عبد الهادي محمود الزبيدي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنِفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْتُمْ إِلَى
الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي
الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنَفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا
غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

[سورة التوبة : ٣٨ - ٣٩]

الإهداء

- إلى من رضينا به عقيدة ومنهجاً وسلوكاً ...
- إلى من دانت له الدنيا بأجمعها وقرت له الكواكب والأفلاك وأضيئت بأنواره السموات والأرض وخشعت لسلطانها العقول والقلوب ...
- إلى وهج الحياة وسبيل الحق الوحيد : ديننا الإسلام، أعزه الله ونصره ...
- وإلى قدوتي ومعلمي ومثلي الأعلى : رسول الله - عليه الصلاة والسلام - وقد أرسى للإنسانية ديناً لن يموت ...
- وإلى والدي ووالدي والشيخ حازم الزيدي - رحمهم الله -
- وإلى زوجتي الحبيبة التي ساندتني، وأخواني وأخواتي وأولادي وبناتي وجميع من له فضل عليّ ...
- أهدي عملي المتواضع هذا، داعياً المولى - جل جلاله - أن يرحمنا ويهدينا ويغفر لنا، إنه - تعالى - على كل شيء قدير ...

المؤلف

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الأمين (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين) .

أما بعد :

فإن تطورات الحياة البشرية تلقي بظلالها وتطبع بصماتها على أوجه الأيام حتى تظهر في تغير دائم ومستمر، لاسيما في مجالات الصراع والتنافس البشري التي مازال الإنسان يبتكر فيها ويحدد الآليات والوسائل والسبل المؤثرة على الآخر بهدف إخضاعه والسيطرة عليه .

وتعد الحرب النفسية من أبرز وأجلى هذه الصور والآليات التي ولدت مع الإنسان وتطورت معه، مبدية حضورها الفاعل أوقات الصراعات والأزمات التي لطالما برزت وامتد تأثيرها إلى حقب ومراحل وأصناف من الحياة الإنسانية، فالحرب النفسية قديمة قدم الإنسان ذاته وباقية ما بقى الإنسان وما بقيت نزعة الصراع والتنافس بين البشر .

فالحرب النفسية -إذن - قديمة وفاعلة وإن اختلفت تسمياتها ومصطلحاتها، ومؤثرة في حياة الإنسان كونها تخاطب عقله محاولة إحداث أقوى المؤثرات فيه، وقد وردت صورها في القرآن الكريم كونه يخاطب النفس البشرية بغية إصلاحها وإبعادها عن أي مؤثر يحد من عبوديتها لله، وكذلك إبعاد هذه النفس عن كل ما يسبب لها القلق والإرباك، كما أمر الله تعالى شنها ضد الجبابرة والطغاة ممن يتخذون الحرب وسيلة للتأثير في النفس البشرية .

فقال تعالى حاثاً على قتال الأعداء: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ
الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ
شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

والحرب النفسية جزء من حالة هذا الإعداد الشامل، وحالة إرهاب العدو الواردة
في الآية يقع تأثيرها بلا شك على النفس قبل أي شيء آخر.

وقال تعالى مخاطباً رسوله الأمين - صلى الله عليه وسلم - ومن بعده كل المؤمنين :
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥]، ومعنى الآية : حث المؤمنين
على مجابهة الأعداء، وقسط كبير من هذا يقع في الجانب المعنوي .

وحفلت السنة المطهرة بالكثير من جوانب الحرب النفسية وصورها وأساليبها
فعانى المسلمون في مكة من دعاية المشركين وحصارهم وتعذيبهم، وعانوا منهم ومن
المنافقين واليهود في المدينة بمحاولات تمزيق الصف المؤمن وتثييط همهم عن الجهاد
وبإشاعة الإفك وغيرها فكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمسلمون بالمرصاد
حتى كتب الله تعالى لهم النصر..

وقد تعددت أقوال الفقهاء وآراء العلماء في الإشارة إلى الكثير من صور الحرب
النفسية وكيفية صدها ووضع الأحكام للتعامل معها في إشارات اختلفت قوة وضعفاً
ولم تنتظم جميعاً في كتاب يجمع هذه الأحكام الفقهية، مما دفعني بعد التوكل على الله
تعالى لكتابة دراستي هذه في محاوله لجمع وترتيب هذه الأحكام الفقهية حسب
أساليب الحرب النفسية وقد أسميتها:

(الحرب النفسية مفاهيم إعلامية وأحكام فقهية).

فما كان فيها من إجادة وصلاح فمن الله تعالى، وما ورد فيها من نقص فهو مني وما
يرفق الكمال إلا بالله تعالى، والله ولي التوفيق .

جاء عنوان دراستي عاماً في الحرب النفسية، وتطرقت إليها بإسهاب حاولت أن يكون وافياً للغرض الذي كتبت من أجله فبدأت بتعريفات هذه الحرب وبيان مصطلحاتها وأساليبها وأهدافها ثم إيضاح خطورتها وسبل مقاومتها . وكان لابد من الوقوف على صور وجودها في القرآن والسنة قبل الخوض في تحديد أحكامها .

وكانت مراحل هذا العمل تتطلب وقتاً أكبر للإلمام بتفاصيله والخروج بدقة أكبر، إلا أن الباحث عانى من ضيق الوقت الذي يتعارض مع سعة وتداخل الموضوع وتوزعه بين علوم عدة كالإعلام والفقه وعلم النفس والسياسة والاجتماع والجهاد، مما يتطلب موازنة بين كل هذه الاتجاهات العلمية للخروج أخيراً ببحث يوضح بصمات الفقه الإسلامي على ظاهرة إعلامية - نفسية - اجتماعية - عسكرية ... وكان لابد من الاطلاع على مداخل هذه العلوم وعمومياتها بهدف تحقيق هذا الجانب .

ولا يخفى على أحد واقع الظروف العصيبة التي مر بها البلد عموماً، من فقدان للأمن والاستقرار وتهجير قسري عانى منه الباحث فأثر سلبياً على استغلال الوقت بشكل أمثل والوقوف على تفاصيل الموضوع بصورة أكثر دقة وموضوعية إضافة إلى ظروف اجتماعية صعبة كان فيها لطف الله تعالى وعنايته حاضرة على الدوام مما اضطر الباحث لمواصلة البحث على مراحل زمنية متقطعة آملاً في ذلك كله تقديم رسالة علمية تدرج ضمن مباحث الإعلام الإسلامي تؤثر حدود وتفاصيل ظاهرة حياتية شغلت الناس قديماً وحديثاً مما يتطلب من أي باحث في مثل هذا الموضوع استيعاب لغة ومصطلحات الإعلام ما دام يكتب في هذا المجال ثم استيعاب لغة الفقه وأقوال الفقهاء ما اتصل الأمر بإيضاح الآراء في هذا المجال، لتحقيق التوازن المطلوب^(١) .

(١) مما سهل على الباحث أنه حاصل على شهادة البكالوريوس من كلية الإعلام جامعة بغداد أهله لفهم ماهية الإعلام وفنونه، بالإضافة إلى حصوله على شهادة البكالوريوس من كلية العلوم الإسلامية جامعة بغداد أيضاً.

ولا يفوتني التذكير أن صور وأساليب الحرب النفسية وردت متفرقة ضمن فقه الجهاد وأحكامه وضوابطه في الفقه الإسلامي ولم يكتب عنه بشكل واضح ومستقل حتى في المؤلفات المعاصرة باستثناء كتاب الدكتور أحمد نوفل (الحرب النفسية في المنظور الإسلامي) وهو مؤلف عام وجهد مبارك ألا أنه لا يتصل مباشرة بموضوع هذه الدراسة . مما تطلب من الباحث النظر ملياً قدر المستطاع في آيات القرآن والأحاديث النبوية الشريفة وفي ما كتب عن الجهاد والمغازي لاستظهار واستنطاق الصور والكلمات التي تعبر عن وجود الدعاية والإشاعة وبقية أساليب الحرب النفسية ثم محاولة إخضاعها وترتيبها ضمن أحكام فقهية عمل بها المسلمون وما زالت تصلح لذلك في إطار علاقة الأمة الإسلامية ببقية العالم ومن خلال ذلك يتم بيان نوع ودرجة الحكم الفقهي المتعلق بهذه المسائل .

وسلكت في كتابة هذه الرسالة مسلكاً يلقي الضوء على مفهوم الحرب النفسية لدى علماء الاتصال والإعلام، ومحاولة تعريفها في المنظور الإسلامي كجزء من عملية تحديد موقعها في مباحث الإعلام الإسلامي، ثم طريقة الاستدلال والاستشهاد بنصوص القرآن الكريم والسيرة النبوية الشريفة، والنظر في أقوال الفقهاء المتقدمين والتي أوضحوا فيها نواة أو إشارات تخص الموضوع الذي أكتب فيه كما ركزت على أقوال وآراء المتأخرين من فقهاءنا لأهميتها في الشرح والإضافة على مؤلفات سلف الأمة، من دون تعصب لرأي معين أو تقليد بعيد عن الحق على الرغم من عموم الحالات المدروسة في البحث وبعدها عن التعدد في الآراء لكونها في الغالب مما اتفقت عليها أقوال أهل العلم .

وفي مجال تخريج الأحاديث الواردة اعتمدت - قدر المستطاع - على أمهات المراجع وأصولها في هذا الشأن مع إيضاح آراء العلماء في درجتها من حيث قوتها وحسنها وضعفها لتقديم أقصى ما يمكنني تقديمه من فائدة .

❖ خطة البحث :

وقد قسّمت الرسالة إلى : مقدمة وأربعة فصول وخاتمة . خصصت المقدمة لبيان أهمية الموضوع وسبب اختياري له ومنهجية البحث مع الصعوبات التي واجهتني أثناء الكتابة إضافة إلى خطة البحث .

أما الفصل الأول فهو: الحرب النفسية: تعريفها، ومعناها في الشريعة الإسلامية. وقد تضمن مبحثين .

والفصل الثاني بعنوان: الحرب النفسية، أهدافها وأساليبها وسبل مقاومتها، حيث اشتمل على مبحثين أيضاً.

والفصل الثالث تضمن ثلاثة مباحث، الأول عن مشروعية الحرب النفسية وحكمها، وتناول الثاني : الحرب النفسية في القرآن الكريم، واختص الثالث بالحرب النفسية في السنة النبوية. وجاء الفصل الرابع محددًا الأحكام الفقهية للإشاعة والدعاية والحرب الاقتصادية والمناورات السياسية وأحكام عامة لم تخضع لأساليب الحرب النفسية المعروفة . ثم أعقبت ذلك بخاتمة البحث ونتائجه.

وختاماً فإن أصل هذا الكتاب رسالة ماجستير مقدمة إلى الجامعة الإسلامية ببغداد، تخصص (سياسة شرعية) حيث يعد الإعلام الإسلامي من مباحثها المهمة، وهذه المناسبة أتقدم بالشكر إلى هذه الجامعة التي احتضنتها، ممثلة بشخصية الدكتور (عبد المنعم خليل الهيتي) عميد كلية الشريعة والقانون، والدكتور (هيثم عبد السلام) الذي أشرف على الباحث بروح الحرص والتقويم العلمي، والدكتور (هاشم أحمد نعيمش) الذي أثرى البحث بآرائه، وطائفة من ذوي الفضل سدد الله خطاهم وزادهم رفعة .

وباب الشكر موصول لزملائنا في الرابطة الإسلامية للإعلام ببغداد حيث قدمت

إدارتها الدعم المطلوب لإصدار هذا الكتاب تشجيعاً لبحوث الإعلام الإسلامي ...
أدعو الله تعالى أن يقبل عملي هذا في باب الدعوة إليه وان يغفر لنا ويرحمنا ويسدد
خطانا إنه تعالى على كل شيء قدير.

عبد الهادي الزبيدي

بغداد - ٢٠٠٩

الفصل الأول

الحرب النفسية : تعريفها ، نشأتها

معناها في الشريعة الإسلامية

المبحث الأول: تعريف الحرب النفسية ونشأتها

المطلب الأول: الحرب النفسية، تعريفها ومصطلحاتها

يصعب حصر مصطلح الحرب النفسية في تعريف واحد، على الرغم من انتشاره وذيوعه وسعة تداوله، وذلك تبعاً للجوانب والمعارف التي تتعلق بها ويعنى بها، فالحرب النفسية هي قتال بمعنى الصراع، وبمعنى وجود القضية وبمعنى وجود المنتصر والمنهزم فيها، وهي ذات علائق عسكرية ونفسية واقتصادية وحضارية، أما في الفقه^(١) والإعلام الإسلامي فتأخذ مساحة واسعة ضمن باب الجهاد وأحكام

(١) الفقه لغة: الفقه -بالكسر-: العلم بالشيء والفهم له والفطنة، وغلب على علم الدين لشرفه. وفقهه: ككرم وفرح، فهو فقيه وفقه كندس. ومنه فقهاء، وهي فقيهة. وفقهه: كعلمه: فهمه. وفقهه تفقيهاً: علمه. وفاقهه: باحثه في العلم. (القاموس المحيط، مادة فقه، ص ١٦١٤). وقال الراغب: فقه الرجل فقاهة، إذا صار فقيهاً، وفقهت الرجل: غلبته في الفقه. وتفقه: إذا طلبه فتخصص به، قال تعالى: ﴿لَسَفَقَهُوْا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢]. (ينظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصبهاني، دار القلم، دمشق، ١-٢، ص ٣٨٤).

وفي الاصطلاح عرفه الإمام الرازي بأنه: العلم بالأحكام الشرعية العملية المستدل على أعيانها بحيث لا يعلم كونها من الدين ضرورة. (المحصول في علم أصول الفقه، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨، ط ١، مجلد ١، ص ١٠). وعرفه الشوكاني: العلم بالأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية بالاستدلال. (إرشاد الفحول للشوكاني، تحقيق: محمد سعيد البدري، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٢، ١/ ١٨). وقال أصحاب الشافعي بأنه: العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية. (ينظر: أبجد العلوم، لصديق بن حسن القنوجي، تحقيق: عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨، ج ٢، ص ٤٠٠).

أما الإعلام الإسلامي فهو تزويد الجماهير بالحقائق المستمدة من أصول الدين الإسلامي (القرآن والسنة) بصورة مباشرة أو غير مباشرة من خلال وسيلة إعلامية عامة بوساطة قائم بالاتصال مدرك للرسالة التي يتناولها بغية تكوين رأي عام وصائب، يترجمها إلى واقع في سلوكه ومعاملاته... (ينظر: درشدي شحاتة أبو زيد، مسؤولية الإعلام الإسلامي في ظل النظام العالمي الجديد، القاهرة، ١٩٩٩، ط ١، ص ٢٣).

الحرب والسلام، في الأول، من دون أن تكون لها التسمية نفسها، وتحتل حيزاً واسعاً ضمن أبواب الإعلام الإسلامي لعنايتها الواسعة بالنفس البشرية ومحاولة إنقاذها من كل أسباب الظلم وإخضاع الآخر. ولهذا فقد تنوعت تعريفات الحرب النفسية بتنوع زاوية النظر إليها أو المقصد الذي يراد عكسه من خلالها، بل لتداخلها مع بعض المفاهيم والظواهر كالدعاية باعتبارها أبرز دلالة إلى ذلك.

وقد عرفت الحرب النفسية كمصطلح لأول مرة في ملحق (ويبستر) الدولي الجديد للغة الانكليزية عام ١٩٤١ بأنها: (هي استخدام أي وسيلة بقصد التأثير على الروح المعنوية وعلى سلوك أي جماعة لغرض عسكري معين)^(١).

ولم يتم التوقف عند هذه الحدود من التعريف بل أخذ الباحثون في هذا المجال يحذفون ويضيفون، حتى ظهرت عشرات التعريفات للحرب النفسية رغم أنها تشترك في الدوران في حلقات عريضة عامة يتصل بعضها ببعض الآخر، منها ما يركز على الجوانب الحربية ومنها ما يركز على الجوانب الاجتماعية والنفسية ومنها ما يركز على الجوانب الاقتصادية أو غير ذلك مما نلمسه باستعراض عدد منها، وكما يلي:

١- (هي نوع من القتال النفسي لا يتجه إلا إلى العدو ولا يسعى إلا إلى القضاء على إيمان المستقبل بذاته وبثقته في نفسه، وبعبارة أخرى هي تسعى لا إلى الإقناع والاقتناع وإنما تهدف تحطيم الإرادة الفردية)^(٢).

حيث يركز هذا التعريف على الناحية العقائدية والفكرية والنفسية.

(١) صلاح نصر، الحرب النفسية: معركة الكلمة والمعتقد، الجزء الأول، القاهرة، دار القاهرة للطباعة والنشر، ١٩٦٧، الطبعة الثانية، ص ٨٩.

(٢) الدكتور حامد ربيع، الحرب النفسية في الوطن العربي، واسط للدراسات، العراق، عام ١٩٨٩، ص ٣٣.

٢- (هي استخدام مخطط من جانب دولة أو مجموعة من الدول في وقت الحرب أو وقت السلام لإجراءات إعلامية بقصد التأثير في آراء وعواطف ومواقف وسلوك جماعات أجنبية معادية أو محايدة أو صديقة تساعد على تحقيق سياسة وأهداف الدولة أو الدول المستخدمة)^(١).

وهو يسلط الضوء على تعريف الحرب النفسية من الجوانب السياسية والإعلامية.

٣- (هي شن هجوم مبرمج على نفسية وعقل الفرد والجماعة لغرض إحداث التفكك والوهن والارتباك فيهما وجعلهما فريسة لمخططات وأهداف الجهة صاحبة العلاقة مما يمهد للسيطرة عليها وتوجيهها إلى الوجهة المقصودة ضد مصلحتها الحقيقية أو ضد تطلعاتها وآمالها في التنمية أو الاستقلال أو الحياد أو الرفض.. إلخ)^(٢). ويشخص هذا التعريف -الظاهرة- من وجهة النظر النفسية.

٤- (حرب هجومية يخوضها جيش بأسلحة فكرية وعاطفية من أجل تحطيم قوة المقاومة المعنوية في جيش العدو وفي السكان المدنيين، وتخاض هذه الحرب للتقليل من نفوذ العدو في أعين الدول المحايدة)^(٣). ونرى تركيز التعريف على الجوانب العسكرية والنفسية.

٥- (هي جهود سلبية أو ايجابية تصدر من فرد أو جماعة أو دولة أو عدة دول متحالفة، وتوجه ضد الفرد أو الجماعة أو الدول الصديقة أو المحايدة والمعادية على حد سواء بهدف التأثير في المعنويات والاتجاهات والآراء والأفكار والمبادئ والمعتقدات)^(٤).

(١) د. حامد عبد السلام زهران، علم النفس الاجتماعي، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٨٤، ص ٣٩٥.

(٢) فخري الدباغ، الحرب النفسية، سلسلة الموسوعة الصغيرة رقم ٣٨، بغداد، وزارة الثقافة، ١٩٧٩، ص ٣.

(٣) د. أحمد بدر، الاتصال بالجمهور والدعاية الدولية، دار القلم، الكويت، ١٩٧٤، ط ١، ص ٢٠٧.

(٤) وهيب مجيد الكبيسي وآخرون، الحرب النفسية وأساليب مواجهتها، مجلة حوليات الإعلام، العدد ٣،

١٩٨٣، ص ١٤٨.

حيث ينظر الباحث إلى الحرب النفسية من الزوايا النفسية والإعلامية.

٦- (الحرب النفسية هي الحرب كلها سواء كانت بالقوة المادية أو القوة المعنوية وهدفها هو وضع العدو في حالة نفسية معينة هي حالة الهزيمة) ومن هذا التعريف نخرج بأن الحرب النفسية ليس لها وجود منفصل عن سائر أنواع الحرب العسكرية والاقتصادية والسياسية والعقائدية .. (وإنها هي أصل الحروب كلها) ^(١).

ونتلمس فيه زاوية - النظر العسكرية والنفسية.

٧- (تتضمن الحرب النفسانية استخدام الدعاية ضد العدو بالإضافة إلى استعمال وسائل أخرى لها طابع النشاط الحربي أو الاقتصادي أو السياسي على النحو الذي يكون مكملًا لنشاط الدعاية) ^(٢).

حيث يركز هذا التعريف على وجهة النظر الإعلامية.

٨- (هي حالة قتال مسلح جسدي أو نفسي أو كليهما، بين مجموعات بشرية ينطوي عليها تحقيق أهداف معينة بالعنف، وهي في حياة الشعوب مصير خطير ذو أهمية بالغة، فأما أن يوصلها إلى عاقبة من الانتصار والسعادة، أو يزجها في ضرام من الشقاء والهزيمة) ^(٣).

وينظر هذا التعريف إلى الحرب النفسية كونها ظاهرة عسكرية - اجتماعية ..

٩- (إنها استخدام الدعاية ضد العدو مع إجراءات عملية أخرى ذات طبيعة عسكرية أو اقتصادية أو سياسية، مما تتطلبه الدعاية) ^(٤).

(١) جمال السيد، أضواء على الحرب النفسية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢، ص ١٥.

(٢) ينظر، د. محمد عبد القادر حاتم، الرأي العام وتأثره بالإعلام والدعاية، بيروت، ١٩٧٣، ص ١٨٥.

(٣) موسى زناد، الحرب النفسية، بغداد، مكتبة الفكر العربي، ١٩٨٤، ط ١، ص ٩.

(٤) ينظر: الدكتور أحمد نوفل، الحرب النفسية - الكتاب الأول - الأردن، ١٩٨٩، ط ٣، ص ٣٣.

والتعريف لبول لينبارجر.

ونرى وجهة النظر الإعلامية واضحة.

١٠- (هي الأعمال التي يقوم بها الخصم ضد الآخر للتأثير عليه، هادفاً من ذلك شل إرادته وتفكيره وقواه المادية والمعنوية)^(١).

ويركز هذا التعريف على الجوانب النفسية والعقائدية.

ومن هذه التعريفات المتنوعة ومن غيرها ترسم أمام الباحث في الموضوع محاور عدة مستخلصة منها، أهمها:

١- إن الحرب النفسية حرب شاملة، تعتمد الإجراءات والاستعدادات النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وكل ما يمتلكه المجتمع أو الدولة المهاجمة مما يصلح أن يكون لها سند في خوض هذه الحرب وتحقيق الأهداف من خلالها، ويتوقف نجاحها على تكامل وقوة هذه الاستعدادات وكذلك على (المواقف السياسية والعسكرية المختلفة)^(٢).

٢- وعلى ما يمكن أن تحدثه هذه الحرب من تخريب أو دمار أو إضعاف في قدرة العدو القتالية أو المكمل للقتال. وهذا الشمول الذي تنسم به الحرب النفسية يحتم عليها إبراز وممارسة نشاطها وفعاليتها في كل المجالات والوسائل المتاحة للدولة، (والحرب النفسية هي أحدث أسلحة الحرب توجه ضد -الفكر والعقيدة والشجاعة والثقة- وضد الرغبة في القتال، وهي حرب دفاعية هجومية وذلك لأنها تحاول أن تبني معنويات الشعب والجنود، بينما تحطم في الوقت نفسه معنويات العدو)^(٣).

(١) جهاد بنت محمد عبد الغفار علي، الحرب النفسية من أدوات نصر الإسلام، شبكة نور الإسلام ١٤٢٨/١٠/١٦هـ.

(٢) صلاح نصر، معركة الكلمة والمعتقد، مصدر سابق، ص ١٩٢.

(٣) صلاح نصر، معركة الكلمة والمعتقد، ص ١١٠.

٣- تشن الحرب النفسية قبل وأثناء وبعد مرحلة القتال المباشرة، متخذة من الدعاية والإشاعة والحصار الاقتصادي والضغط السياسي وغسيل الدماغ وإثارة الرعب والذعر أدوات مهمة في ذلك. ويزداد تأثير هذه الحرب وفعاليتها مع اكتشاف أهمية وسعة النتائج المتحصلة منها.

٤- تستهدف الحرب النفسية عقل الإنسان وفكره ومعنوياته، لا جسده، وذلك لأجل خلخلة توازنه وإرباكه وتغيير قناعاته فيفقد عند ذاك قابلية القتال وقدرة التحرك لتنفيذ سياسة ومخططات دولته أو قاداته بعد فقدانه القناعة بما يفعل أو بما يراد منه فعله. (ويقصد بها السعي نحو تحطيم الذات القومية. الحرب النفسية ليست مجرد تغيير رأي أو تعميق علاقة ولاء، إنها أكثر من ذلك. إنها تحويل لموقف حيث المواطن والفرد يفقد كل الثقة في ذاته القومية)^(١).

وفي المأثور: قيل لعلي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) كيف تمكنت من قتل هذا العدد الكبير الذي قتلته من أعدائك؟ فقال: ما كررت على واحد إلا وظن أنني قاتله، فأكون أنا ونفسي عليه^(٢).

أي بمعنى أن الحرب النفسية تتعامل مع النفس الإنسانية، مخاطبة عوامل الضعف والقوة فيها فتشغل جوانب الضعف لتعميقها وتحويلها إلى مصدر تدمير ذاتي، وتخطب جوانب القوة لزعزعتها وتدمير دعائمها. (إن الحرب النفسية ليست أفضل أو أسوأ من غيرها من أشكال الصراعات الدولية، والاختلاف كله. إن الإنسان لا يصاب منها بضرر جسماني نسبي إذا ما قورنت بحرب الأسلحة الأخرى. ومن ناحية تكاليفها نجد أنه لا يمكن مقارنة آثارها البالغة على العدو بالنسبة إلى نفقاتها)^(٣).

(١) د. حامد ربيع، الحرب النفسية في الوطن العربي، ص ٣٣٤.

(٢) د. أحمد نوفل، الحرب النفسية، الكتاب الأول، ص ٤.

(٣) صلاح نصر، معركة الكلمة والمعتقد، ص ١٠٥.

٥- مفهوم الحرب النفسية طالما كان مرتبطاً بالحرب الشاملة، فإن ذلك يعني أنها تتطلب التخطيط المسبق والإعداد الواعي لكل جزئية أو مطلب من مطالبها، وذلك أدعى للنجاح في خوض وتنفيذ واستحصال نتائج الحرب النفسية، وهذا يعني توظيف واستغلال كل أموال وإمكانات الدولة في خدمة هذا الإعداد والاستنفار لشن هذه الحرب، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (١٠) [الأنفال: ٦٠].

ومعلوم أن هذا الإعداد مقصده إرهاب العدو وزعزعة ثقته بنفسه وقدراته وتدمير قوته المعنوية والمادية التي قد تدفعه لامتلاك القوة التي تستهدف من خلالها الآخرين. (الحرب النفسية من جانب آخر من حيث الإعداد لها هي الالتقاء بين خمس خبرات يجب أن تتفاعل فيما بينها لتقدم الإطار الكامل للتصور المتعلق بالتعامل مع الخصم: سياسية، ونفسية وعسكرية وإعلامية واقتصادية)^(١).

٦- يفترض مفهوم الحرب النفسية دراسة مجتمع الخصم وملاحقة مكوناته عن كسب ودراية وتفصيل (وتشخيص نقاط ضعفه وقوته تشخيصاً علمياً ودقيقاً وموضوعياً استناداً إلى فهم الحرب النفسية عبر إطارين: الأول: هو أنها شكل من أشكال القتال كما ذكرنا، مما يعني أن التخطيط لها ومن ثم تنفيذ حملتها يستلزم دراسة ميدان (المعركة) دراسة مستفيضة، لتقدير حجم الإمكانات المطلوبة لتحقيق النصر بأقل تكلفة وبأكبر نسبة من الثبات والاستمرارية.. والإطار الثاني، هو أن الحرب النفسية في جوهرها عملية اتصالية وشكل من أشكال الاتصال الجماهيري الذي يعد الجمهور المستقبل أحد عناصره الرئيسية:- (المرسل - رسالة - المستقبل)^(٢).

(١) د. حامد ربيع، الحرب النفسية في الوطن العربي، ص ٣٣٨.

(٢) لقاء مكّي شفيق، الحرب النفسية للكيان الصهيوني في تشرين ١٩٧٣، رسالة ماجستير، قسم الإعلام،

كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٨، ص ١٣.

٧- توجه الحرب النفسية إلى مجتمع الخصم، أفراداً وجماعات وقادة، بهدف إرباك توازنها وتشكيك ذواتها في قدراتها المعنوية والمادية ولا توجه إلى المجتمعات الصديقة أو المحايدة بهدف دفعها إلى الثبات على حالة الحياد، وليس إلى الداخل أي إلى الأفراد والمجتمعات المنفذة لهذه الحرب لأن ذلك يحولها إلى مفاهيم أخرى أقربها إلى هذا التصور مفهوم الدعوة ومفهوم الدعاية، أما من قال في تعريفه للحرب النفسية إنها توجه للصديق والمحايد، فقد اختلط لديهم مفهوم الدعاية بالحرب النفسية، فالدعاية يمكن أن تكون أداة من أدواتها ولكنها ليست هي قطعاً، والفرق الجوهرى بينهما أن الحرب النفسية لا توجه إلا إلى العدو، أما الدعاية فيمكن أن توجه إلى الأنماط الثلاثة: العدو والصديق والمحايد .

(إن الوسائل والأساليب متعددة ومختلفة في هذه الحرب، وما زال الباب مفتوحاً لاستحداث وسائل جديدة)^(١).

فهي ليست تعامللاً نفسياً مباشراً، ولها أدواتها ووسائلها في ذلك والتي تقود إلى تحقيق النتيجة المطلوبة من هذه الحرب : نشر وتضخيم الإشاعات، نشر الفوضى، إثارة الرعب، الإخلال بتماسك وأمن المجتمع المستهدف، قتل الزعماء، إضعاف معنويات الخصم، وغيرها، وما دامت الحرب النفسية وطرق شنّها وتنفيذها بهذا المنطق فهي لن تخرج مطلقاً عن ميادين التحديث والتطوير والتجديد (يسهل من الحرب النفسية اكتشاف أساليب جديدة للتحكم في المنطق البشري والتي وصلت إلى مرحلة متقدمة من حيث التجريب والتي يمكن أن توجه إلى المجتمع الكلي أو على الأقل إلى الزعماء والقيادات)^(٢).

(١) د. هيثم عبد السلام، الحرب النفسية في المنظور الإسلامي، مجلة الحكمة، بغداد، عدد ٢٩، ٢٠٠٢،

ص ١١٩.

(٢) الدكتور حامد ربيع، مصدر سابق ص ٣٤١.

ونتيجة لتنوع وتعدد تعريفات الحرب النفسية - كما رأينا - تبعاً لتنوع زاوية النظر إليها وإهمال جانب منها على حساب آخر، أو إبراز جانب معين مقابل آخر، فقد تنوعت تسميات ومصطلحات الحرب النفسية كذلك، على الرغم من كون اسمها الذي عرفت به طاغياً على البقية، ولهذا فقد تم تداول مفهوم أو ظاهرة الحرب النفسية بإكسابها اسماً آخر نتيجة لاختلاف وجهات النظر في تغليب جانب أو عنصر أو مؤثر من جوانبها أو عناصرها أو مؤثراتها، ولهذا وجدنا مصطلحات وتسميات متنوعة كلها أطلقت للدلالة على مفهوم الحرب النفسية، مثل: (حرب المعنويات، الحرب السياسية، الحرب الباردة، غسيل الدماغ، حرب الأفكار أو الأعصاب، حرب الإرادة، الحرب الثورية، الحرب الأيدلوجية، حرب المعلومات، حرب الدعاية، الحرب غير التقليدية، حرب الإشاعات، وغيرها..) وسنحاول إلقاء بصيص من الضوء على معاني أبرز هذه المصطلحات لأهمية ذلك في التعرف على الحرب النفسية من نواحي المفهوم والماهية والدلالة.

أولاً: الحرب السياسية: أطلق البريطانيون في العصر الحديث هذه التسمية على نشاطات الحرب النفسية المعادية الموجهة ضدهم، وقالوا: إن هدفها هو إضعاف العدو - وإذا أمكن - تدميره بواسطة استخدام المناورات الدبلوماسية واستغلال المعلومات المتوفرة في تضليله وابتلاع طرق الضغوط الاقتصادية الموافقة للنشاط السياسي العام إضافة إلى إثارة الخوف والرعب وعزل العدو عن مؤيديه^(١).

ويسمي الدكتور حامد ربيع هذه الحالة بالتسمم السياسي (ويعني غرس القيم الجديدة بحيث يتم من خلالها إعادة تشكيل لنظام القيم السائدة فإذا بالقيم العليا القومية تنزحزح إلى مرتبة ثانية لتحل محلها القيم الدخيلة وغير المعبرة عن التقاليد

(١) ينظر بهذا الخصوص: الدكتور أحمد نوفل، الحرب النفسية، الكتاب الأول، مصدر سابق، ص ٣٨ وما بعدها.

التاريخية والقومية لترفع إلى مرتبة القيم العليا^(١).

والحرب السياسية، تعتمد في الكثير من آلياتها في زرع القيم والأفكار الجديدة على الكذب والخداع والتشويه، فتحدث موقفاً آخر يختلف تماماً عن الموقف الحقيقي أو الذي ينبغي أن يكون عليه، مما يترتب عليه عند اكتشاف تلك الحقيقة نوع من الصدمة النفسية، مما يؤدي إلى شلل نفسي، ومن ثم إلى عدم القدرة على عملية المواجهة^(٢).

وقد تكون الحرب السياسية أو التسميم السياسي مقدمة لمعركة قادمة أو قد تشن بشكل لاحق أو مرافق لها وهي قد تحقق انتصاراً لم يكن في الحسبان.

ثانياً: حرب المعنويات: ترتبط المعنويات باستقرار الحالة النفسية للفرد المقاتل أو الشعب أو القائد وترتبط من ناحية أخرى بصفاء ووضوح الهدف والعقيدة التي يحارب من أجلها الإنسان ويتعرض في سبيلها للأخطار. (القوات المسلحة لها مصدران للقوة "مصدر معنوي ومصدر مادي". والمصدر المعنوي للقوة أهم بكثير من المصدر المادي، ولإحراز النصر يجب توجيه ضربات نفسية قوية إلى معنويات العدو باعتبارها مصدر القوة لديه)^(٣).

ويعني هذا بالتأكيد استهداف معنويات الخصم وهزها هزاً عنيفاً بالشائعات أو إثارة الرعب أو بتحطيم الإرادة وغير ذلك من وسائل الحرب النفسية المعروفة، وللمعنويات أثر سلبي أيضاً في الطرف الموجه أو القائم بالحرب النفسية إذا لم يتم إتقان التعامل معها أو تعزيزها (وفي الاتجاه المعاكس فإن المعنويات السيئة تتميز في

(١) الدكتور حامد ربيع مصدر سابق، ص ٣٣٤

(٢) محمد أحمد منصور، الحرب النفسية ومفاهيم جديدة للممارسات قديمة، مجلة البيان، عدد ١٦٥، ص ١٢١.

(٣) د. أحمد نوفل، الحرب النفسية، الكتاب الأول، مصدر سابق، ص ٥٧.

خلال القتال بظواهر مثل انعدام الفاعلية -عدم الرمي، عدم التقدم، انسحاب غير مبرر- والهروب (الفرار من الخدمة، الاستسلام أمام العدو، الهلع) والعنف الداخلي -الشتم، عصيان الأوامر علناً، التمرد - والتفكك الاجتماعي : عدم تنفيذ الأوامر، انعدام الاتصال، نقل الشائعات المدمرة أو المحرصة^(١).

وما دامت الحرب النفسية توجه بشكل رئيس إلى عقل الإنسان وتستهدف إقلاقه وزرع الإرباك والذعر لديه فإن المعنويات بلا شك تمثل هنا عامل التوازن الأهم في تحقيق المطلوب (والمعنويات هي العقيدة، وقد أثبت تاريخ الأمم أن الجيوش لا تهزم لقلّة موادها بل لضعف عقيدتها)^(٢).

ويمتلك الإنسان بشكل طبيعي ما يؤهل معنوياته للاستقرار مستمدة من بيئته أو محيطه وتمثل عقيدته التي يؤمن بها عنصر توازن مهم جداً ما لم تتعرض إلى هجوم مقابل قوي تهدد هذا الاستقرار والتوازن الطبيعي (لا قيمة لأي جيش مهما يكن ضخماً في عدده، دقيقاً في تنظيمه، ممتازاً في تسليحه ما لم تكن معنوياته عالية)^(٣).

وقد عمل الرسول ﷺ في مجال المعنويات كثيراً من جانبين، فقد دفع باتجاه تقوية معنويات أتباعه بشتى الطرق والمناسبات، في معركة بدر وفي غزوة حميراء الأسد وفي الخندق وفي فتح مكة وغيرها وعلى امتداد مسيرة المواجهة مع الكفار وكل أعداء الدين، ففي الخندق كان المسلمون في غاية الإنهاك والقلق والارتباك فكان عليه الصلاة والسلام، يبشرهم بفتح فارس، وبعد معركة احد مباشرة وظاهر الأمر انتصار المشركين العسكري خرج المسلمون لمطاردتهم في (حميراء الأسد) أما فتح مكة فقد

(١) العقيد شارل شانديسي، علم النفس في القوات المسلحة، ترجمة: محمد ياسر الأيوبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بغداد، ١٩٨٤، ط ٢، ص ١١١.

(٢) اللواء الركن محمود شيت خطاب، بين العقيدة والقيادة، دار الفكر، بيروت ١٩٧٢، ط ١، ص ٣٤.

(٣) اللواء الركن محمود شيت خطاب، الرسول القائد، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٩٦، ط ٢، ص ٣٢٨.

أوصل المصطفى ﷺ معنويات المسلمين إلى أعلى درجة من الارتفاع والارتقاء^(١).

وسعى الإسلام من جانب آخر إلى استهداف معنويات العدو لخطورتها وأهميتها في كسب المعارك. (لقد استهدف الرسول- صلى الله عليه وسلم- في كل غزواته تحطيم معنويات أعدائه، بل إنه كان يستهدف تحطيم المعنويات أكثر مما يستهدف تحطيم القوى المادية لأنه كان يطمح دائماً في عودة أعدائه إلى الطريق المستقيم والهداية فيحرص على إيقائهم أحياء)^(٢).

ثالثاً : حرب المعلومات : يؤكد هذا المصطلح على جانب مهم من جوانب الحرب النفسية هو: امتلاك العلم والمعرفة بالمعلومات وحسن إدارتها والتصرف بها في الوقت والزمان المناسب لإيقاع أقوى أثر ممكن من الإرباك في صفوف الخصم أو إحداث أثر قوي يساهم في تحصين وتماسك الفرد والمجتمع القائم بشن الحرب النفسية . (فمثلاً الإعلان عن إنجاز عمل معين في أي مجال من مجالات الحياة وإظهار مزاياه بأكثر مما يستحق، والتهويل من شأنه مع طمس مساوئه بإخراجه بصورة تخالف الحقيقة، فصل المعلومة الدقيقة عن هذا العمل إلى الخصم فيخزنها ويبتظر اللحظة المناسبة ليطلقها فيترك أثراً بالغاً وعميقاً من حيث الثقة في مصدر تلك المعلومة المبني أصلاً على التهويل والتضليل المتعمد)^(٣).

وتعرف حرب المعلومات على أنها (الفصل أو إيجاد الحدث للوصول إلى التفوق المعلوماتي لإسناد الاستراتيجية العسكرية من خلال التأثير على معلومات الخصم وأنظمة معلوماته، وفي الوقت نفسه حماية المعلومات وأنظمة المعلومات لصاحب الحدث)^(٤).

(١) ينظر : ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٤٥) .

(٢) اللواء الركن محمود شيت خطاب :الرسول القائد، مصدر سابق ، ص٣٢٩.

(٣) د.هيثم عبد السلام ، مصدر سابق، ص١١٨ .

(٤) حسن الرشيد في قراءة في كتاب :حرب المعلومات الحرب القادمة، مجلة البيان، عدد ١٦٦، أيلول

٢٠٠٠، ص٥٠.

ويشير الدكتور مارتن ليبكي إلى سبعة أنواع لحرب المعلومات، هي :

١- حرب القيادة والسيطرة.

٢- الحرب الاستخبارية.

٣- الحرب الالكترونية.

٤- حرب العمليات النفسية.

٥- حرب قراصنة المعلومات.

٦- حرب المعلومات الاقتصادية.

٧- حرب المعلومات الافتراضية^(١).

وتحاول حرب المعلومات طمس حقائق معينة عن المجتمع المستهدف والتأثير عليه بالأكاذيب والتشويه وتشن هذه الحرب ضد الجنود والقادة وضد إرادة المجتمع ومنها عمليات نفسية تصمم أصلاً لفرض ثقافة معينة على دولة ما، مستخدمة وسائل الاتصال الحديثة في ذلك وفي مقدمتها شبكة المعلومات العالمية (الانترنت).

رابعاً : حرب الأفكار : من مصطلحات الحرب النفسية المعروفة، وقد مورست قديماً بقدّم ظهور ونشوء هذه الحرب وان لم تكن تخضع آنذاك للتسميات، فهي دهاء وذكاء وحسن تخلص وغيرها من الطرق وكثير من هذه الصفة تنطبق من ناحية أدائها على الأفكار والكلمات والإيحاءات وكل ما يتعلق بفنون القول والخطاب، وكلما كانت هذه الأفكار أصيلة ومرتبطة بواقع الصراع ومن ذوات التأثير القوي على عقل ونفسية الخصم ظهرت نتائجها الناجحة والحاسمة وقد أشار سلمان الفارسي ؑ إلى

(١) حسن الرشيدى ، مصدر سابق، ص ٥٠.

فكرة حفر الخندق حول المدينة فنفذت وأتت بنتائج باهرة في تعزيز معنويات واندفاع المسلمين وفي المقابل خارت معنويات المشركين وفشلت مخططاتهم حين لم يجدوا ما يفعلونه مقابل ذلك^(١).

ولحضور الفكر وثباته واستقراره أهمية قصوى في الحرب النفسية : (يحتاج المرء في الحرب ليتمكن من اجتياز الصراع الدائم ودون التعرض لأضرار كبيرة إلى -الفكر- لأنه يقود الإنسان وسط الظلام المتزايد ويحافظ على كل ذرة من ذرات الوضوح الداخلي اللازم للوصول إلى الحقيقة)^(٢).

وإذا كانت وظيفة الأفكار في الأيام الاعتيادية ربما تكون اهدأ وأكثر استقراراً وأميل إلى الاتزان والهدوء أو الرتابة، فإنها ليست كذلك في أوقات الحرب أو الطوارئ أو الأزمات، خاصة في ميدان القتال المباشر الذي تبرز فيه مواقف بحاجة إلى قرار حاسم يستند إلى فكر ثاقب ذكي، يستطيع أن يحقق النصر أو يرفع المعنويات أو يشتت صفوف الخصم، وقد أنقذ خالد بن الوليد جيش المسلمين في معركة مؤتة بعد استشهاد قادة المسلمين الثلاثة في المعركة، فانبثقت في رأسه (فكرة) الانسحاب المنظم بهدف المحافظة على سلامة الجيش والخيولة دون تحطم معنوياته أو هزيمته أمام جيش الروم الكبير.^(٣)

(وتزداد وظيفة الفكر في الحرب، وعند استخدام العنف، وإن هناك ثورة تتحقق في هذا المجال، ولكي نتحرى بدقة معنى ما يحدث تحت بصرنا، أن نحاول رؤية الفكر الذي يمثل أساس العلاقات الداخلية لهذه الأشكال المختلفة من العمل وأن ننظر إلى

(١) ينظر المباركفوري، الرحيق المختوم، دار الوفاء، مصر، ٢٠٠٥، ط ١٧، ص ٢٦٧ وما بعدها.

(٢) العقيد عزيز قادر، حرب الأفكار، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٨، ص ٦٠.

(٣) ينظر :ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبدالحفيظ شلبي، مطبعة

الخليبي، مصر، ط ١٩٥٥، ٢ (٣٧٣/٢) وما بعدها.

كل شيء نظرة كلية شاملة وموحدة وبسيطة^(١).

وقد تكون الأفكار مهلكة صاحبها ومن يتبعه إذا لم تكن مستندة إلى العقل والمنطق والاختيار الصائب فهذا الوليد بن المغيرة يعارض المنطق والفطرة السليمة فيذمه الله تعالى على هذا (الفكر) الذي لم ينفعه: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۖ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ۖ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۖ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۖ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۖ ﴿٢٤﴾﴾ [المدثر: ١٨ - ٢٤].

خامساً: الحرب الباردة: وهي لدى عدد كبير من الباحثين مرادفة لمصطلح الحرب النفسية، فقد (اقترن اصطلاح الحرب النفسية بالحروب الفعلية، لكنها أي الحرب النفسية، في الحقيقة قائمة على قدم وساق في الحروب الباردة التي تسبق أو تلي الحروب الساخنة، بل إن الحرب الباردة هي الحرب النفسية ذاتها)^(٢).

كما ويقصد بالحرب الباردة (الصراع بين دولتين أو مجموعة من الدول تهدف إلى ما تهدف إليه الحرب المسلحة من حيث كسر معنويات العدو تمهيداً لا ستسلامه في المعركة وذلك باستخدام الخطط السياسية والاقتصادية والدعائية)^(٣).

وقد ظهر هذا المفهوم تاريخياً بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وانقسام اغلب العالم إلى معسكرين قوين الاشتراكي والرأسمالي، أحدهما يعادي الآخر ويريد أن يزلزل الأرض من تحته بدون قتال بعد أن واجه العالم ويلات ومصائب الحرب الفعلية التي أجهزت وشردت وتسببت بالأذى لعشرات الملايين من البشر.

وشملت محاولات كل طرف من الأطراف المتنازعة ضمن الحرب الباردة: محاولة

(١) العقيد الركن عزيز قادر، حرب الأفكار، مصدر سابق، ص ٣٤.

(٢) د. فخري الدباغ، الحرب النفسية، مصدر سابق، ص ٤.

(٣) د. هيثم عبد السلام، مصدر سابق، ص ١١٧.

تفتت الجبهة الداخلية للخصم باستثارة الخلافات وبث الشائعات التي تستهدف المجتمع المقابل، ورافق ذلك نشاطات أخرى في المجال الاقتصادي مما يدخل في نطاق التلاعب باستقرار السوق العالمية، خاصة المواد الحيوية في الصناعة والوقود والغذاء وفرض الحصار الاقتصادي، أما في الجانب العسكري فقد ظهرت وجوه الحرب الباردة في سباق التسلح الصامت والمعلن والسعي للسيطرة على حركة وسوق السلاح في العالم ثم بإظهار القوة المسلحة بالاستعراضات العسكرية والأحلاف والاتفاقيات الدولية في مجالات السياسة والدفاع المشترك والخطط المستقبلية (إن الحرب النفسية قد دخلت في مرحلة لا هي حرب فعلية ولا هي سلام حقيقي، إذ حاول كل من المعسكرين أن يعالج المشكلات الدولية بطريقته الخاصة ومفهومه السياسي، وتسابق الطرفان في ميدان الحرب النفسية بشكل لم يظهر في التاريخ الحديث، مما أدى إلى ما سماه والتر ليمان : -الحرب الباردة- بأشكالها المختلفة)^(١).

وقد تطلب النزاع ضمن الحرب الباردة استثمار وسائل الإعلام المختلفة عن طريق فنون الدعاية والإشاعة والتشويه وتضليل الرأي العام أو استمالة قادة الرأي في العالم ضد الخصم، فظهرت ضمن هذا السياق ممارسات وصدّامات فكرية وإعلامية كبيرة وفصائح صفقات سلاح أو أسرار عسكرية أو خطط فاشلة اندرجت جميعها تحت مفهوم هذه الحرب التي استخدمت الكثير من آليات وخطوات الحرب النفسية.

المطلب الثاني: نشأة الحرب النفسية وتطورها التاريخي

لا خلاف في أن مصطلح الحرب النفسية أطلق في العصر الحديث على الإجراءات والممارسات التي تستهدف العدو وتحاول تحقيق الانتصار عليه من دون الدخول معه في قتال حقيقي، إلا أن الحرب النفسية كممارسة وسلوك وتعامل عرفت مع الإنسان

(١) صلاح نصر، معركة الكلمة والمعتقد، مصدر سابق، ص ٨٧.

منذ أقدم الأزمنة، وذلك في إطار تعامله داخل مجتمعه ضد مجتمع آخر يستهدفه بالعداء فقام الإنسان آنذاك سواء كان منتبهاً إلى المجتمع أو الدولة الغازية أو المقصودة بالغزو بأفعال وممارسات إجرائية أوقعت الرعب في نفوس الخصوم أو ساهمت في تعزيز معنويات أفراد جيشه أو شعبه مما حقق أثراً بالغاً في وحدة الصف وتماسك المجتمع فحقق بذلك نصراً بآيها الخضم بقوة أو وحدة مبالغ فيها.

لقد كانت مفاهيم (الدعاية) (والإشاعة) وإثارة الرعب وأساليب (المفاجأة) و(اغتيال القادة أو استماتهم) و(الحصار) و(تعزيز التصدي وتقوية المعنويات) من الوسائل المتبعة في حروب المدن والدول في العالم القديم، وهي صور من صور الحرب النفسية التي يتفق عليها، وإن لم تطلق عليها التسميات كما هي في عالم اليوم، فسعي الإنسان وإدراكه اليقيني أنه لابد أن يؤثر في مجتمع الآخر - الخضم - وأن يجنب نفسه والمجتمع الذي ينتمي إليه تأثير الخضم، كان الدافع الرئيس في محاولات الإنسان الأولى للبدء في عمليات التعامل النفسي مع المقابل والتركيز على هذا النمط المهم من التعامل مع النفس الإنسانية من جهة القوة الداعمة له بتعزيز وتقوية المعنويات وتجنبها كل ما يؤثر فيها سلباً، من جهة ثم استهداف معنويات الخضم من جهة أخرى، وقد أتبعه القادة والملوك وقادة الرأي في المجتمعات القديمة، ذلك لأن التعامل مع النفس الإنسانية في أوقات قوتها أو ضعفها يمثل عاملاً مهماً ومرافقاً للحروب الجسدية والقتال الحقيقي الذي كان آنذاك، وهو عامل مهم أيضاً في فهم المجتمعات ومراقبة دورها وعوامل نشوئها وانحطاطها، فالحرب كانت ولا تزال بين إنسان وآخر، بل إن الحروب القديمة كانت أدعى للالتحام الإنساني المباشر في إطار المعارك لطبيعة الأسلحة الشخصية المستخدمة في القتال آنذاك والتي تتطلب المواجهة المباشرة بين الطرفين المتنازعين مما يعني أهمية التعامل النفسي لأي طرف منهما تجاه الآخر. (إن ظاهرة التعامل النفسي ارتبطت بالوجود البشري ذاته على كوكبنا، ولكن الحرب النفسية بأساليبها المتعددة وبمفهومها العام، لم تظهر إلا مع التقدم الحضاري

وكانت تعبيراً عن هذا التطور في حالته الصراعية^(١).

والتقدم الحضاري الذي نشأت معه وتطورت فنون الحرب النفسية في العالم القديم لم يشمل بيئة دون أخرى فقد ازدهرت المدن والدول في بلاد الرافدين ومصر والصين واليونان وفارس واليمن والهند، مما يعني وجود الصراعات والحروب بين هذه الحضارات والكيانات والتي استخدمت في كثير منها ممارسات دعائية أو إشاعات أو إجراءات استهدفت نفسية الخصم بهدف إقلاقه وإرباكه.

(فكانت (الفطنة) و(الفراسة) و(العلم بطبائع النفوس) هي أدوات الإنسان البدائية لسبر أغوار النفس البشرية، وكانت تلك الصفات والمقددرات مما يتمتع به القضاة والفلاسفة والحكماء والسحرة و(رجال الدين) وما يميزهم عن الآخرين، وعرفت الخطابة وقصائد الشعر والحكايات الشعبية والأساطير كقوالب للتأثير على أذهان الناس وعرف رجال الدعاية وناقلوا الإشاعات ومروجوها والمحرضون والدعاة وما إلى ذلك في أزمنة سحيقة ..)^(٢).

ولاستكشاف صور الحرب النفسية تاريخياً نقف عند أبرزها في الحضارات القديمة:

أولاً: الحرب النفسية في وادي الرافدين :

امتدت حضارات وادي الرافدين العريقة جغرافياً وزمانياً إلى أرجاء وحقب طويلة وشاسعة ومهدت هذه الحضارات (سومر، أكد، بابل، آشور) أمام الإنسانية سبلاً للعلم والقانون والإدارة والفنون والتربية والآداب، حتى يكاد يجمع الآثاريون وعلماء التاريخ أن هذه البقعة من الأرض شهدت أولى الكيانات الإنسانية المتحضرة في الكون، فعرفت في أرجائها الكتابة والزراعة والمدنية، وقد أهلها ذلك للانتصار في

(١) د. حميدة سميسم، الحرب النفسية في العراق القديم، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٦، ص ٩.

(٢) د. أحمد نوفل، الحرب النفسية، الكتاب الأول، مصدر سابق، ص ١٠٩.

حروب عدة حدثت فيها معارك طاحنة، وأخرى تحقق الانتصار فيها بعوامل وإجراءات تعد من وسائل الحرب النفسية الحديثة، مما يعني إدراك الإنسان ضمن هذه الحضارات لخطورة هذه الإجراءات التي تخاطب النفس الإنسانية وتستهدفها لغرض وضعها كأداة رئيسة من أدوات النصر والهزيمة في الصراع القائم.

وقد كان من أقدم النصوص والشواهد على استخدام الحرب النفسية في القتال ضد الأعداء، ما ذكر في (نص شعري) يعود إلى ما قبل خمسة آلاف سنة تقريباً، وقد ورد ضمن لوحات كتبت باللغة السومرية يشير إلى حادثة سياسية، اتبع فيها قائد (الوركاء) المسمى (اينمركار) أسلوباً ذكياً في التأثير على الأعداء من مدينة (أرتا) فقد صمم هذا القائد على اتباع طريقة التعامل مع العدو المهاجم بحيث يجعل أهلها يتبعون آراءه وسياسته، فأفلح في كسر معنوياتهم وتثبيط همهم حتى وصل الأمر بهم - فعلاً - إلى التخلي عن سيادتهم ليصبحوا تبعاً لمدينة (الوركاء - أوروك) فقد بث الرعب في قلوبهم تدريجياً، ثم أوصلهم إلى حالة من الإنذار الأخير بالتدمير الشامل إذا لم يستسلموا له ويخضعوا لإرادته^(١).

ثم حين ضعفت المدن في إطار المرحلة السومرية برزت الحاجة إلى نظام موحد يشمل الجميع في دولة قوية موحدة، فكان لابد من قيام سلسلة من الصراعات والحروب الفعلية والنفسية، والتي تكلفت تاريخياً بعد ذلك في ظهور (لوكال زاكيزي) الذي قامت على يديه الإمبراطورية الآكادية، وقد اتجهت هذه بدورها إلى تعزيز (معنويات) الأفراد داخل الدولة بإنشاء نظامين سياسيين شعبيين لتمثيل الأفراد لدى (الحكومة) القائمة مما ساهم في تقوية دور الأفراد وتحسين المجتمع داخلياً من (الإشاعات) أو (حرب الدعاية) الموجهة ضدهم من باقي المجتمعات المجاورة وكذلك برزت في هذه المرحلة الحاجة الملحة إلى إخضاع إرادة أي طرف

(١) ينظر، د. حميدة سميسم، الحرب النفسية، مصدر سابق، ص ١٤.

يعادي هذا الكيان الجديد من دون الاضطرار إلى قتال فعلي، وذلك بإظهار القوة والمنعة وشدة التآزر ضد العدو . لهذا فإن التطور في ابتكار الأسلحة واستخدامها إنما يعبر عن تطور معين في استنباط أساليب قتالية جديدة وهذه بدورها لابد أن تترك آثارها على الحرب النفسية ذاتها^(١).

وارتبط تطور السلاح في تلك الحقبة الزمنية السحيقة إلى بروز أنماط أخرى تعد من أساليب القتال النفسي وردع العدوان قبل أن يصل إلى حالة القتال الحقيقي، أهمها بناء الأسوار المحيطة بالمدن والعمران لحمايتهم من الهجمات الخارجية، فأحيطت مدينة (الوركاء) بسور دفاعي في عهد ملكها (كلكاش) بحدود سنة (٢٧٠٠) ق.م وكان طوله (٩) كيلومترات ومن خلاله كان الملك يتصيد الأعداء كما يصطاد الطيور^(٢).

كما أن كلكاش نفسه اتبع طريقة مبتكرة في قتال (ملك لكش) ونجح في تحقيق النصر عليه من دون قتال، فقد حاصرت قوات (لكش) مدينة (اوروك) بقوة كبيرة لا طائل لهم على قتالها، فما كان من (كلكاش) إلا أن يعتلي السور الخارجي للمدينة فلما (رآه جيشه يفعل ذلك تدافع أفراده وبقية شعبه لنفس العمل مما زرع الخوف والذعر في الجيش المهاجم وعزز معنويات أبناء مدينته المحاصرة)^(٣).

وتطورت أساليب ووسائل تحقيق الانتصار من دون قتال حقيقي إلى صور أخرى تعزز المعنويات وتحطم قوة العدو واندفاعه (ففي العهد الآشوري كانت الإشاعات والدعاية من أهم وسائل الحرب النفسية، فالآشوريون كانوا يخصصون عدداً من الأفراد للقيام ببث الإشاعات عن حجم الجيش الآشوري وأساليب بطشه بالأعداء

(١) ينظر: سامي خشبة، قصف العقول، مجلة دراسات اجتماعية، بغداد، ع ٦، ٢٠٠٠، ص ١٠٩، والرأي لفيليب تايلور .

(٢) ينظر: د. مؤيد سعيد، العمارة العسكرية في العراق القديم، ج ٢، بغداد، بلا سنة طبع، ص ١٩١.

(٣) د. حميدة سميسم، مصدر سابق، ص ١٧ وما بعدها.

من أجل زرع الخوف والرعب في قلب العدو^(١).

وكان من أهم الأساليب الجديدة للتأثير في نفسية العدو من جانب وتعزيز المعنويات في المجتمع من جانب آخر هو القيام بالاستعراض العسكري لقوات الجيش، فكان ملك أوروك حريصاً قبل أي حرب على تنظيم استعراض عسكري لجيشه داخل المدينة ليترك أثراً فاعلاً في تقوية معنويات شعبه ضد العدو، بل كان الآشوريون بارعون في هذا المجال وذلك باستخدام أسلوب استعراض القوة (ولم تعد استعراضات القوة العسكرية تقام قبل بدء الحملات العسكرية أو بعد إحراز النصر، وإنما أصبحت هناك حملات كبرى يتم تجريفها، لا للقضاء على ترمذ معين أو مواجهة عدو في معركة، وإنما تنتقل الجيوش من مدينة إلى أخرى أو تزحف من مكان إلى آخر دون أن تدخل في صدام أو قتال فعلي، والهدف واضح من ذلك وهو إثارة الخوف في نفوس الأعداء، ثم حرص الملوك الأكديون - كما تبين لنا المنحوتات الأكدية - على إحصاء أعداء الأسرى وجلبهم مكبلين بالقيود إلى البلاد (أكد) بعد تحقيق الانتصار عليهم دليلاً مادياً على تلك الانتصارات ووسيلة من وسائل الحرب النفسية^(٢).

ولاشك في أن هذه الطريقة تعد فاعلة جداً في رفع معنويات الجيش والشعب معاً وكذلك تؤدي دورها الفاعل في إرباك العدو وتثبيط معنوياته، كذلك نجح الآشوريون في استخدام (استراتيجية الرعب) عند طريق ما يسمى بـ(الصدمة) وذلك بمفاجئة العدو في بلاده بجيش قوي جرار يقاتل وفق طريقة حديثة، كما يستعمل أسلحة حديثة من شأنها إرباك العدو فلا يسعفه الوقت أو الخبرة الكافية لمعالجة هذه الأسلحة الجديدة فتنهار معنوياته ويبرد دافع القتال لديه حتى تصبح

(١) د. هيثم عبد السلام، مصدر سابق، ص ١٢.

(٢) د. حميدة سميسم، مصدر سابق، ص ٤ وما بعدها.

الهزيمة اقرب إليه كثيراً من الانتصار. وما دونته النصوص في هذا الإطار توضح أنهم كانوا يدركون التأثير النفسي في الحرب ضد الأعداء فيعلق الملك الآشوري (سنحاريب) على حملة عسكرية له قائلاً: (لقد غضبت كالأسد وهجمت كالزوبعة بجنودي القساة ووليت وجهي نحو (مردوخ بلان) الذي كان في (كيش) ذلك صانع الظلم، رأى تقدمي من بعيد فأصابه الرعب وترك جيوشه وهرب إلى بلاد (كوزمانو) وحقت النصر^(١).

لقد استخدم العراقيون القدماء وسائل نفسية عدة في قتال الأعداء، فحاصروا المدن واستخدموا طرق القتال المبتكرة والأسلحة الجديدة في الميدان، كما عملوا على اغتيال القادة والرموز وتقوية التعزيزات وفضحوا أسرى العدو أمام الجمهور ووسائل أخرى تعد بلا شك من أقدم النماذج التاريخية في اتباع طرق القتال النفسي.

ثانياً: الحرب النفسية في مصر القديمة:

عرف المصريون القدماء التعامل بأسلوب الدعاية وخداع العدو وتضليله بمعلومات كاذبة واشتهر من بين أسماء القادة المصريين (أمنحتب) الذي ذكره التاريخ بأنه كان بارعاً في فنون الدعاية واستخدامها في الوقت المناسب.

لقد كانت الدعاية المستخدمة آنذاك في مصر القديمة يلفها نوع من الاستناد إلى الأساطير والقوى الغامضة وتصوير المهمة بتقديس يدفع المقاتل لاتباع قاداته وتطبيق إرادتهم فيما يريدونه من خطط أو تحقيقه من أهداف.

ومن تطبيقات الحرب النفسية في تلك الفترة ما روته المصادر عن ما جرى في عهد الحاكم (حوتمس الثالث) في حربه لفتح مدينة يافا في فلسطين وقد استعصى على

(١) ينظر: يوسف خلف عبدالله، الجيش والسلاح في العهد الآشوري الحديث (٩١١-٦١٢ ق.م) الدار العربية للطباعة، بغداد، ١٩٧٧، ص ١٤٢.

المصريين فتحها، فلجأ القائد المصري إلى استدراج حاكم يافا وخداعه حين صور له في رسالة أنه ساخط من أعمال فرعون وسينقلب عليه، ولما اطمأن حاكم يافا أخذ القائد المصري يقص عليه أسرار انتصارات فرعون وأن ذلك بسبب عصا سحرية، يعرف مكانها هو ولا يستطيع أن يريها علناً ولأي واحد، فاقنع حاكم يافا بكلامه وأنه يجب أن يراها معه على انفراد، ولما حصل لهما ذلك عاجله المصري بضربة قوية من سيفه فأرداه قتيلاً، ثم إنه أرسل حامية الملك المقتول إلى داخل المدينة بعد أن أوهمهم أنهم يحملون رسالة وأحماً إلى زوجة حاكم المدينة ولم تكن هذه الأحمال سوى (٢٠٠) من حرسه الخاص، ما أن دخلوا المدينة حتى انقضوا على قصر حاكم يافا فسيطروا عليه ثم فتحوا المدينة أمام الجيش المصري^(١).

لقد نجحت خدعة القائد المصري هنا وخداعه وتغريه بحاكم يافا في احتلال المدينة وإلحاق الهزيمة بخصمه عن طريق إجراءات معروفة في الحرب النفسية، وخطته تشبه حادثة (حصان طروادة) الشهيرة في التاريخ اليوناني.

واعتمدت أساليب المصريين قديماً التعامل مع أعدائهم على بث العيون والرقباء والجواسيس، وعلى عدم الثقة بأي مصدر من مصادر المعلومات والأنباء ما لم يكن موضوعاً من قبلهم، فقد خرج (رمسيس الثاني) سنة ١٨٩٤ ق.م على رأس جيش كبير إلى مدينة قادش التي كان العدو قد اتخذها مركزاً للفتن والمؤامرات، وقرب المدينة قبضت قواته على رجلين من البدو ادعيا أنها فاران من حاكم قادش، فلم يثقوا بهم وعاملوهم بقسوة لكي يعترفوا فلم يقولوا شيئاً، وعند ذاك حاصرت قوات (قادش) جيش المصريين وكادت المعركة أن تكون لصالحهم لولا تدخل (رمسيس) وحرسه الخاص لإنقاذ جيشه، أما الرجلان فقد صدق الشك فيهما فكانا من

(١) صلاح نصر، معركة الكلمة والمعتقد، مصدر سابق، ص ٥٥.

جواسيس العدو أرسلهما لنقل الأخبار^(١).

وقد اتضحت بصمات الحرب النفسية في هذا الحدث بسبب شنها للقضاء على مركز الفتن والإشاعات التي كانت تنطلق من هناك ضد المصريين وهذا يعني إدراك الطرفين لخطورة وتأثير الإشاعات في تشويه صورة العدو وزعزعة معنوياته، وهي بلا شك أداة فاعلة من أدوات ووسائل الحرب النفسية .

ثالثاً: الحرب النفسية في الصين والهند القديمة :

برع الصينيون القدماء في أكثر من أسلوب في الحرب النفسية في مقدمتها أسلوب التشهير وتوجيه الاتهام والشتائم للعدو، وهذا يدخل في باب الاستهانة بالخصم وتركيز الضوء على عيوبه، وتكرار ذلك يحدث خللاً نفسياً ويربك معدلات الثقة في النفس عند الخصم . ففي سنة (٢٠٠) ق.م، أصدر الإمبراطور الصيني وثيقة (سان كيو) التي يشتهر فيها بخصومه تشهيراً أخلاقياً واجتماعياً قوياً لتبرير شن الحرب عليهم، ومنح المبرر لجيشه لمحاربتهم كما مارس الصينيون أساليب الحرب الغريبة وغير التقليدية للتأثير في نفسية الخصم وإرباكه معنوياً، ففي سنة (٢٣) ميلادية قام الإمبراطور وانج مانج بصد تمرد عسكري للانقلاب على حكمه فقام بإطلاق جميع الحيوانات الموجودة داخل قصره باتجاه الثوار، ومن بينها نمور وفيلة وخراتيت إلا أنها جابهت هجوماً الثوار المعاكس القوي فارتدت إلى داخل القصر محدثة إرباكاً شديداً في حرس الإمبراطور والقصر وترافق ذلك مع هبوب عاصفة رملية، فهزمت قوات الإمبراطور وأصيب الإمبراطور ذاته بأزمة نفسية جعلته طريح الفراش، معاقراً للخمر حتى مات^(٢).

(١) صلاح نصر، معركة الكلمة والمعتقد ، مصدر سابق، ص ٥٦ .

(٢) صلاح نصر، معركة الكلمة والمعتقد، مصدر سابق ، ص ٥٨ .

كما استخدم في الصين أسلوب الإرهاب وهو أداة من أدوات الحرب النفسية وذلك أثناء غزو (المانشو) للصين عام (١٦٦٤) فرغم قلة عدد هؤلاء بالنسبة لسكان الصين الأصليين والتي تبلغ (١: ٤٠٠) فقد سيطروا بالإرهاب على مقدرات البلد لأكثر من قرنين، لقد أمر (المانشو) سكان الصين بحلق شعور رؤوسهم وأن يبقوا فقط خصلات من الشعر في وسط الرأس كنوع من الإهانة والإرباك والإرهاب، وقد استخدموا معهم البطش الشديد ونكلوا بالثوار أشد تنكيل وقذفوا المقاومة الشعبية بالمقذوفات والسهام حتى هلك سكان (كيانجين) كلهم وعاملوا أية بادرة لمعارضة حكمهم بإثارة الرعب والخوف والإرهاب في نفوس السكان^(١).

ومارست شعوب الهند القديمة أنماطاً وصوراً من خداع العدو ومراقبته مع نوع من الحكمة واتباع بعض قواعد الحرب ومنها الحرب النفسية للوصول إلى أفضل النتائج في سبيل التأثير بالخصم وتحقيق الانتصار عليه بأقل الخسائر والجهود الممكنة فتذكر المصادر أن ملك الهند (هشران) طلب من رجل اسمه (قفلان) وكان معروفاً بالحكمة وبعد النظر أن يحمي له مذهب آبائه وأجداده، فقال الحكيم: (ليس شيء أجل من الحرب، لأنه يبين فيها فضل التدبير وفضل الرأي وفضل الحزم وفضل الاحتياط وفضل التعبئة، وفضل المكيدة وفضل الاحتراس وفضل النجدة وفضل البأس وفضل القوة وفضل الجلد وفضل الشجاعة، فمن عدم منه شيء من هذا عرف موضع نقصه، لان خطأها لا يستقال، والعجز فيها متلف للمهج، وضعف الرأي جلب للعطب وقلة العلم بالتعبئة داعية الانكشاف، وقلة المعرفة بالمكيدة تهوّر إلى الهلكة، وترك الاحتراس نهزة للعدو ..)^(٢).

(١) ينظر: د. أحمد نوفل، الحرب النفسية، مصدر سابق، ص ١٢٠.

(٢) اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن جعفر بن إسحاق بن واضح اليعقوبي البغدادي، تاريخ اليعقوبي،

ج ١، ص ٨١، بلا مكان طبع، ١٤٢٥هـ، تعليق: خليل المنصور.

ويلاحظ من هذا النص ووصفه للحرب مقدار النسبة الكبيرة التي خصصها في كلامه للممارسات ووسائل ومظاهر الحرب النفسية وهذا يثبت معرفة هؤلاء بهذه الحرب وآلياتها وخطورتها وتأثيرها على الناس، وقد وردت في كلماته المعاني المعبرة عن الاستهداف النفسي للعدو وتحذيره من مغبة التهاون في إهمالها فإنها بذلك تعود بالهزيمة عليه، مثل كلمات: التدبير، الاحتياط، المكيدة، الاحتراس، وغيرها، وقد برزت بعض جوانب هذا الكلام في حرب الملك (فور) الهندي مع الإسكندر حين غزا الهند، فقد كان الهنود يقدمون في طليعة جيوشهم الفيلة لإرهاب العدو وتشيت صفوفه وإنهاك معنوياته، فقام الإسكندر وقد أدرك خطتهم بعمل تماثيل من النحاس ثم حشاها بالنفط والكبريت وأشعلها حتى حميت، فلما اندلعت المعركة بين الطرفين هجمت الفيلة كعادتها ولفت خراطيمها على هذه التماثيل التي دفعها جنود الإسكندر على عجالات فلما فعلت ذلك شواها النحاس الحار حتى ارتدت على أعقابها مهزومة، ثم دعا الإسكندر الملك (فور) للمبارزة وقتله فيها^(١).

وهنا نلاحظ اتباع أساليب الحرب النفسية في استعمال الخداع والمكائد ومفاجأة العدو بطرق جديدة في القتال، وكذلك تمثل عملية استهداف القادة من أهم أساليب الحرب النفسية المؤثرة.

وتروي تواريخ الهند أيضاً أن (قفلان) الحكيم نفسه مات في عصره ابنٌ للملكهم (حسربنت بلهيت) في الحرب فلم يجرؤوا على إخبارها فعمد (قفلان) إلى صناعة رقعة كبيرة من لعبة (الشطرنج) ودعا تلميذه لمنازلته فيها إمام الملكة، حتى إذا اشتد (التزاع) بينهما وقال أحدهما للآخر: (شاه مات، شاه غلب) أدركت الرسالة وقالت (لقفلان): (اقتل ابني؛ قال: أنت قلت) ثم قال مشيراً إلى رقعة الشطرنج: (أما هذه

(١) اليعقوبي، المصدر سابق، ص ٧٨.

فحرب بلا ذهاب أنفس^(١). وهو يعني بعبارته (بلا شك) استخدام الحرب النفسية.

رابعاً: الحرب النفسية عند المغول:

لم تزل ذاكرة الناس وكتاباتهم عن حدث سقوط بغداد بيد المغول سنة ٦٥٦ هـ، تبرز الوحشية المفرطة، والبطش الشديد والدماء الغزيرة التي سالت في نهر دجلة وطرقات بغداد من أثر الذبح الذي ارتكبه هؤلاء بأهالي بغداد، وشاع أن ساحات المدينة ونهر دجلة امتلأ دماً من أجساد البشر المقتولين وحبراً من كثرة الكتب التي ألقيت في النهر، وأوصاف أخرى تشير إلى ذلك كله، وهو نوع من آثار الحرب النفسية التي كان المغول يتبعونها في حروبهم، وهذه الأوصاف أصلها الصواب إلا أن المبالغة التاريخية وتهويل الأثر الذي تركه هؤلاء الغزاة زاد في صورة وحشية الممارسات والحرب النفسية التي كان المغول يتبعونها مع خصومهم.

ويبرز في تاريخ المغول في مجال استخدام الحرب النفسية اسم (جنكيز خان) الذي يعد مدرسة لوحده في هذا المجال، فقد غير تسمية قومه من (التتار) إلى (المغول) وتعني (الغزاة) واتبع طرقاً وأساليب تعد من أساسيات الحرب النفسية، فأرسل الجواسيس وجند التجار لنقل أخبار جيشه إلى البلدان التي يريد غزوها فكانوا ينشرون عن جيشه: أنه أتى برجال يفعلون كل شيء ويأكلون أغصان الأشجار ولحوم الكلاب والثعالب، وإذا اضطروا فهم يأكلون لحوم البشر، واستخدم أسلوب المبالغة في أرض العدو، والإشاعة وإثارة الرعب، وبهذه الطريقة كانوا ينتصرون على خصومهم حتى قبل وقوع المعركة على أرض الواقع فعلاً^(٢).

لقد أرخ مؤرخ أوروبي، آنذاك حركات جيوش المغول بقيادة جنكيز خان في

(١) اليعقوبي، مصدر سابق، ص ٨٢.

(٢) ينظر: د. أحمد نوفل، الحرب النفسية، مصدر سابق، ص ١٠٩ وما بعدها.

كلمات ترسم مقدار الرعب والإثارة النفسية التي كان يتركها مجرد ذكر المغول فيقول واصفاً رجال جيشه: (كاملو الرجولة، شجعان، لهم مظهر المصارعين، لا يستنشقون شيئاً إلا رائحة الحرب والدماء، ومع هذه الوحشية التي يبذلونها فيها فإنهم يطيعون قادتهم طاعة عمياء .. إنهم يأكلون الذئب والذئبة عندما لا يكون هناك أي نوع آخر من اللحوم، أما عن عدد قوات جنكيز خان، فإن القوات تبدو كالجنادب من المستحيل حصرها أو إحصاؤها)^(١).

وقد اعتمد جنكيز خان في أكثر حروبه إضافة إلى من يروج له أخبار جيشه المرعبة للخصم، اعتمد على جواسيس العدو ذاته فقد كانت له طريقة خاصة لاستمالتهم بالترغيب والترهيب حتى يقوموا بالتجسس على جيوشهم وأقوامهم، وكانت أعدادهم الغفيرة وتنظيمهم الراقي وتجنيد بقية الأقوام التي يسيطرون عليها ضمن جيوشهم عاملاً مهماً في قدرة جيش المغول على القتال في أكثر من جبهة واحدة وفي وقت واحد . (لقد استخدم المغول الجاسوسية للحصول على المعلومات اللازمة لشن حملاتهم، كما لجؤوا إلى الشائعات وغيرها من وسائل المبالغة لتجسيم عدد قواتهم وعنف جنودهم ولم يكن يهمهم ماذا يمكن أن يظن أعداؤهم ماداموا ينتفضون من الخوف والرعب)^(٢).

لقد كانت صورة المغول لدى معاصريهم من الأمم : أنهم أصحاب عقيدة حربية قائمة على إفناء العدو، وقد حققوا فعلاً هذه العقيدة بأبشع صورها، فكانوا يهاجمون خصومهم بالحيلة والخدعة والترهيب ثم يجتاحون ديارهم فيقبلون البلدان إلى مقابر لأهلها ثم يذرعون الأرض وكان شيئاً لم يكن، ووصفوا في الكتب بأنهم (يطعمون لحم البشر، ولهم جماجم من نحاس، وأسنان من صخر، وقلوب من فولاذ، تقذف

(١) ينظر: د. أحمد نوفل، الحرب النفسية، مصدر سابق، ص ١١٣.

(٢) صلاح نصر، معركة الكلمة والمعتقد، مصدر سابق، ص ٦٤.

أفواههم الحمم، وتشرب خيلهم الندى، لها أجنحة كالطير، وتتغذى خلال المعركة على لحم البشر!^(١).

ولا شك في أن هذا الوصف المفزع لمثل هذا الجيش نتاج إشاعات وحرب نفسية كبيرة ولا يمكن أن تفسر بغير هذا.

وبعد هذه الجولة في بعض أمثلة وإجراءات الحرب النفسية التاريخية وعند شعوب وحضارات مختلفة نقف على أبرز الصور التي ظهرت فيها هذه الحرب وهي:

- ١- الخداع وتشويه الحقائق والتزوير، وبرز ذلك في حضارة وادي الرافدين.
 - ٢- إثارة القلق ونشر الرعب، وبرز المصريون في استخدامه.
 - ٣- التهديد باستخدام السلاح والفعل المسلح، حيث استخدمه المغول بكثرة.
 - ٤- الشتائم وتشويه الصورة، وبرز ذلك في حضارة الهند والصين القديمة.
 - ٥- اغتيال القادة والرموز، واتضحت ملامحه لدى المغول وفي مصر القديمة.
 - ٦- استغلال الخلافات في تمزيق الصف المعادي، وبرع العراقيون القدماء فيه.
 - ٧- اعتماد الشائعات واستخدام الدعاية، وأبرز من استخدمها قادة المغول.
 - ٨- تخجير قوة العدو والتقليل منها، واتضح ذلك لدى قدماء المصريين.
 - ٩- الإرهاب، واستخدامه الصينيون القدماء.
 - ١٠- صنع صورة مبالغ فيها في إبراز القوة، وبرز ذلك عند المغول والآكديين.
- أما أبرز سمات هذه الحرب المتبعة عبر تاريخ الصراعات والحروب في العالم، فهي:
- أ- بروز الخبرة والتجربة البشرية بشكل كبير وواضح، إذ ليس هناك منهج علمي

(١) السيد فرج، أدهى رجال الحرب، القاهرة، بلا سنة طبع، ص ١٥٢.

أو نمط فكري متبع لدى الجميع.

ب- لم يكن هدف الحرب النفسية قديماً تغيير قناعات الرأي العام المعادي بما يعرف -الآن- بغسيل الدماغ الجماعي، بل التركيز على سحق المقابل وتدميره.

ج- الحرب النفسية ونشاطاتها وصورها مصاحبة للحرب الفعلية، تبدأ معها وتنتهي معها إلا في حدود زمنها القصير المؤثر.

د- لم يكن هناك اهتمام واضح من القيادات السياسية للدول والحضارات القديمة بظاهرة الحرب النفسية. بل مجرد نشاطات مساندة لنشاطات الجهة العسكرية.

هـ- خضوع إجراءات وممارسات هذه الحرب للحدث الآني ولم تكن تستند إلى نظم وآليات شائعة.

المبحث الثاني: معنى الحرب النفسية في الشريعة الإسلامية

المطلب الأول : معنى الحرب والنفس في الشريعة الإسلامية

أولاً : معنى الحرب في الشريعة الإسلامية :

وردت كلمات : الحرب والجهاد والغزو في اللغة العربية للدلالة على معنى واحد هو : قتال الأعداء^(١). وقد جاءت كلمة (حرب) في القرآن الكريم بمعنى القتال، كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّا نَتَقَفَّنَهُم فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهَم مِّنْ خَلْفِهِمْ لَقَلَّهُم يَدَكُرُوكَ ﴾ [الأنفال: ٥٧]، وهو المقصود في القتال .

ومعنى الحرب في اللغة: القتال بين فئتين. والحَرْبُ السَّلْبُ في الحرب، والحارب: هو الغاصب والناهب، والتحريب: إثارة الحرب، وقد اشتقت من هذه الكلمة لفظة (المحارب) للمسجد؛ لأنه موضع محاربة الشيطان، والمحارب - أيضاً - هو صدر المجلس أو البيت أو يطلق دلالة على المكان العالي المشرف^(٢).

وقد شاعت لفظة (جهاد) بدلاً من (الحرب) في الإسلام لكون هذا الدين نزل لغايات مثالية سامية هي إزالة الظلم و الطواغيت ونشر الدعوة، وليس لمجرد التوسع والتعالي على الناس، (والجهاد مصطلح إسلامي يشمل الجهاد بالنفس والمال واللسان كما يكون جهاداً للنفس وجهاداً للأعداء، وهو في مصطلحه الإسلامي يتضمن من المعاني السامية ما لا تجده في كلمة من الكلمات التي تحمل معنى الحرب والقتال)^(٣). كما إن اشتراك الكلمات الدالة على الجهاد للدلالة على معنى القتال

(١) ينظر : القاموس المحيط : (١/٣٣٧) و (٤/٤٢٩) .

(٢) ينظر : الراغب الأصبهاني، المفردات (١/٢٤٠) .

(٣) الدكتور أبو بكر إسماعيل محمد ميقا، مبادئ الإسلام ومنهجه في قضايا السلم والحرب، ط ٢،

مقصود لدى الفقهاء لشيوعه أكثر من غيره^(١)، مما يتطلب إيضاحاً وبياناً لتعريف الجهاد في اللغة والاصطلاح .

فيعرف الجهاد لغة : (الطاقة والمشقة، وقيل الجَهد - بالفتح - المشقة، والجُهد : الوسع)^(٢)، وقيل : (الجهد ما يجهد الإنسان)^(٣) .

وبالرجوع إلى معاجم اللغة العربية في مادة (جهد) نجد أكثر من معنى لهذه الكلمة رغم إنها تشترك في ألفاظ : الطاقة، المشقة، الوسع، القتال، المبالغة، لهذا عرفه العلماء لغة : ببذل الطاقة والوسع وهو المشقة^(٤) .

والجهاد في الاصطلاح الشرعي : فهو يتبلور حول معنى قتال المسلم الكافر بعد دعوته للإسلام أو الجزية أو رفضه لذلك، وقد عرّفه العلماء بأنه : (بذل الوسع والطاقة بالقتال في سبيل الله ﷻ، بالنفس والمال واللسان، أو غير ذلك أو المبالغة في ذلك)^(٥) .

وكذلك هو : (قتال مسلم كافرأ غير ذي عهدٍ لإعلاء كلمة الله تعالى)^(٦) .

وجمع تعريف ابن تيمية الكثير من دلالات (الجهاد) في الإسلام : (والجهاد هو بذل الوسع في حصول محبوب الحق، ودفع ما يكرهه الحق، وذلك لأن الجهاد

(١) ينظر: الدكتور وهبة الزحيلي، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، ط ٤، ص ٣١ .

(٢) الراغب، المفردات (١ / ٩٩) .

(٣) الفيروز آبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٢ / ٤٠١) .

(٤) للوقوف على هذه المعاني ينظر : لسان العرب (٤ / ١٠٧) وتاج العروس (٢ / ٣٢٩) والصحاح

(١ / ٤٥٧) .

(٥) الإمام الكاساني، بدائع الصنائع (٩ / ٤٢٩) .

(٦) الشيخ الدردير، الشرح الكبير على أقرب المسالك (٢ / ٢٦٧) .

حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان) (١).

فهو تعريف يشتمل على جميع أنواع الجهاد التي يقوم بها المسلم : اجتهاده وبذل ما في وسعه لطاعة ربه بامثال الأوامر واجتناب النواهي وجهاده في دعوة غيره للإسلام، سواء كان المدعو مسلماً أو غير مسلم، وكذلك اجتهاده في قتال الكفار لإعلاء كلمة الله وغير ذلك (٢).

وحقيقة معنى الجهاد في الإسلام هو بذل الجهد والكفاح بالوسائل السلمية في أول الأمر ثم يلجأ إلى مقاتلة الكفار عند اقتضاء الأمر للمحافظة على الدعوة لدين الله وتحصين البلاد، وذلك لتحقيق السعادة الشاملة للبشرية في دنياها وأخرها كما أراد لها خالقها، فكل جهد ومشقة يبذلان في هذه الحالات هي في سبيل الله من دون أن تلوث نوايا المسلمين المجاهدين نزعة مادية أو رغبة شخصية أو اندفاع للتسلط على رقاب الناس، فحقيقة الجهاد هي تمكين لإقامة نظام حياتي شامل رسمه الخالق ﷻ وارتضاه للناس في ظل عقيدة سليمة وحياة لا يعرقلها حائل أو متسلط أو حاكم جائر (٣).

فالجهاد الإسلامي في معناه هذا يختلف اختلافاً تاماً عن معاني ومدلولات الغزو، والحرب وغيرها من ألفاظ تحمل معنى المصلحة الخاصة والتوسع الغاشم، فالغزو في القانون الدولي يعني: دخول قوات الدولة المحاربة في إقليم العدو بغض

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (١٠/١٩١ - ١٩٢).

(٢) ينظر: د. عبد الله بن أحمد القادري، الجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته، دار المنارة، جدة، ١٩٩٢،

ط ٢، ص ٥٠.

(٣) ينظر: د. وهبة الزحيلي، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، ص ٣٤.

النظر عن إتمام السيطرة عليه أم لا ^(١). وهو يختلف تماماً عن معنى ومقاصد الجهاد في الإسلام، وإذا كانت الحرب تعني عند علماء السياسة : القتال الناشب بين دولتين أو أكثر للحصول على مقاصد سياسية بقوة السلاح ^(٢).

فهذا المعنى يختلف قطعاً عن معنى وباعث ومقصدية الجهاد الإسلامي، فالجهد والغزو تمثلان هنا أقصى صورة للتنافس البشري، صراع دموي بين إرادتين مراد كل جهة التفوق على الأخرى وتخطيط مقاومتها، ينتهي في الغالب ببقاء الأقوى ثم يتجدد الصراع مرة أخرى بتجدد عوامل القوة في مكان أو زمان آخر. أما الجهاد في الإسلام فقد (شُرِعَ) نشرّاً للإسلام ونصرة للحق ودفعاً للظلم وإقراراً للعدل والسلام والأمن وتمكيناً للرحمة التي أرسل بها محمد ﷺ للعالمين ليخرجهم من الظلمات إلى النور ^(٣)، وهو بهذا المعنى يختلف عن معاني ومقاصد الغزو والاستحواذ والحرب والإرهاب اختلافاً جذرياً وعميقاً.

لهذا فالجهاد في الإسلام ظاهرة حياتية شاملة ومتفردة تماماً عن ما هو موجود من صور صراعات دولية قديماً أو حديثاً وضمن تعريفاتها في مجالات السياسة أو القانون أو العلاقات الدولية، وللجهاد أقسامه ومراحل وأدابه وأحكامه الخاصة التي تجعل منه فريضة شرعية عادلة، الهدف منه إحقاق الحق وإزهاق الباطل، فيقول العلماء عن أقسامه : (الجهاد على أربعة أقسام : جهاد بالقلب وهو مجاهدة الشيطان والنفس عن الشهوات المحرمة، وجهاد باللسان : وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد

(١) ينظر : د. محمد حافظ غانم، مبادئ القانون الدولي العام، القاهرة، ١٩٦١، ط ٢، ص ٦٤١.

(٢) الدكتور خالد رمزي البزايعة، جرائم الحرب في الفقه الإسلامي والقانون الدولي، دار النفائس، عمان، ٢٠٠٧، ط ١، ص ٢٦.

(٣) الدكتور عمار عبد الله ناصح علوان، مقصدية الدعوة في الجهاد وأحكامه، دار ابن حزم، بيروت، ٢٠٠٨، ط ١، ص ٩٢.

باليد : وهو زجر الأمراء وأهل المناكر بالضرب والأدب باجتهادهم ومنه إقامة الحدود، وجهاد بالسيف : ولا ينصرف حيث أطلق إلا إليه (١) .

ومرّ الجهاد في الإسلام بمراحل يحددها العلماء بما يلي :

أ- الأمر بالصبر على أذى المشركين والصفح الجميل والكف عن قتالهم، وكان ذلك قبل الهجرة، لقوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

ب- الأذن بقتال المشركين لرفع العدوان وردّه عن المؤمنين، وذلك بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة وتكوّن نواة الدولة الإسلامية المستقلة، قال تعالى: ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُوا بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٢١﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّ مَذَاجُ صَوْمِعُ وَيَعُوصِلُوتُ وَمَسْجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١٠﴾ [الحج: ٣٩-٤٠].

ج- فرض القتال على المسلمين لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم، فقال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠].

د- الأمر بقتال المشركين كافة لحماية الدعوة ونشر الدين الحق وإزالة الجبابة، قال تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

فكانت هذه المراحل: الأولى: حرمة القتال، والثانية: الأذن بالقتال، والثالثة :

(١) الخرشي، حاشية الخرشي (١٠٨/٣) .

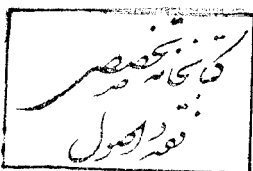
الأمر لمن بدأ المسلمين بالقتال، والرابعة : الأمر به لجميع المشركين، ويعلق أهل التفسير على هذه المراحل بالقول : (إن الإسلام لله هو الأصل العالمي الذي على البشرية كلها أن تفيء إليه، أو أن تسالمة بجملتها فلا تقف لدعوته بأي حال من نظام سياسي أو قوة مادية، وأن تخلي بينه وبين كل فرد يختاره أو لا يختاره بمطلق إرادته، ولكن لا يقاومه ولا يحاربه، فإن فعل ذلك كان على الإسلام أن يقاتله حتى يقتله، أو يعلن استسلامه)^(١).

ويتضح من هذا أن كل جهد يبذله الإنسان باسم الله تعالى وفي أي جانب من جوانب الحياة بموجب شريعة الإسلام، يكون جهاداً شرعياً في سبيل الله، فمجاهدة النفس ومحاربة الشيطان وتربية الأجيال تربية صالحة جهاد، وبذل الأموال لإحداث تنمية إنسانية حضارية جهاد، والدفاع عن ثوابت الأمة الإسلامية ووجودها جهاد^(٢)، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَجْرَرٍ يُجِئُكُمْ مِنَ عَذَابِ إِلَهِم ۖ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝﴾ [الصف: ١٠-١١].

ويقول أهل التفسير في إيضاح معاني الجهاد في الإسلام : (فالجهاد كلمة جامعة تشتمل جميع أنواع السعي وبذل الجهد، وإذا عرفت هذا فلا تعجب إذا قلت : إن تغيير وجهات أنظار الناس وتبديل ميولهم ونزعاتهم وإحداث انقلاب فكري وعقلي بواسطة مرهفات الأقلام نوع من أنواع الجهاد، كما أن القضاء على نظم الحياة العتيقة الجائرة بحد السيوف، وتأسيس نظام جديد على قواعد العدل والنصفة أيضاً من أصناف الجهاد، وكذلك بذل الأموال وتحمل المشاق ومكابدة الشدائد أيضاً فصول

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مجلد ٣، (ج ١٠ / ص ١٥٨٠).

(٢) ينظر : الدكتور محسن عبد الحميد، الجهاد والوعي بمستقبل الأمة، مجموعة باحثين، بيت الحكمة، العراق، ٢٠٠٢، ص ٢٣٥.



وأبواب مهمة من كتاب - الجهاد - العظيم (١) .

لشمولية هذه المعاني العميقة للجهاد، انتشر الإسلام في بقاع الأرض بالدعوة والقدوة الصالحة والخلق الرفيع والكلمة المؤثرة والدعاية التي تحقّر شأن الشرك والمشركين ثم بالقوة ومجابهة الباطل، الأمر الذي يدحض الكثير من مقولات واتهامات الذين قالوا: إن الإسلام انتشر بقوة السيف، مما دعا مستشرقين ومفكرين ومؤرخين للاعتراف بأفضلية الإسلام وحقه في جهاد الباطل وأهله، يقول (غوستاف لوبون): (لم ينتشر الإسلام بالسيف، بل انتشر بالدعوة وحدها) (٢) .

ومن أجل تحقيق هذه الغاية السامية والبناء للجهاد، كان لابد للفقهاء الإسلاميين أن يضع له آداباً وأحكاماً عامة مشترطاً على كل من يجاهد في سبيل الله التحلي بها، أهمها:

١- تقديم الدعوة على القتال: لأن الجهاد لم يشرع لذاته بل لمصلحة الدعوة لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] . ولقوله ﷺ من حديث بريدة: (إذا لقيت عدوك، فادعهم إلى ثلاث خصال ... ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فكف عنهم واقبل منهم ...) (٣) .

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مجلد ٣، (٩ / ١٤٤٦) .

(٢) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٦٢ .

(٣) الحديث أخرجه الإمام مسلم برقم / ١٧٣١، وهو في جامع الأصول (٢ / ٥٨٩) رقم ١٠٧٣، ونصه كما في صحيح مسلم: (كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال : اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدأ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفبيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم أن تحفروا ذمكم وذمة أصحابكم أهون من أن تحفروا ذمة الله وذمة رسوله، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا) .

٢- منع قتل النساء والشيوخ والأطفال والرهبان وغيرهم ممن لا دخل لهم في القتال إلا في حالة قيامهم بقتال المسلمين أو ممن حرّضوا وساهموا في تعزيز قوة العدو، ولما روي عن رسول الله ﷺ عن ابن عمر - رضي الله عنهما -: (وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ فنهى رسول الله عن قتل النساء والصبيان)^(١). وقال ابن تيمية : (أباح الله تعالى من قتل النفوس ما يحتاج إليه في صلاح الخلق، أي إن القتل وإن كان فيه شر وفساد، ففي فتنة الكفار من الشر والفساد ما هو أكبر، فمن لم يمنع المسلمين من إقامة دين الله، لم تكن مضرة كفره إلا على نفسه، والقتال مشروع لمن يقاتلنا إذا أردنا إظهار دين الله تعالى)^(٢).

٣- تحريم الغدر والغلول والمثلة بالعدو في الجهاد، وفي ذلك شواهد كثيرة أبرزها حديث بريدة عن رسول الله ﷺ وقد تقدم ذكره في الفقرة الأولى.

٤- كف القتال عمن أظهر الإسلام أو شعاره من الكفار حتى إذا كان محارباً، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَّرْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَيْكُمْ إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِدٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ أَتَى عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٩٤﴾ [النساء: ٩٤]. والتي قال المفسرون فيها : (فتبينوا : يقول: فتأنوا في قتل من أشكل عليكم أمره فلم تعلموا حقيقة إسلامه ولا كفره، ولا تعجلوا فقتلوا من التبس عليكم أمره، ولا تقدموا على قتل أحد إلا على قتل من علمتوه يقيناً حرباً لكم والله ولرسوله)^(٣).

(١) صحيح مسلم، حديث رقم ١٧٤٤، ج ٣، ص ١٠٩٨، كتاب الجهاد، باب قتل الصبيان في الحرب.

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج ٢٨، ص ٣٥٤.

(٣) الطبري، جامع البيان عن آي القرآن (٢٢١ / ٥).

٥- عدم إفساد أراضي العدو وممتلكاته ومرافقه الاقتصادية وزروعه إلا لتحقيق مصلحة تدفعه للتسليم أو لضرورة تحتملها طبيعة الحرب، قال تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَرَكْتُمْوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥].

٦- الوفاء بالعهود والمواثيق التي يعقدها المجاهدون في سبيل الله لأن الخلف في ذلك ليس من صفات المؤمنين، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ...﴾^(١) [المائدة: ١].

٧- الإخلاص لله في أداء فريضة الجهاد وأن لا تكون لطمع أو رياء أو انتقام أو اعتداء، فكل ذلك وما شابهه حرام على المجاهدين. وقال الفضيل بن عياض تعليقاً على قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]: ليلوكم أيكم أحسن عملاً، أي: أخلصه وأصوبه، قيل: ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل لا يقبل إلا حين يكون خالصاً صواباً، والخالص ما ابتغي به وجه الله، والصواب ما كان موافقاً لسنة رسول الله ﷺ^(٢).

وسوى ذلك من آداب، وأحكام معروفة لدى الفقهاء وقد قسمها بعضهم وزاد في شرحها وإيراد الشواهد فيها إلى أربعة أقسام: آداب الجهاد قبل خوض المعركة، وآدابه أثناء المعركة، وآدابه بعد المعركة، وآداب الجهاد العامة^(٣).

إن الآداب العامة للجهاد الإسلامي شاع ذكرها في القرآن الكريم والسنة النبوية،

(١) ونصها: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (١٧٣/١٠).

(٣) ينظر للمزيد: الدكتور عبد الله أحمد القادري، الجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته، ص ١٩١ وما بعدها.

والتاريخ الإسلامي يمتلأ بالمزيد من الحوادث والشواهد التي تؤرخ وتفصل هذه الحقائق، إلا أن أعداء الإسلام سعوا بكل ما يملكون من دعايات وإشاعات إلى تشويه صورة الإسلام وثوابته ومن بينها الجهاد، ومن أشهر ادعاءات هؤلاء لتشويه صورة الجهاد في الإسلام :

قولهم : إن الإسلام انتشر بالسيف والقوة، فقال كثير من المستشرقين: إن الإسلام قام بالسيف، وأخضع شعوب آسيا وإفريقيا بالقوة، وإن تاريخ الإسلام كان سلسلة مخيفة من سفك الدماء ^(١).

وقولهم : إن الإسلام متناقض حيث أمر أتباعه بالجهاد وأكد على حقيقة أن لا إكراه في الدين، قال سيد قطب - رحمه الله - : (إن بعض المغرضين من أعداء الإسلام يرمونه بالتناقض، فيزعمون أنه فرض بالسيف في الوقت الذي قرر فيه ألا إكراه في الدين) ^(٢).

وقالوا : إن الجهاد منسوخ في الإسلام، وإنه لا يجوز للمسلم القتال في العصور الراهنة ^(٣).

إن هذا الهجوم الدعائي الكبير والمنظم من قبل أعداء الإسلام لتشويه حقيقة هذا الدين وثوابته ومن أبرزها : الجهاد في سبيل الله، دفع بعض المفكرين والعلماء المسلمين للتفكير في إيجاد وسائل ناجحة لإعادة الموقع الحقيقي والمكانة الشرعية

(١) ينظر : الدكتور إبراهيم عبد صايل، كيف تُساس الحروب في الإسلام بعد نشوبها، مجلة جامعة صدام للعلوم الإسلامية، العدد الثالث، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، ص ١٥٤.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، (٣/ ٢٩٣).

(٣) ينظر : أحمد غراب، رؤية إسلامية للاستشراق، سلسلة المنتدى الإسلامي، الرياض، بلا سنة طبع، ص ١١٨ وما بعدها.

السامية التي يحتلها الجهاد في الإسلام، رداً على حملة التشويه المستمرة التي يتعرض لها هذا الدين^(١).

وإن أهداف الجهاد تقتضي أبعديته، وقد أجمع الفقهاء على أبدية الجهاد في الإسلام^(٢)، لوجود بواعث ذلك وأبعديتها، فالإيمان والكفر ما زالا في صراع حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وحماية المسلمين واجبة على أهل الإسلام، كما أن كلمة الله يجب أن تكون هي العليا وكلها أسباب تحتم أبدية الجهاد ووجوب استمراره، وأدلة ذلك في القرآن الكريم كثيرة منها قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَٰبِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

ومن السنة قوله ﷺ فيما يرويه أبو داود عن أنسٍ رضي الله عنه: (الجهاد ماضٍ منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل والإيمان بالأقدار)^(٣).

وليس المقصود بأبدية الجهاد وبقائه هو أن يكون النزاع حالة دائمة بين الشعوب، وأن الحرب تعلن بمناسبة أو غيرها، وأن السلام لن يسود حتى يتبع العالم أجمع

(١) اقترح بعض العلماء لمعالجة ذلك: تغيير ما في نفوس المسلمين ومحاربة الشهوات وابتعاد المسلمين عن الخرافات والولاء لله وسعي المسلمين لتحقيق الاكتفاء الذاتي في المجالات العلمية والعسكرية والاقتصادية ومنع العدو من استغلال طاقات المسلمين وثرواتهم وغير ذلك. (ينظر: الجهاد.. فكراً وممارسة، مجموعة باحثين، ص ١٣٠ وما بعدها، والمقترحات للدكتور محيي هلال السرحان، بتصرف).

(٢) ينظر: الشوكاني، فتح القدير (٢٠٩/٤)، البهوتي، كشف القناع (٢٥/٣)، ابن قدامة، المغني (٣٧١/١٠).

(٣) سنن أبي داود برقم (٢٥٣٢). وهو في سنن سعيد بن منصور (٢٣٦٧)، وفي السنن الكبرى ١٥٦/٩، وفي مسند أبي يعلى (٤٣١١) و(٤٣١٢) في إسناده يزيد بن أبي نبيشة، قال الحافظ ابن حجر في التقریب: مجهول. لكن معنى الحديث صحيح.

شريعة الإسلام، بل المقصود بذلك: أن الجهاد أداة يستخدمها المسلمون بعقل وحكمة وروية.

وليس فيها معنى أن يكون الجهاد وسيلة طائشة تدفع للسيطرة على العالمين، وخيارات الإسلام الثلاثة حين تتم دعوة شعوب الأرض للإسلام هي: الإسلام أو العهد أو القتال، توضح أن الوصول بالعالم إلى حالة التسليم لله واتباع أحكامه هي المطلب الأول، وأن العهد باعتباره طريقاً موصلاً للسلام بين الشعوب يأتي ثانياً كخيار مهم يضع الحلول للكثير من مشاكل العالم^(١).

وقد طبق سلف أمتنا الصالح هذه المفاهيم، فأدركوا أبدية الجهاد لتحقيق هذه الغايات السامية والقضاء على مظاهر الشرك والظلم والحكم بما لم يشرعه الله تعالى، وقد ذكر ابن كثير - رحمه الله - أن أبا عبيدة بن الجراح بعث خالد بن الوليد لفتح قنسرين من أرض الشام، فقاتلهم فلم يصمدوا أمام المسلمين، ثم تحصّن الأعراب منهم في حصن، فقال لهم خالد: (لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا ولم يزل بهم حتى فتحها الله عليه، والله الحمد)^(٢).

وقد فهم علماء الأمة ودعاتها هذا كله وتكاملت الصورة الصحيحة عندهم عن الجهاد والتي تفترض أبدية ما بقيت الحياة، مع شموله لكل أنواع مجاهدة النفس والهوى والشيطان والشرك، ويقول سيد قطب: (إن الجهاد في سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن على الإطلاق منذ كانت الرسل ومنذ كان دين الله، إنها السنة الجارية التي لا تستقيم هذه الحياة بدونها، ولا تصلح الحياة بتركها ...)^(٣).

(١) ينظر: الدكتور وهبة الزحيلي، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، ص ٩٥ وما بعدها.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية (٧ / ٥٢).

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن (١١ / ١٧٧).

ثانياً : معنى النفس في الشريعة الإسلامية :

معنى النفس لغة : النفس : الروح ، والنفس في كلام العرب يجري على ضربين، أحدهما قولك : خرجت نفس فلان، أي : روحه، وفي نفس فلان أن يفعل كذا وكذا، أي : في رُوعه، والضرب الآخر : معنى النفس فيه جملة الشيء وحقيقته، والجمع من ذلك كله : أنفس ونفوس ^(١) .

وقال الفيروز آبادي ^(٢) : النفس : الروح ، وخرجت نفسه، أي : روحه، والنفس والدم، ومنه الحديث : وما لا نفس له سائلة لا ينجس الماء، والنفس : الجسد والعين، والنفس : العبد، قال تعالى : ﴿ تَمَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ [المائدة: ١١٦]، أي : ما عندي وما عندك أو حقيقتي وحقيقتك، والنفس عين الشيء، يقال : جاءني بنفسه، والنفس : العقوبة، ومنه : ﴿ وَيَحذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران: ٣٠] . أما ما جاء في معنى النفس اصطلاحاً : فقد روي عن ابن عباس ؓ قوله : (لكل إنسان نفسان أحدهما : نفس العقل الذي يكون به التمييز، والأخرى نفس الروح الذي به الحياة) ^(٣) .

أما النفس : الروح ، والنفس : ما يكون به التمييز فشاهدتهما قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢] ، فالنفس الأولى هي التي تزول بزوال الحياة والنفس الثانية التي تزول بزوال العقل ^(٤) .

وأشار الإمام الغزالي إلى أن للنفس معنيان : أحدهما يراد به المعنى الجامع لقوة

(١) ابن منظور، لسان العرب، (٢٣٥ / ٦)، دار الفكر، بيروت، بلا سنة طبع .

(٢) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، (باب السين، ص ٧٤٥)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢،

. ١٩٨٧

(٣) لسان العرب (٢٣٥ / ٦) .

(٤) لسان العرب (٢٣٥ / ٦) .

الغضب والشهوة في الإنسان ويستوجب ذلك مجاهدة النفس، والمعنى الثاني : أن النفس لطيفة ربانية روحية، وهنا يشترك معنى النفس مع معنى القلب والروح والعقل، فهذه اللطيفة هي حقيقة الإنسان، وهي المدرك العالم العارف من الإنسان وهي المخاطب والمعاقب والمطالب ^(١). والنفس لها ثلاثة أحوال توصف بها، ويؤكد الغزالي ^(٢) :

١- النفس المطمئنة : وهي التي سكنت بسبب معارضة الشهوات، قال تعالى : ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) أَرْجَىٰ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّخْبِتَةً (٢٨)﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨]، فهي بهذا المعنى لا يتصور رجوعها إلا إلى الله تعالى .

٢- النفس اللوامة : وهي النفس المعترضة على الشهوات، وسميت كذلك لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه، قال تعالى : ﴿وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾ [القيامة: ٢].

٣- النفس الأمارة بالسوء : وهي من تركت الاعتراض وأذعنت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان، قال تعالى إخباراً عن يوسف عليه السلام : ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٢)﴾ [يوسف: ٥٣].

فالأمارة بالسوء هي ما أريد من معنى النفس في معناها الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان والتي تتطلب مجاهدة، لأنها مذمومة - هنا - غاية الذم، أما حين تلوم صاحبها عن فعل المنكرات أو التي وصلت إلى درجة الاطمئنان فهي محمودة لأنها نفس الإنسان، أي: ذاته التي تميز بها عن باقي المخلوقات بما في ذلك الملائكة ^(٣).

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين (٨/ ١٣٤٢).

(٢) الغزالي، إحياء علوم الدين (٨/ ١٣٤٢).

(٣) ينظر : الدكتور نبيل عزت موسى، المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية، مجموعة باحثين،

وقد امتازت الثقافة الإسلامية عن باقي ثقافات العالم بأنها أكدت على معنيين واضحين للنفس البشرية، مصدرهما المنهج القرآني: أحدهما: إيراد لفظ القلب بمعنى النفس، وبذلك أشارت الآية القرآنية: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٣٧) [ق: ٣٤].

فالثقافة النفسية الحديثة ارتبط فيها مفهوم النفس بمفاهيم البدن والدماغ من دون إشارة للقلب .

وثانيهما : الفطرة المركوزة في القلب، فالقلب هنا بمعنى الروح الإنساني المتحمل لأمانة الله، وهي في التراث الإسلامي معرفة الخير الذي يؤمن التوازن النفسي عند الإنسان ^(١) .

والنفس بمعنى الروح هي غير البدن قطعاً، وقد أورد ابن القيم لإثبات ذلك عدداً من الأدلة تعليقاً على قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، منها: الوفاة والإمساك والإرسال وبسط الملائكة لتناولها، ووصفها بالإخراج والخروج والإخبار عن عذابها ثم الإخبار عن مجيئها لربها ^(٢) .

إلا أن النفس مرتبطة بالبدن ارتباطاً وثيقاً فهي لا تفارقه إلا بإذن الله، ويؤثر أحدهما بالآخر تأثيراً ملاحظاً، فالنفس تمرض بما يعترض البدن أو يعتره من أمراض، حتى إن الأمراض البدنية ينعكس أثرها على قوى النفس ويبرز ذلك على سلوك الإنسان، كما تبرز آثار الأمراض النفسية على الأبدان فيصبح بدن الإنسان عليلًا هزيلًا لسيطرة أمراض النفس عليه، فيبدو المريض نفسياً هزيل البدن، ضعيف البنية، لا يحسن التصرف، يشعر بالألم في كل أنحاء جسمه وكأنه على

(١) الدكتور الزبير بشير طه وأحمد محمد الحسن، المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية، مجموعة

باحثين، ص ١٠٢٢ .

(٢) ابن القيم، الروح، بغداد، دار التربية، ١٩٨٨، ص ٢٤٠ .

وشك السقوط ^(١) .

والنفس المدركة العاقلة هي التي تميز الإنسان عن الحيوان، فالإنسان يشارك الحيوان في الحس والحركة واتخاذ السكن، وإنما يتميز عنه بالفكر - العقل - الذي يهتدي به لتدبير معاشه، وهو السبب في تلقي ما جاء به الأنبياء والمرسلون، فالإنسان (يرجع إلى من سبقه بعلم أو زاد عليه بمعرفة أو إدراك أو أخذه من غيره) ^(٢)، فالنفس الإنسانية لا تكتفي بالفطرة بل تبحث وتسعى للعلم والمعرفة في مجالات الحياة كافة .

إن الله تعالى أودع في نفس الإنسان فطرة الهداية للخير ونزعة الاتجاه للشر وجعل العقل فيصلها وحكمها في هذا الاختيار، فقال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلَمَّهَا ۖ تَجْوَرُّهَا وَتَجْوَئَهَا ۚ ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠ ﴾ [الشمس: ٧-١٠] .

فهي مراتب ثلاثة لهداية النفس البشرية :

أ- الله تعالى عرف النفس الفجور والتقوى بما أودع فيها من فطرة تميز بين هذين الطريقين .

ب- إن الله تعالى بين لها ذلك بالوحي والرسالات السماوية وحدد الأمور الفاصلة بينهما .

ج- إن الله تعالى وفق النفس للتقوى فكانت تقية ولم يوفقها للفجور فكانت فاجرة ^(٣) .

إلا إن الله تعالى أثنى على من زكى نفسه وجاهد ميلها للانحراف والفجور، فقال

تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠ ﴾ [الشمس: ٩-١٠] .

ولا تعارض في أن الإنسان هو الذي يباشر تركيته نفسه أو عكس ذلك، لأن كل

(١) الدكتور محمد فاروق النبهان، المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية، مجموعة باحثين،

ص ١٠٣٩ .

(٢) ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٧، (مجلد ١، ص ٧٧٠) .

(٣) ينظر : تفسير القرطبي في تفسير هذه الآيات (٧-١٠) من سورة الشمس .

ما يحصل هو بإذن الله ومشيتته^(١).

إن النفس تشقى وتسعد في الدنيا والآخرة، والله تعالى خالقها ومهديها فمعاقبها ومشقيها على ما اقترفت من فجور وعصيان، وهو تعالى مثيها ومكافئها إذا ما اتخذت الإحسان والطاعة طريقاً لها، وهو مطلع على خفاياها وأسرارها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْهُ بِهِ نَفْسُهُ وَحَنُّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۖ﴾ [ق: ١٦].

فمن صور شقاء النفس في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠].

ومن صور سعادة النفس تحقق الإشباع لديها بالطاعات والاطمئنان إلى معية الله تعالى والتوبة إلى الله تعالى والإنابة إليه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فيؤكد ابن القيم أن الإنسان يجب أن يجاهد هوى نفسه ويرفض أتباعها، لكونها موصوفة بالجهل والظلم حين لا تمتنع من ذلك: (وَمَنْ وَصَفُهُ الْجَهْلُ وَالظُّلْمُ لَا مَطْمَعَ فِي اسْتِقَامَتِهِ وَاعْتَدَالِهِ الْبَتَّةَ فَيُوجِبُ لَهُ ذَلِكَ بَذْلَ الْجُحْدِ فِي الْعِلْمِ النَّافِعِ الَّذِي يُخْرِجُهَا بِهِ مِنْ وَصْفِ الْجَهْلِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي يُخْرِجُهَا بِهِ مِنْ وَصْفِ الظُّلْمِ ...) (٢).

فإذا سيطر هوى النفس ورغبتها في ملذات الحياة الدنيا على الإنسان صار تابعاً ذليلاً لها: (فالنفس مشحونة بحب العلو والرياسة فتجد أحدهم يوالي من

(١) ينظر: الدكتور محمد عز الدين توفيق، دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث، دار السلام

للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٤، ط ٣، ص ٤٣٠.

(٢) ابن القيم، مدارج السالكين (١/ ٢٢٠).

يوافقه على هواه ويعادي من يخالفه في هواه وإنما معبوده ما يهواه ويريده (...)^(١) .

فالنفس الأمانة بالسوء لها أعوان يمدون لها يد المساعدة للاستمرار في منهجها الضال، منها :

أولاً : الجهل : فالجاهل يقف أمام الحق معانداً وجاحداً تدفعه نفسه الأمانة بالسوء إلى ذلك ونبد الحق، قال تعالى : ﴿ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَانٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (١٣٨) [الأعراف: ١٣٨] .

ثانياً : الهوى : ويعرفه الأصبهاني بأنه : (ميل النفس إلى الشهوة، وقيل : سمي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية وفي الآخرة إلى الهاوية، والهوى سقوط من علو إلى أسفل)^(٢) .

وفي كل الأحوال تبقى النفس البشرية في عملية خضوعها للعقل في صراع بين هوى النفس واتجاه العقل الذي يخالفها، قال تعالى : ﴿ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ (٤) [الطارق: ٤] ، والمقصود بالحافظ هنا في مفهوم علماء الاجتماع والنفس (النسق القيمي) الذي يساهم في حكم السلوك الإنساني عن طريق الرقابة الدائمة على سلوك النفس ومراقبة كفتي الميزان بين هوى النفس وحكمة العقل^(٣) .

وتعالج النفس كما يعالج البدن، فعلاجها يتم عن طريق محو الرذائل وجلب الفضائل، فالرذيلة لا تعالج إلا بالفضيلة والمغالاة في الرذائل تعالج بالمغالاة في

(١) ابن تيمية، الفتاوى (١٤/٣٢٤) .

(٢) الأصبهاني، المفردات، ص ٥٧١ .

(٣) ينظر : الدكتور زيدان عبد الباقي، علم النفس الاجتماعي في المجالات الإعلامية، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٧٧، ص ١٥ .

الفضائل، إلى أن تصل النفس بعد مرحلة العلاج إلى الاعتدال الذي يسمى حديثاً بالصحة النفسية .

فيقول الغزالي: (فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم، وكما أن البدن إن كان صحيحاً فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة، وإن كان مريضاً فشأنه جلب الصحة إليه، فكذلك النفس منك، إن كانت زكية طاهرة فينبغي أن تسعى لحفظها وجلب مزيد قوة إليها واكتساب زيادة صفاتها، وإن كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغي أن تجلب ذلك إليها)^(١).

وقد عدت الشريعة الإسلامية التعامل مع النفس الأمانة بالسوء أو التي تغري صاحبها باتباع الهوى والشهوات والرذائل، جهاداً في سبيل الله، لأن تقوية النفس بإبعاد هذه، وقال تعالى بحق رسول الله ﷺ نافياً عنه الخضوع إلى سلطان الهوى: ﴿وَمَا يَطِئُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِن هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].

ثالثاً: الغفلة: وهي ما يمر بالإنسان من حالات يكون فيها محجوب النظر عن رؤية الأضرار التي تلحق به من جراء سهوه ونسيانه ما هو مطلوب منه شرعاً، قال تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرِ مِّن رَّبِّهِمْ تُحْدِثُ إِلَّا أَسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) [الأنبياء: ١-٢].

رابعاً: الشهوات: وإذ تعدّ النفس ميالة إلى الشهوات فإنها توصل صاحبها إلى الهلاك في المعاصي ما لم يتنبه الإنسان إلى ذلك فيترك الاستجابة الكاملة لها خوفاً من الوقوع في الهاوية، ومن هذه الشهوات: حب الصدارة والرئاسة، والشهوة إلى النساء، والأموال .

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين (٣/ ٦١) .

فقال تعالى عن الشهوة الأولى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَذِخُّ أُنْثَاهُمْ وَيُسَكِّتُنَّ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ٤١﴾ [القصص: ٤].

وقال تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٣٣﴾ [يوسف: ٣٣].

وقال تعالى عن تأثير فتنه المال على نفس الإنسان ومصيره: ﴿وَيَلْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ١ الَّذِينَ جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ٣﴾ [الهمزة: ١-٣]. وعلاج ذلك كله من أمراض وهفوات النفس يتطلب من الإنسان أن يقوي صلته بالله تعالى بطرد جهل النفس التواقة إلى الملذات، وبدوام ذكر الله تعالى، قال عليه السلام: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ١١ وَسَيَحْمُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ١٢﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢]، وبالمحافظة على أداء الفرائض وتوحيد الله تعالى فإنه يعصم النفس عن الزلل، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ١١٠﴾ [الكهف: ١١٠]، وبالدوام على الصلاة، قال عليه السلام: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ١٥﴾ [الأعلى: ١٤-١٥].

وكذلك مغالبة النفس بالدوام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ٣﴾ [العصر: ١-٣]، وفي بقية الطاعات وأعمال الخير والفضيلة والإحسان بقية العلاج النافع ضد أهواء النفس مثل: المداومة على نوافل الطاعات، وقراءة القرآن وذكر الله تعالى^(١).

أما محاسبة النفس على ما تهوى وتشتهي فتأتي بالمرتبة الثانية بعد ربطها بالله تعالى،

(١) ينظر للمزيد: الدكتور عبد الله بن أحمد القادري، الجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته، ص ٣١٢ وما بعدها.

في طريق الحفاظ على توازن الإنسان ودفعه باتجاه الطاعات والفضيلة، وإبعاده عن خطر الانزلاق في هاوية الشهوات الزائلة، وذلك بجملة وقفات لإصلاح النفس منها:

الأولى : محاسبة النفس على النعم التي توجب شكر الله تعالى لا معصيته .

الثانية : تذكير النفس على الدوام بأنها تحت رقابة الله تعالى فلن تخرج فيما تفعل عن علمه .

الثالثة : ذكر الموت ونهاية الإنسان المحتومة يردع النفس عن الكثير من الشهوات والمعاصي .

الرابعة: إجبار النفس على اتباع الصالحين والافتداء بالأعمال الحسنة التي تترك في النفس راحة وأمناً.

الخامسة: تعويد النفس على مخافة الله ﷻ وحبه في آن واحد بالترغيب والترهيب.

السادسة: متابعة التوبة إلى الله تعالى تجدد في النفس بوادع العمل الصالح .

السابعة: تنمية حق المجتمع في محاسبة أهل السوء والضلال من أصحاب النفوس الشريرة الهدامة، وذلك بالحسبة ووضع الحق في نصابه، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

ويتطور هذا الأمر لتحقيق غاية تقويم النفوس الشاذة، والمؤذية إلى تطبيق الحدود والتعزيرات المعروفة في الشريعة بالقصاص وعن طريقه يتضح الحق من الباطل والعدل من الظلم^(١) .

(١) ينظر : الدكتور عبد الله بن أحمد القادري، الجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته، ص ٣٦٨ وما بعدها .

إن النفس الإنسانية موضوع القرآن الرئيسي وتقويمها وتهذيب طباعها وسلوكها مهمة المصلحين، فما نزل هذا الكتاب إلا لهداية النفس من الضلال إلى الهداية .

المطلب الثاني : الحرب النفسية في المنظور الإسلامي

أولاً : تعريف الحرب النفسية في المنظور الإسلامي :

اتضح لنا في المطلب السابق أن النفس تمثل الاهتمام الأول في الإسلام، وأن إصلاح النفس في الأخلاق والطباع والسلوك اتخذ في القرآن الكريم والسنة النبوية موقعاً متقدماً يراد منه الوصول بالنفس البشرية إلى درجة الفوز بمعيته، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ ﴿١﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۖ ﴿٢﴾﴾ [الشمس: ٩-١٠].

ووقفنا في المطلب نفسه على أن معنى الحرب في الإسلام يدور حول منع الظلم وتحقيق العدالة، وصد نفوس الطغاة والجبابرة عن إبداء خبثها وفرض هيمنتها على الآخرين، فهي بهذا المعنى حرب لصد إرادة النفوس المعتدية على غيرها : قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۖ ﴿١١٠﴾﴾ [البقرة: ١٩٠].

إذن (فالحرب في الإسلام لها قوانينها ونظامها وآدابها التي تتميز بها عن سواها من الحروب التي يقوم بها غير المسلمين، إنها لا تشنُّ حيثما اتفق تنكيلاً وتخريباً وتقتيلاً دون تمييز، وأعمالها لا تبدأ إلا بعد الإعلان والنبد على سواء، وإن اشتعل لهيبها فلا يجوز قتل النساء والولدان ولا التمثيل بجثث القتلى، بل يجب دفنها ومواراة سوءاتها، والنفس المسلمة ملزمة بالتقيد بتلك النظم والآداب)^(١) .

(١) الدكتور عيادة بن أيوب الكبيسي، النصر في القرآن الأسباب والمعوقات، مجلة الأحمدية، الإمارات،

العدد الأول، لمحرّم ١٤١٩هـ، ص ٣١.

وكان من نتيجة هذا الاهتمام القرآني والنبوي بإصلاح النفس البشرية وصد نوازع النفوس الخبيثة المتعلقة بالدنيا، أن وردت الكثير من الملامح والإشارات والصور التي تؤكد أهمية المعنويات برفعها عند أهل الحق وتثبيطها عند أهل الباطل، وكذلك النصح والإرشاد إلى استخدام الرعب والتخذيل وتمزيق صفوف العدو إلى جانب تعزيز المعنويات والاعتصام بوحدة الصف ومقاومة إشاعة الخصم ودعايته، وغيرها من ملامح نقف عليها إن شاء الله في موضوع (الحرب النفسية في القرآن الكريم والسنة النبوية) وكلها أخضعها الباحثون إلى ما عرف حديثاً : بالحرب النفسية، حيث ثبت امتداد صورها وتطبيقاتها في القرآن والسنة، رغم الاختلاف في اللفظ وعدم جمعها في مصطلح شامل كما يتم التعامل اليوم مع الحرب النفسية باعتبارها علماً له قواعده وأساليبه وأهدافه .

وعلى الرغم من مؤلفات بعض مفكرينا وباحثينا الإسلاميين المعاصرين في الجهاد ومجاهدة النفس وتحقيق النصر على عدوها^(١)، لم نقف على تعريف للحرب النفسية، سوى محاولة الدكتور هيثم عبد السلام، في قوله إنها :

(جميع الوسائل والأساليب التي تؤدي إلى إضعاف الروح المعنوية لدى العدو، أو تعمل على كسب تأييد الدول الصديقة والمحايدة ومحاولة تحريضها ضد العدو من دون اللجوء إلى القتال)^(٢) .

ويرى الباحث : أن الحرب النفسية في المنظور الإسلامي هي : مجموعة الإجراءات

(١) من هذه المؤلفات : التربية الجهادية للدكتور منير الغضبان، والرسول القائد لمحمود شيت خطاب والمدرسة العسكرية النبوية للدكتور محمد عبد القادر أبو فارس، والحرب النفسية من منظور إسلامي للدكتور أحمد نوفل، وآثار الحرب في الفقه الإسلامي للدكتور وهبة الزحيلي وفقه النصر والتمكين للدكتور علي الصلابي، والجهاد في السياسة الشرعية للدكتور محمد خير هيكل، وغيرها .

(٢) الدكتور هيثم عبد السلام، الحرب النفسية في المنظور الإسلامي، مجلة الحكمة، ص ١١٩ .

والعمليات المستخدمة للتأثير في العدو لإضعافه أو صد عملياته النفسية المعادية، من دون الدخول معه في قتال حقيقي وضمن ضوابط الجهاد في الشريعة الإسلامية .

فمجموعة الإجراءات والعمليات المستخدمة للتأثير : هي كل ما يمكن أن يستخدمه المسلم فرداً أو المسلمون جماعة ودولاً من حرب فكرية ودعائية أو إطلاق إشاعات ومناورات سياسية أو ممارسة لضغوط اقتصادية ضمن حدود استعمال الكلمة باعتبارها سلاح هذه الحرب إذ ليس من شروطها اللجوء إلى استخدام السلاح

والقصد من عبارة : للتأثير في العدو لإضعافه أو صد عملياته النفسية المعادية هو : الإشارة إلى وجود من يعادي الإسلام والمسلمين مما يتطلب منا كمسلمين دعوته للحق فإذا رفض ذلك وجبت معاملته بشدة أعلى عن طريق أساليب الحرب النفسية المعروفة لنشر الضعف في صفوفه، لأن احتفاظه بالقوة يمنعه غالباً من التسليم، كما أن لنا الحق الكامل في التصدي لكل ما يمكن أن يقوم به هذا الخصم من حرب نفسية موجهة إلينا، وبواعت التصدي هو الدفاع عن الإسلام وحماية حق الدعوة إليه وإزالة كل العوائق التي تمنع انتشاره، وتعليق النزاع بالعدو فهو لإخراج المسلمين من الاستهداف بهذه الحرب .

وعبارة : من دون الدخول معه في قتال حقيقي: تعد من أساسيات التعامل بأساليب ووسائل الحرب النفسية التي تشترط عدم استخدام السلاح أو الدخول مع الخصم في قتال حقيقي لأن حدوث ذلك يحوّل الأمر إلى حرب تقليدية معروفة .

وأما عبارة : وضمن ضوابط الجهاد في الشريعة الإسلامية : فتعني أن تلبس الحرب النفسية لباس الجهاد في ضوابطه وآدابه وأحكامه، باعتبارها داخلة في مفهوم مجاهدة النفس ومجاهدة العدو .

وتحرص هذه الضوابط على منعنا من العدوان أو الغدر وخيانة الخصم وتوجب علينا إنذاره وكون إجراءتنا وعملياتنا الموجهة إليه بعيدة عن المطامع الشخصية أو لأغراض التوسع والعدوان والظلم، أي أن يكون هدفها إعلاء كلمة الله تعالى كما يهدف الجهاد في الإسلام إلى ذلك .

ثانياً، ألفاظ الحرب النفسية في القرآن :

لقد صور القرآن الكريم الحرب النفسية أدق تصوير وأحسنه لأنه أساساً كتاب أنزله الله تعالى لمخاطبة النفس الإنسانية في لحظات قوتها وضعفها، إيمانها وكفرها، يقينها وحيرتها، موضحاً الطريق السوي والصراط المستقيم لها لكي تتخذ منهجاً وطريقة حياة، كما أن القرآن الكريم احتوى من الألفاظ الدالة والمصطلحات المعبرة عن تقلبات النفس الإنسانية ما يثبت أهمية هذه النفس وضرورة رصد أحوالها المختلفة، وبالتالي فإن القرآن الكريم عني عناية فائقة في تصوير الحرب النفسية عبر الصور والمشاهد والقصص المختلفة لأنها أصلاً تستهدف الإنسان، والقرآن الكريم يريد أن يرسم لهذا الإنسان طريق الوقاية منها ومن أي مؤثر قد يحول دون إيمان الإنسان بالله تعالى وتوحيده وتطبيق شريعته، وقد وردت معظم الصيغ اللغوية المعبرة عن أحوال النفس وخضوعها لآثار الحرب النفسية في صور ثلاثة هي :

الخوف : كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ۚ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥] . ولا شك أن هذه الكلمة هي اختصار لحالة شعورية مهمة جداً في الإنسان لعظم تدخلها في حياته وتأثير الخوف واتخاذ العقيدة التي يريد الله تعالى له، كما أنها هدف عام من أهداف الحرب النفسية حيث تعمل على تحقيقه على الدوام . وهذه المادة الشعورية (وردت في ١٢٤ موضعاً في القرآن مما يدل على عمق شعور الخوف في الإنسان، وضرورة توجيه هذا الخوف إلى ما ينبغي أن يخاف منه وهو الله تعالى، وضرورة ألاّ تنصرف مشاعر الخوف لغيره سبحانه أو لشيء سواه لأن

ذلك إما مناقض للإيمان أو موهن عراه على أقل تقدير (١).

إن اعتناق عقيدة التوحيد والتمسك بها يستلزم شعوراً بعيداً عن الخوف بشكل تام، وهو الأمن والطمأنينة، فكلما توفر ذلك للإنسان لبي نداء الفطرة واتجه إلى الله تعالى، وكلما برز الخوف برزت معه مشاعر الخضوع للباطل وصور الانقياد للشرك والبعد عن منهج الله تعالى، أما الحرب النفسية فهي تعمل عملها الفاعل في تأجيج عامل الخوف والسيطرة على إرادة الخصم وقراراته، ولهذا فقد وعد الله تعالى عباده المؤمنين الصابرين بالأمن من الخوف في الدنيا والآخرة لقوة تأثير هذا العامل النفسي في استقرار الإنسان، قال تعالى: ﴿الْأَلْبَانِ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

الرعب : يستخدم هذا المفهوم في الحرب النفسية كثيراً، بل هو من الطرق المهمة الموصلة لتحقيق الظفر في هذه الحرب، أما القرآن فقد تعامل مع كلمة (الرعب) وما تمتد إليه من معانٍ باعتبار أن الله تعالى هو الذي يحدثه في قلوب الكفار والمعادين لشريعته ويقضي عليه في نفوس المؤمنين باعتباره عاملاً مؤثراً جداً في حياة الإنسان وهدفاً مهماً من أهداف الحرب النفسية، قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوًى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١].

فهذا الشعور النفسي يقدمه الله تعالى بين يدي المؤمنين به، المجاهدين في سبيله لكي يتحقق لهم النصر على العدو بصورة أدق وأوثق من أية حالة أخرى، قال تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرِبُوا فَوْقَ الْأَغْنَاقِ وَأَصْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ٢١].

(١) د. أحمد نوفل، الحرب النفسية من منظور إسلامي، مصدر سابق، ص ٥٢.

الوهن: وهو شعور يترك في النفس الإنسانية قيماً مدمرة من الخواء وضعف العزيمة وانهيار المعنويات، ولهذا التأثير السلبي في النفس الإنسانية فقد حذر الله تعالى المؤمنين من اتباعه والركون إليه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وغالباً ما يكون هذا الوهن معاكساً لشعور القوة والغلبة والتمكين وقد صورته الله تعالى باعتباره مؤثراً نفسياً خطيراً من أدوات الحرب النفسية المهبطة للمعنويات، بل نهى الله تعالى المؤمنين من الركون إليه حين يكونون في حالة نصر وقوة، لأن اللجوء إليه في هذه الحالة من القوة يوهن العزيمة ويدمر المعنويات فتعلو همّة العدو وعزيمته على المقاومة، قال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَهِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَتَمَنَّاكُمْ﴾ [الأنفال: ٣٥].

ثالثاً: مبادئ الحرب النفسية في الإسلام وغاياتها :

حدد القرآن الكريم مبادئ رئيسية يجب أن يتحلى بها المسلم في حالات جهاده لأعداء الدين، ولخصها قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٦) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِيقًا النَّاسُ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٧) [الأنفال: ٤٦-٤٧].

والتي يقول فيها الطبري: (هذا تعريف من الله جل ثناؤه أهل الإيمان به السيرة في حرب أعدائه من أهل الكفر به، والأفعال التي ترجى لهم باستعمالها عند لقاءهم النصر عليهم والظفر بهم، والتنازع هو الفشل وهو الضعف عن جهاد عدوه والانكسار لهم) (١)، ويستنبط من الآية الكريمة المبادئ الآتية :

« الثبات / ذكر الله تعالى / طاعة الله ورسوله ﷺ / وحدة الصف / الصبر ».

(١) الطبري، تفسير الطبري (١٠/١٥-١٦).

وهي إشارات لحقيقة كبيرة : أن الحق لا يثبت وأن الباطل لا يبطل في المجتمع بمجرد البيان النظري لهما، أو الاعتقاد القلبي بهما، بل يتحقق ذلك بتحطيم سلطان الباطل وغلبة سلطان الحق بعد المواجهة التي لا بد أن يثبت بها أهل الإيمان حتى يدحروا الباطل ويهزموه^(١). وخارج سياق الآية الكريمة نجد :

١- اليقين النفسي والواقعي : إن العدو مصرٌّ على كفره وخبثه مما يستوجب صده ومقاومته، قال تعالى : ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

٢- السعي لتحديد مرامي وأهداف حرب العدو النفسية وأسسها الدعائية والعقائدية تمهيداً لصدها وإسقاطها، قال تعالى : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

٣- فضح أساليب العدو والتشهير بعقائده وأعرافه ومناهجه الواهية الباطلة فتفتت معنوياته ويقلّ اندفاعه للصمود، قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءٌ وَتَصْدِيدٌ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٥].

فالشرك يقدم على غيره في الفضح وكل ما رافقه من نفاق وادعاء وغيره : (يخشع أمام الناس وينقر صلاته في الخفاء والخلوة، وإذا جلس مع الناس عليه زهد وعبادة، يتأدب في مجلسه وفي كلامه ومنطقه، فإذا خلا بمحارم الله انتهكها)^(٢).

لقد حدد القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة مرامي التعامل الخشن المطلوب مع العدو وغاياته ضمن ما يهدف إليه الجهاد في الإسلام وهو نفسه ما تهدف إليه الحرب النفسية وهي :

أ- حماية حرية العقيدة : قال تعالى : ﴿وَقَدْ لُوَّهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ

(١) ينظر : د. منير الغضبان، التربية الجهادية، مكتبة المنار، الأردن، ٢٠٠٦، ص ٧، ج ١، ص ١٠٠.

(٢) الدكتور عائض القرني، الإسلام وقضايا العصر، دار ابن حزم، بيروت، ٢٠٠١، ط ١، ص ١٥.

كُلُّهُ، اللَّهُ فَإِنْ أَنْتَهُوَ فَإِنَّ اللَّهَ يَمَّا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ [الأنفال: ٣٩].

ب- حماية شعائر المسلمين وعباداتهم : قال تعالى : ﴿أُوذِنَ الَّذِينَ يَفْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صُلُوحُ وَيَبْعُ وَصَلَوْتُ وَمَسْجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٣٩-٤٠].

ج- الابتلاء والتربية والإصلاح ، قال تعالى : ﴿فَإِذَا لَقِيتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَرْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاكُ فَإِمَّا مَأْبُودٌ وَإِمَّا فَدَاءٌ حَتَّىٰ تَصْعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنْصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴿٤١﴾﴾ [محمد: ٤].

والتي يحدد فيها ابن كثير معنى الابتلاء بقوله : (ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم ويبلو أخباركم)^(١).

د- دفع الفساد في الأرض : قال تعالى : ﴿وَلَمَّا بَرَرُوا لِبَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَبِئًا وَنَكَبْتَ أقدامَنَا وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَهَزَمُوهُمْ يُؤَذِّنُ اللَّهُ وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥٠-٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٥٠-٢٥١].

هـ- إرهاب الكفار وإخزاؤهم وإذلالهم وتوهين كيدهم : قال تعالى : ﴿فَنَلَّوْهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُهُمْ عَلَيْهِمْ يُدْرِكُ صُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التوبة: ١٥].

و- كشف المنافقين : قال تعالى : ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَتَابِعُوا بِاللَّهِ وَرُسُلَهُ

(١) ابن كثير، التفسير، (٤/١٥٤).

وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ [آل عمران: ١٧٩]، والتي قال فيها ابن كثير: (لا بد أن يعقد سبباً من المحنة، يظهر فيه وليه ويفتضح فيه عدوه، يعرف به المؤمن الصابر والمنافق الفاجر...) ^(١)

ز- إقامة حكم الله ونظام الإسلام في الأرض: قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء: ١٠٥]، حيث يتضح أن إقامة حكم الله في الأرض هدف من أهداف الجهاد ^(٢).

رابعاً: سمات الحرب النفسية في الإسلام :

تتسم الحرب النفسية في مفهومها العام وفي طروحات علماء الإعلام باستنادها إلى جملة سمات ومحددات منها: معرفة الضعف عند الخصم، والتخطيط المبرمج لشن الحرب عليه، وعدم التردد في استخدام أية وسيلة تخدم هذه الحرب كالדعاية والإشاعة وغسيل الدماغ وغيرها ^(٣). أما الحرب النفسية في المنظور الإسلامي، فهي تأخذ بهذا كله من الطرق العلمية المؤثرة في هذا المجال، إلى جانب مجموعة من الصفات المعنوية والمؤثرات الخارجية التي لا توجد في غيرها والتي تثبت أن رداء الحرب النفسية حين يكون إسلامياً فهو لا يشبه أي رداء آخر مما امتازت به الحروب التي يرجى من خلالها تحقيق النصر الدنيوي أو التعالي على الآخرين، أو إذلال الناس ومنها:

١- معية الله لعباده المؤمنين : ولاخلاف في قوة هذه المعية وعظم تأثيرها النفسي

(١) تفسير ابن كثير، (١ / ٣٧١).

(٢) ينظر: الدكتور علي محمد الصلابي، السيرة النبوية، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥، ط ٣، ص ٣٦٠.

(٣) الدكتور أحمد بدر، الاتصال بالجماهير والدعاية الدولية، دار القلم، ص ٢٠٥ وما بعدها. وينظر:

الدكتور حامد ربيع، الحرب النفسية في الوطن العربي، مصدر سابق، ص ٣٣٣.

والمادي قال تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَذِلَكُمُ النَّاسُ فَأَوْنَكُمْ وَأَيُّدُكُمْ بِضُرِّهِمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ [الأنفال: ٢٦].

والتي يقول الطبري في تفسيرها : (أطيعوا الله ورسوله أيها المؤمنون ، واستجيبوا له إذا دعاكم لما يحبيكم ، ولا تخالفوا أمره ، وإن أمركم بما فيه عليكم المشقة والشدّة ، فإن الله يهونه عليكم بطاعتكم إياه ، ويجعل لكم منه ما تحبون...)^(١) .

٢- قتال الملائكة مع المؤمنين بالله : وهم من مخلوقات الله يرسلهم ويستعملهم في مهمات مختلفة ، منها مؤازرة المؤمنين في قتالهم للعدو ، تعزيزاً لمعنوياتهم وتحذيراً لمعنويات الخصوم ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدَرِّ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رُبَّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١٢٤﴾ [آل عمران: ١٢٣-١٢٤].

٣- اصطفاف أسباب السموات والأرض مع المجاهدين في سبيل الله : (وما ينصر الله به عباده المتقين أن يسخر لهم أسباب السموات والأرض التي لا يحيط بعلمها إلا هو - سبحانه وتعالى - ...)^(٢) ومنها :

٤- الريح ، قال تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ ﴿٩﴾ [الأحزاب: ٩].

٥- الزلازل ، قال تعالى في قوم صالح عليه السلام : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِيحًا﴾ ﴿٣٧﴾ [الأعراف: ٧٨].

٦- الخسف ، قال تعالى : ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ

(١) الطبري ، تفسير الطبري ، (٢١٩ / ٩) .

(٢) محمد بن عبد الله الشمراني ، أسلحة لا تصنعها الحضارات ، مجلة البيان ، عدد ٢٢٦ ، نيسان ، ٢٠٠٦ ،

الْعَذَابِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ [النحل: ٤٥].

٧- حجارة السماء، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٨٢-٨٣].

٨- الصواعق المحرقة، قال تعالى: ﴿وَيَسِّحُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُ مِنَ خِفَتِهِ يُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [الرعد: ١٣].

٩- الرعب : وهو أن يقذف الله عز وجل الرعب والخوف والمهابة في نفوس أعدائه فتضعف قواهم وترتبك أفكارهم وأعصابهم، فتشكل هذه الحالة سبباً مهماً من أسباب النصر على العدو، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكِكَةِ أِنِّي مَعَكُمْ فَتَيُّوْا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: ١٢].

١٠- التخلق بأخلاق الصالحين : (هذا النوع من السلاح ينصر الله بسببه أهل الإيـمان من المجاهدين في سبيله، وهو من أعظم الأسلحة ...)^(١).

والتحلي بهذه الأخلاق الفاضلة يطبع الجهاد في الإسلام والحرب النفسية من خلاله بطابع النية الصادقة ونبيل المقصد وشرف التعامل حتى مع العدو، وفي التاريخ أن عمر بن الخطاب ؓ أرسل إلى عمرو بن العاص ؓ كتاباً حين أبطؤوا في فتح مصر، وأرشده إلى ترك المعاصي والتعلق بالله وأن يأمر الجند بالتطهر والصلاة قبل القتال والتضرع لله، حتى إذا فعلوا ذلك فتح الله عليهم فانتصروا^(٢).

(١) محمد بن عبد الله الشمراني، مصدر سابق، ص ١٠٨.

(٢) ينظر: الكاندهلوي، حياة الصحابة، (٤/ ٤٧٤).

خامساً : شروط الحرب النفسية في الإسلام :

أ - العلم المنافي للجهل : ولأهمية العلم جعله الله تعالى رديفاً للجهاد، ففرض الجهاد على طائفة من المؤمنين لكيلا يترك أمر طلب العلم، قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَتْ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (١٢٢) ﴿ [التوبة: ١٢٢].

وقيل في توصيف العلاقة بين العلم والجهاد : (إن الجهاد لا يعرف فضله إلا بالعلم، ولا تتضح شروطه وحدوده إلا بالعلم، ولا يتبين الجهاد المشروع من القتال غير المشروع إلا بالعلم، ولا يتميز النفل فيه عن الفرض إلا بالعلم، ولا يعرف فرض الكفاية فيه من فرض العين إلا بالعلم)^(١).

ب - أن تكون هذه الحرب في سبيل الله : وأهداف هذه الغاية النبيلة تجملها الآية الكريمة : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (٢١) ﴿ [الأنفال: ٢٩].

ج - أن يكون خوض الحرب لمصلحة الأمة : كأن يكون فيها دفع مفسدة الغزو المعادي أو حماية حق الدعوة والدعاية إلى الله أو لإزالة سلطان الجبابة الذين يمنعون الناس من الإيمان، وبهذا الشرط فقد كره الإسلام تعدد الرايات وتفرق القلوب في حالة المواجهة مع عدو الأمة^(٢).

ويتضح منها أن هدف الجهاد حين يكون لتحقيق توسع سياسي أو لنفوذ جغرافي

(١) الدكتور يوسف القرضاوي، الرسول والعلم، مؤسسة الرسالة، ١٩٩١، ط ٥، ص ٢٨.

(٢) ينظر : الدكتور عمار عبد الله ناصح علوان، مقصدية الدعوة في الجهاد، ص ١٧٧.

أو لمكسب اقتصادي، فقد خرج الجهاد عن أصله وباعثه الحقيقي^(١) والتباس الحرب النفسية بهذه المفاهيم يربك شرط كونها في سبيل الله .

د - النظر إلى قوة المسلمين : وهذا الشرط فيه الكثير من أسباب حماية الأمة من القرارات غير المسؤولة حين يورط ولاية الأمر الأمة في حرب مباشرة أو نفسية والمسلمون في حالة ضعف، وقد حدد الله تعالى حدود هذا الضعف في قوله تعالى : ﴿ اَلَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٦].

والمفهوم من الآية الكريمة جواز الفرار من العدو حين يكون عدده ضعف عدد المسلمين، وجوز ابن رشد الفرار في حالة تفوق العدو بالسلاح حتى إذا كانوا متساويين في العدد : (إنما يعتبر في القوة لا في العدد وأنه يجوز أن يفر الواحد عن واحد إذا كان أعتق جواداً منه وأجود سلاحاً وأشد قوة)^(٢) .

وإذا كانت اعتبارات القوة يؤخذ بها في الحرب المباشرة بنسبة أكبر، فإنها - أيضاً - مهمة جداً في الحرب النفسية باعتبارها من حيث عدد المقاتلين عاملاً مهماً في استقرار المعنويات ومن حيث عدد القادرين على خوض الحرب النفسية عاملاً مؤثراً بلا شك في تعزيز القوة وزيادة الضغوط الموجهة إلى العدو لتخذيذه .

(١) المصدر السابق، ص ١٧٨ .

(٢) ابن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ص ٣٨٧ .

الفصل الثاني

الحرب النفسية... أهدافها، أساليبها، مقاومتها

المبحث الأول: أهداف وأساليب الحرب النفسية

المطلب الأول: أهداف الحرب النفسية

أصبحت الحرب النفسية ضرورة لازمة لأي صراع معاصر، خاصة مع تقدم وتطور أدوات ووسائل هذه الحرب. كما أن هذه الحرب هي بلا قتال حقيقي بل تنطلق من فكر وذات الإنسان لتستهدف أنساناً آخر مثله، وهي كذلك عملية إعلامية اتصالية، إذ إن معظم تطبيقات وإجراءات الحرب النفسية تتم عبر وسائل الإعلام، كالفضائيات أو السينما أو المطبوعات أو المنشورات أو الإذاعة وغيرها. فهي إذن حرب لها أهدافها وأساليبها ومستوياتها^(١).

(١) مستويات الحرب النفسية حددت على ضوء الاختلاف في المستويين الزماني والمكاني، ثم أضيف إليها ما إذا كانت هذه الحرب توجه إلى الأصدقاء والمحايدين على رأي بعض الباحثين الذين وردت تعريفاتهم سابقاً (التعريف الثاني والتعريف الخامس) وهي: أ. الحرب النفسية الاستراتيجية وتختص بمدى واسع من النشاطات والإجراءات، وتتسم بكونها تتجه إلى جمهور كبير من الناس متجاوزة الإطار الزماني والمكاني، وكذلك تتصف بسعة الأهداف الاستراتيجية البعيدة التي تتعامل معها. ب. الحرب النفسية التكتيكية: ويستخدم هذا المستوى في حالة القتال الحقيقي المباشر، حيث يتعلق بمواجهة المشاكل والمواقف الحاصلة في ميدان المعركة. وتشمل الإجراءات هنا كل ما يسمح باستخدامه في الميدان، مثل المباغلة والمناورة والردع العسكري وإذاعات الميدان والمنشورات، والتهديد باستخدام أسلحة التدمير الشامل وغير ذلك. ج. الحرب النفسية التعزيزية: ويدخل هذا القسم والذي يليه ضمن مفاهيم الحرب النفسية لمن أكد على أنها قد توجه إلى جهة صديقة أو محايدة، وتعني: الحرص على تثبيت دعائم النصر المتحقق عبر الحرب النفسية التكتيكية أو الاستراتيجية، ثم محاولة تثبيت نتائج هذا النصر لكي يكون حقيقة ملموسة وواقعة.

د. الحرب النفسية الدفاعية: وتعرف بأنها كل الإجراءات والمواقف النفسية المضادة التي تشرع بها دولة أو كتلة ما لتخليص المجتمع من الحرب النفسية المعادية أو تقليل فاعليتها. ثم العمل على أخذ زمام المبادرة والقيام بالمبادرة في شن هذه الحرب ضد الخصم. (ولتفصيل أكثر ينظر: لقاء مكّي شفيق، المصدر السابق، ص ١٧، وعيسى محمد عيسى، أساليب الحرب النفسية للكيان الصهيوني تجاه الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة ٦٧-١٩٧٣، رسالة ماجستير، قسم الإعلام، كلية الآداب، جامعة بغداد، ص ١٨).

وفي الطريق إلى إيضاح أهداف الحرب النفسية لابد لنا من التريث قليلا للفرقة بينها وبين الدعاية لضمان عدم اختلاطهما كما حدث ذلك عند بعض الباحثين عند تحديد الجهة التي توجه لها الدعاية والحرب النفسية إذ أن أساس الاختلاف في النظرة التي حددت توجيه الحرب النفسية إلى العدو فقط، وبين الأخرى التي شملت توجيهها إلى الصديق أو المحايد، نابع بسبب الخلط في العلاقة بين الحرب النفسية والدعاية، فالدعاية مع أنها فن مستقل له سماته الاتصالية والنفسية إلا أنه يتداخل أحيانا مع الحرب النفسية حين تستخدمه الدعاية كأداة من أدواتها، فالدعاية تقوم على إقناع واقتناع وتغيير الرأي، والحرب النفسية تقوم على أكثر من ذلك حين تستخدم هذا المقصد كهدف من أهدافها (ولكن المخطط يستطيع أن يستخدم الأداة في غير الهدف أو الوظيفة التي تنبع من طبيعة تلك الأداة، فالإعلام على سبيل المثال أو الدعاية قد تتحول إلى حرب نفسية)^(١).

وإذا كانت الحرب العالمية الثانية قد منحت الفرصة لأكثر تطبيقات وإجراءات وصور الحرب النفسية بالبروز، فإن ظاهرة الاحتلال العسكري التي تمت خلال وبعد هذه الحرب تطلبت ظهور نوع من هذا التداخل بين الحرب النفسية والدعاية، ف(الاحتلال لم يضع حداً لدور الدعاية بل على العكس كان الواجب على القوات المحتلة أن تستميل قلوب الأهليين في الأراضي المحتلة، وتكثر من الأنصار للتعاون معها والقضاء على المعارضين وتسفيه آرائهم، وإشراك هؤلاء الأهليين في الإنتاج الحربي من جهة ثم في المعارك الضارية التي خاضها الجيش الألماني خلال الحرب العالمية الثانية من جهة أخرى)^(٢).

(١) د. حامد ربيع، مصدر سابق، ص ٢٩.

(٢) عيسى محمد عيسى، مصدر سابق، ص ٢٠ والرأي لفريد ايار في كتابه: دراسات في الإعلام والحرب النفسية، ص ٧٣.

العاطفية، أما الحرب النفسية فهي توجه إلى العدو باعتباره طرفاً محارباً نقف معه على حافتي الصراع، وكل طرف يسعى لكسب النصر على الآخر، فإذا توجهت هذه الحرب إلى المجتمع أو الفرد الذي تنشأ منه فهي ليست حرباً نفسية بل تصبح آنذاك دعاية أو إعلاماً أو تثقيفاً وغيرها، وذلك حسب الهدف المطلوب منها تحقيقه.

ومن هنا يتبين لنا عدم دقة رأي الذين لم يفرقوا في الهدف بين الدعاية والحرب النفسية، فالدعاية يمكن أن تكون أداة من أدوات الحرب النفسية أو إحدى وسائلها، ولكن ليست هي الحرب النفسية . (الحرب النفسية ليست هي الدعاية على ما بينهما من مفاهيم متقاربة، وإنما هي ذلك العمل الموجه إلى العدو وإلى معنوياته وتماسكه وعزيمته، والقادر على الدخول إلى المجالات كافة في خدمة ايدولوجيا معينة أو ضمن إطار استراتيجية دفاعية أو ضمن صدام أو أزمة معينة أو في خلال الحرب الباردة)^(١).

ويرى الدكتور حامد ربيع : (وعلينا أن نتذكر أن الحرب النفسية في جوهرها هي إعلام خارجي من حيث المصدر، بل وكذلك من حيث المضمون لأنها لا تتجه إلى المجتمع الذي تصدر منه، وأن هدفها المجتمع المعادي الذي يقف من مصدر الحرب النفسية موقف التربص والسعي إلى الاستئصال أو على الأقل التطويع)^(٢).

إلا أن هدف الحرب النفسية لم يعد محدوداً إلى هذا الحد، فلم يعد مقتصرأ على دعم ومؤازرة العمليات العسكرية، بل اتسع إلى آفاق أكثر من ذلك بكثير فلم تعد إثارة الارتباك في صفوف العدو أو دفعه لفقدان الثقة في قدراته، أو حتى ما يمهد للسيطرة عليه، لقد أصبح (هدف الحرب النفسية ضد عدو واحد يقوم على :

(١) عيسى محمد عيسى ، مصدر سابق ، ص ١٤ ، والرأي مأخوذ من : الدكتور أحمد نوفل، الحرب النفسية بيننا وبين العدو الإسرائيلي، عمان، دار الفرقان، ١٩٨٧، ص ١٢.

(٢) د. حامد ربيع ، مصدر سابق ، ص ٢٩

وبهذا المعنى فإن الدعاية يمكن لها أن تستخدم ضد العدو كما أنها قد توجه إلى المجتمع الصديق أو المساند كونها تستند في خطابها إلى المنطق والمصارحة عبر طريقة الإثارة.

أولاً: تحطيم أخلاقه، وثانياً: إرباك نظراته السياسية ودفن كافة معتقداته ومثله التي يؤمن بها، وثالثاً: البدء بإعطائه الدروس الجديدة التي نود إعطاءها له ليصار بالتالي إلى أن يعتقد بما نعتقد به نحن^(١).

وهذا يعني أن الحرب النفسية ولأهمية وخطورة هذا الهدف فلا بد من ضرورة خضوعها للتخطيط والبرمجة وتحديد الهدف، فإن التخطيط لشن الحرب النفسية هو مهمة قومية يجب أن تتعاون لأجل إنجاحها معظم أجهزة الدولة.

كما أن هناك اختلافاً بالتأكيد بين طبيعة الهدف المرحلي وبين الهدف بعيد المدى، فما طرح من أهداف للحرب الباردة يختلف قطعاً عن هدف الحرب النفسية في حرب تصاحبها صدامات عسكرية أو تمتاز بكونها محدودة الهدف.

فالتخطيط لشن الحرب النفسية بكل تفاصيلها: المقدمات، الآليات، وسائل التنفيذ، جهات التنفيذ، الرسائل المختارة، زمان ومكان التنفيذ، احتمالات النجاح أو الفشل، خطوة مهمة جداً ولا بد منها في الوصول إلى تحقيق الأهداف المنشودة من هذه الحرب، وبين إقرار الخطة النهائية وبين دراسة تحقق الأهداف المرسومة، تقع مراحل التنفيذ المتفق عليه في الحرب النفسية:

(١) - مرحلة بلبلة الأفكار.

٢ - مرحلة الإخلال بالأمن.

(١) عيسى محمد عيسى، مصدر سابق، ص ١٩.

٣- مرحلة خلق عدم التماسك في الجسد القومي.

٤- مرحلة تفتيت الوحدة الوطنية ^(١).

إن أهداف الحرب النفسية تلتقي حول مرتكزات عامة أدقها : (هدف الحرب النفسية هو عقل الإنسان ونفسيته) ^(٢).

وأوسعها : (إحداث الثغرات والضعف في الجبهة الجماهيرية عن طريق إحداث التغيير والمطاوعة في الإنسان ومبادئه واتجاهاته) ^(٣).

وما بينهما عدد من المحددات والمرتكزات التي حددت على أنها أهداف عامة للحرب النفسية وأهمها:

أولاً: زعزعة قناعة العدو بقضيته ومواقفه وأهدافه، بإثبات أنها مستحيلة التحقق وتضخيم أخطائه التي تقع منه في هذا المجال.

ثانياً: بث اليأس من النصر في نفوس القوات المعادية بإرباك قواه المعنوية، وتشكيك أفرادها في إمكانية تحقيق النصر.

ثالثاً: بذل الجهود في محاولة تغيير الفكر والاتجاه والقيم والمعتقدات بحيث يحدث ذلك خللاً وإرباكاً في الولاء للتقديم تحت ضغط الوافد الجديد من الأفكار.

رابعاً: تشجيع أفراد القوات المعادية على الاستسلام وذلك بمد آليات متبعة في هذا المجال بالنشرات والنداءات وغيرها.

خامساً: مخاطبة الجبهة الداخلية للعدو واستهدافها بغية إضعافها وإحداث

(١) د. حامد ربيع ، مصدر سابق، ص ٣٤٠.

(٢) صلاح نصر ، معركة الكلمة والمعتقد، مصدر سابق ، ص ١٥.

(٣) د. فخري الدباغ ، الحرب النفسية، مصدر سابق ، ص ٣.

الثغرات فيها أو اختراقها من ثغراتها القومية والعرقية والمذهبية وغيرها مما لها علاقة بالمستويات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

سادساً: تشكيك القاعدة الجماهيرية للعدو بقدرات وإخلاص قيادتها بفضح أخطائها ونشر الفضائح عنها وبث روح السخرية والنكته والاستهزاء بها، واستغلال أية نقطة تساهم في التشكيك برئاستها للمجتمع ومشروعية ذلك.

سابعاً: إضعاف المعنويات وكل ما يساهم في دفع العدو للصمود والتماسك النفسي ليحل محلها الخوف والقلق وعدم الثقة بقدراته الذاتية.

ثامناً: السعي إلى إرباك قادة العدو وصناع قراراته وقادة الرأي في مجتمعه، فإن هذه الفئة من مجتمع الخصم مهمة جداً في توفير الاطمئنان والسلامة لمن يتبعها من الجماهير فخلق الإرباك والفوضى في تفكيرها وقراراتها ينقل ذلك كله إلى الجمهور.

تاسعاً: إحداث الفرقة والانقسام في صورة الوحدة القومية والشعبية للعدو، وبذل الجهد في محاولة تفتيت العدو بكل ما يتيسر من الآليات والإمكانيات بحيث تصعب عودة العدو إلى صورة تلك الوحدة القومية مرة أخرى.

عاشراً: محاولة كسب العدو فكرياً، وتعزيز الانتصارات التي تحققت عليه بالإقناع والتبرير وتحويل الرأي وهذا يعني توفير البديل الفكري والنفسي والعقائدي لجمهور العدو فتبرز احتمالية اعتناق فكر المهاجم والعمل على ضوئه، ومن الضروري جداً هنا إقناع العدو بعدم جدوى المقاومة أو رفض خطط المهاجم وآلياته لأن ذلك لن يجدي نفعاً^(١).

(١) ينظر: عبدالله بن متعب بن ربيق، الإشاعة والحرب النفسية، مجلة الحرس الوطني السعودية،

عدد ٢٩٧، في ١/١/٢٠٠٧، وينظر: د. ماهر عباس جلال، الاستعمار النفسي في ثوبه الجديد، مجلة

البيان، عدد ١٦٣، ص ١١٩.

إن المتأمل في هذه الأهداف الشاملة للحرب النفسية بشكل عام يجد أنها آليات واردة لهذه الحرب في القرآن الكريم والسنة النبوية وقد حث كل منهما بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة على تحقيق هذه الأهداف لإيقاع أكبر خسارة ممكنة بالصف المعادي الذي هو قطعاً عد كذلك لمحاربتة الإسلام في أحكامه أو عقيدته أو مصادره أو أتباعه.

ففي باب زعزعة قناعة العدو بأفكاره وعقائده رسم القرآن الكريم صورة واضحة متكاملة عن الخسارة الكبرى والضلال المبين الذي ينتظر من كفر بالله ورسوله وسعى في الأرض خراباً. قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٥٥] الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْوَةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ [٥٦] فَإِنَّمَا تَتَّفِقَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهِمْ مَن خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكُرُونَ [٥٧] [الأنفال: ٥٥-٥٧].

وعمل المصطفى ﷺ على زعزعة أفكار المشركين وعقائدهم في أكثر من مناسبة منها الحوار المباشر الذي جرى بعد انتهاء معركة احد، وكذلك مناسبات الجدل والمناوشات الكلامية في أكثر من مناسبة والتي جرى فيه تسفيه عقائد المشركين وأهل الكتاب وتحطيم الأصنام التي يعتقدون بها.

وفي باب تمزيق معنويات العدو وتفريق صفهم أرسل رسول الله ﷺ الصحابي (نعيم بن مسعود) وكان قد أسلم من دون علم قومه إلى معسكر الأحزاب في معركة الخندق فدخل بينهم مشككاً قريش بنية اليهود زارعاً الشك في نفوس أولئك أيضاً حتى عم الخلاف فانصرفوا وافترقوا. وفي استهداف القادة ورموز الكفار وأولياء أمورهم حرص القرآن الكريم على قتالهم وتسفيه آرائهم وشخصياتهم فقلل من

شانهم كثيراً قال تعالى: ﴿لَا يُقْبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ (١٠).
[التوبة: ١٠].

وقال تعالى في تحقير شأن أبي جهل وهو من أبرز قادة المشركين: ﴿لَا تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ كُلَّ لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ (١٥) نَاصِيَةُ كَذِبِهِ خَاطِفَةٌ (١٦) فَلَيَدْعُو نَادِيَهُ. (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كُلَّا لَا تَطْعَمُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿١٩﴾ [العلق: ١٤-١٩].

واستهدف رسول الله ﷺ أبا سفيان في فتح مكة بأن أوقفه في مكان مرت أمامه كتائب المسلمين فوق الرعب في قلبه وخارت قواه المعنوية. وكذلك أرسل المصطفى ﷺ الصحابي (محمد بن مسلمة) لاغتيال كعب من الأشراف اليهودي بعد أن جاهر بعداوته وإظهار أذاه للإسلام والمسلمين.

وفي باب تشتيت اجتماع صف العدو وتفريق صفوفهم أمر رسول الله ﷺ أصحابه بإظهار ما يقنع الخليس بن زبان (سيد الأحابيش) وقد أرسلته قریش لمفاوضة المسلمين قبيل صلح الحديبية، بأن المسلمين لم يأتوا مقاتلين بل قاصدين البيت الحرام فاقنع الرجل وكادت أن تحدث حرباً بين صفوف المشركين أنفسهم لاختلافهم في هدف اجتماعهم.

وهناك كثير من النصوص والشواهد في التعامل مع مفردات وصور وتطبيقات الحرب النفسية مما سنأتي عليها لاحقاً (إن شاء الله تعالى).

وقد سار على نهج القرآن والسنة في تطبيق الخطوط العريضة في الحرب النفسية وكيفية التعامل مع العدو قادة الفتح الإسلامي في معاركهم بمواجهة أقوى وأعنى الأعداء من الإمبراطوريات، فكان خالد بن الوليد من القادة الذين حاربوا بأكثر من أسلوب وطريقة، وكان يعتمد المباغنة ومفاجأة العدو حتى يترك خصمه حائراً في كيفية مراقبة تحركات جيشه أو ضبط تحركاته، وكان يدرك أن تمزيق الجيش المعادي

أجدى وأكثر نفعاً من الحصار والاحتلال.

وفي مجال نشر الرعب في صفوف العدو وإحداث أقصى ما يمكن من إرباك في حركته وصفوف قواته، كان المثنى بن حارثة الشيباني يمعن في نشر الرعب في صفوف الفرس ويربك حركتهم حتى يضطروا لنشر قواتهم في أكثر من مكان وكان يموه في حركته فيوهم بوجود جيشه في منطقة ثم يهاجم جيش العدو في منطقة أخرى.

واستهدف عمرو بن العاص قادة جيوش العدو في حربه النفسية فكان يواجههم بأسلوب يجرهم أمام جيوشهم، كما خاطب المقوقس في مصر عندما اتخذ النساء لتقوية معنويات جيشه، فأفشل عمرو بن العاص خطته عندما أرسل إليه أن هذه الطريقة وغيرها لن تفيدكم ما دمنا أفلسنا مخططات قائدكم الكبير قيصر^(١).

المطلب الثاني : أساليب الحرب النفسية

مرّ بنا أن الحرب النفسية ظاهرة ليست جديدة، بل هي قديمة قدم الحياة ذاتها ومعظم أساليبها كذلك إلا بعضها أو ما استجد من أدواتها وصورها الجديدة التي أتاحتها تطورات الحياة، خاصة التقدم الكبير الحاصل في وسائل الإعلام. وأساليب الحرب النفسية مختلفة، سنحاول في هذا المطلب التعرف عليها وكما يلي :

أولاً: الدعاية :

يعرفها الدكتور حامد ربيع بأنها: (عملية الإثارة النفسية ويقصد بها الوصول إلى تلاعب معين في المنطق فإذا بنا إزاء استجابة ما كان يمكن أن تحدث لو لم تحدث هذه الإثارة العاطفية، الدعاية بهذا المعنى لا تفترض سوى التلاعب بالمنطق كما تتجه إلى

(١) ينظر : د. أحمد نوفل الحرب النفسية من منظور إسلامي، الكتاب الثاني، ص ١٥٤ وما بعدها.

الصادق فإنها تتجه إلى غير الصديق^(١). والدعاية (استخدام مقصود للكلمة وترويج معلومات وآراء موضوعة وفق تخطيط معين بقصد التأثير على عقول ومشاعر وأعمال مجموعة معينة من البشر لغرض معين قد يكون عسكرياً أو اقتصادياً^(٢)). فالدعاية في معظم الأوقات والحملات مكشوفة المعالم تستهدف جميع أنماط وأشكال الحياة فقد تتناول بخطابها الحياة السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية وغيرها، فهي بهذا المعنى فن خطير وأسلوب مؤثر جداً في تحقيق الأهداف وقد زاد استخدامها وتأثيرها في العصر الحديث بشكل لافت للنظر^(٣).

والدعاية ضمن مفهوم الحرب النفسية أو كأداة لها مؤثرة جداً كما لو أنها تدرس أو تطبق باعتبارها خارج أساليب هذه الحرب : (إن الدعاية تؤثر على الأعصاب، إنها تطرح صوراً، ولا تكتفي بطرح هذه الصور بل إنها توجهها بعنف، ولكثرة تكرارها وإعادتها فإنها تعتقد بأنها قد أقنعت)^(٤).

والدعاية إقناع، وخطاب للعقل بغية تغيير قناعاته بشيء ما، ثم إحلال قناعة أخرى بدلاً عنها، ولذا فأي محاولة للتغيير في هذا الإطار بأسلوب الإكراه أو القوة فهي ليست من الدعاية، كما أنها تخاطب العاطفة وتستغلها للوصول بالمستهدف إلى

(١) د. حامد ربيع، مصدر سابق، ص ٣٣.

(٢) د. موسى زناد، مصدر سابق، ص ١٩.

(٣) ونتيجة هذا النشاط الدعائي الملحوظ قسمت الدعاية إلى قسمين:

أ- الدعاية الاستراتيجية: تكون موجهة ضد القوات المعادية أو المناطق التي قام العدو باحتلالها، وتعمل مع الخطط الحربية مستهدفة التوصل إلى أغراض موضوعية مدروسة، وفي فترات زمنية غير محددة.

ب- الدعاية التكتيكية: وهي التي ترتبط بميدان المعركة، ولها علاقة وثيقة بخطتها، وتوجه غالباً إلى خط معين ومحدود العدد من المتلقين، فهو موجهة لتدعيم تعليقات حربية محلية. (ينظر: د. محمد عبدالقادر حاتم، مصدر سابق، ص ١٨٧).

(٤) جان غيتون، ترجمة الهيثم الأيوبي و أكرم ديري، مصدر سابق، ص ٣٤.

النتيجة المطلوبة، وهذا لا يعني إلغاء دور العقل . وكثيراً ما تعمل الدعاية في إطار تحقيق الإقناع المطلوب إلى مناقشة الآراء التي تريد مواجهتها بشكل لا يثير الريبة أو ردود الأفعال المعاكسة، ثم تبدأ مرحلة طرح الأفكار الجديدة بصورة غير مباشرة، فتنزوي الأفكار المستهدفة إلى زوايا النسيان، وكل ذلك يجب أن يتم التعامل معه بحذر وذكاء ومهنية.

لقد تعرضت الدعوة الإسلامية منذ بزوغ فجرها وحتى اليوم إلى دعاية قوية ومتلاحقة هدفت إلى التشكيك بالقرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ وبالإسلام ديناً ومنهج حياة، فمنذ اليوم الذي جهر به الرسول بالدعوة تصدى له المشركون بالتشويه والصد في حملة دعائية اتخذت لها ألفاظاً وشعارات لتحقيق هذه الغاية فقالوا عنه : ساحر، كاهن، مجنون، شاعر، كذاب وغيرها من الألفاظ التي قصدوا بها تشويه سيرته وسمعته ودعوته ﷺ قال تعالى : ﴿ وَجَبَّوْا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ① ﴾ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ② وَأَنْطَلَقْنَا لَكُمْ مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا وَأَصِيرُوا عَلَىٰ الْهَيْكَلِ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ③ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِهَةٍ الْأَخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَخْبَلٌ ④ ﴾ [ص ٤-٧]، وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ⑤ ﴾ [الجاثية : ٢٤] . وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرٌ ⑥ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ⑦ ﴾ [الفرقان : ٧-٨] .

فلما ثبت المصطفى ﷺ على أمر دعوته وقرب موسم اجتماع العرب في مكة للحج، اتفقوا على تنظيم حملة الدعاية الموجهة ضد الإسلام وشخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - تحديداً . واجتمع زعماء قريش وكان من بينهم الوليد بن المغيرة فأقترح بعضهم أن يزعموا أن رسول الله ﷺ كاهن فقال الوليد: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمه الكاهن ولا سجعه، قالوا: فنقول: مجنون،

قال : ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، قالوا : فنقول : شاعر، قال ماهو بشاعر .. قالوا : فنقول : ساحر، قال ما هو بساحر، فقالوا : فما تقول : يا أبا عبد شمس (الوليد بن المغيرة) ؟ قال : إن اقرب القول فيه أن تقولوا : ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته، فاجمعوا رأيهم على ذلك .^(١) ومن هذا النص نفهم أن المشركين بدؤوا للتخطيط لدعاية منظمة ومتفق على سبل وأساليب تنفيذها لكي تحقق غرضها المقصود فلا تتحقق دعوة المسلمين إثرها في الناس، وقد تصدى لدعايتهم القرآن الكريم، قال تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا يَقُولُ كَآهِنٌ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ ۝ ﴾ [الحاقة : ٤١-٤٢] .

واستمروا يطعنون بالرسالة والقرآن والرسول ﷺ، والقرآن الكريم يفضح خططهم وأساليبهم، والمصطفى يعمل على تنفيذ خططهم ودعايتهم والرد عليها. وبعد هجرة النبي ﷺ زادت هذه الدعاية والحرب النفسية الموجهة إلى الإسلام والمسلمين بإضافة أعداء جدد هم : اليهود وأهل النفاق، إضافة إلى مشركي قريش، ففي باب التهوين من شأن القرآن، وتقليل أثره على النفوس صور القرآن الكريم قولهم : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ ﴾ [التوبة : ١٢٤] .

قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ۝ ﴾ [التوبة : ٥٨] .

ولم يفوت الله تعالى أمر الرد عليهم وفضح نفاقهم وحقدهم على الإسلام بما كان ينزل من آيات مباركات : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُم إِلَّا خَبَالًا وَلَا تُضَعُوهَا عَلَيْكُم يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْظَّالِمِينَ ۝ ﴾ [التوبة : ٢٧] لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَكَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُوا ۝ ﴾ [التوبة : ٤٧-٤٨] .

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٩٣) .

وهكذا استمرت معركة الدعاية بين المسلمين وأعدائهم حتى نصر الله تعالى دينه القويم وتنوعت فنون وخطط وآليات الدعاية حتى وقتنا الحاضر، وما وصلت إليه الآن من فنون وأنواع من الخطاب جديدة ومختلفة.

هذا مختصر نرجو أن يكون وافياً عن الدعاية في إطار كونها أداة من أدوات الحرب النفسية، وإلا فما يكتب عنها في إطارها العام أكثر من هذا.

ثانياً : الإشاعة

وتعد من أخطر أساليب الحرب النفسية وأوسعها انتشاراً لسهولة تطبيقها وسرعة انتشارها وتحقيق النجاح في هدفها المقصود من ورائها، وعرفت الإشاعة بأنها : (كل قضية أو عبارة مقدمة للتصديق، تتناقل من شخص إلى شخص، دون أن تكون لها معايير أكيدة للصدق)^(١).

وتعرف أيضاً على أنها (اصطلاح يطلق على رأي موضوعي معين كي يؤمن به من يسمعه، وهي تنتقل عادة من شخص إلى آخر عن طريق الكلمة الشفهية دون أن يتطلب ذلك مستوى من البرهان والدليل)^(٢).

واهم مواصفات الإشاعة هي:

١- أنها تنتقل بالكلمة المسموعة أو الاتصال المواجهي، فالإشاعة يمكن أن تولد وتنتشر من دون الاستعانة بوسائل الاتصال الجماهيري على الرغم من أنها قد تسهم في انتشارها.

٢- الإشاعة تعبير عن حالة من الكبت النفسي في الذات البشرية، تنتج عنها عملية

(١) د. أحمد نوفل، الإشاعة، دار الفرقان، الأردن، ١٩٩٨، ط ٤، ص ١٥، والتعريف لـ (وليم اولبرت).

(٢) ينظر: كامل علوان الزبيدي، علم النفس في الميدان العسكري، مصدر سابق، ص ٨٢.

قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، قَالُوا يَمْرُؤُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ ﴿مريم: ٢٧﴾.

والله تعالى تولى تنفيذ هذه الإشاعة بإنطاق عيسى عليه السلام .

أما رسول الله ﷺ فقد واجه من الإشاعات الشيء الكثير، فكانوا يؤلفون هذه الأقاويل والأفعال ويؤولون تصرفاته وأفعاله بما يجعل أي منها إشاعة ضده لتشويه سمعته واتهامه بأقسى الاتهامات، فأشاعوا انه تلقى القرآن الذي يدعو ويتعبد به من أقوام أخرى أو من الجن أو غيرهم فيرد إشاعتهم القرآن الكريم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأَنذَرْتُكُمْ سُورَةَ الْمُنَافِقِينَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

وأقوى إشاعة أطلقت ضد الرسول ﷺ بل في تاريخ الدعوة كلها هي الطعن في أم المؤمنين، زوجته عائشة رضي الله عنها في حادثة الإفك التي بقي من اهتز إيمانه وتأثر بالمنافقين يلوك بهذه الإشاعة المفتراة شهراً حتى أنزل الله تعالى فيها قرآناً موضحاً القضية وأحكامها ودروسها التي يجب أن يستفيد منها المجتمع الإسلامي كثيراً. وسيرد تفصيل ذلك -إن شاء الله- في مبحث الحرب النفسية في السنة النبوية .

بل لاحقت الإشاعات رسول الله ﷺ في ميدان المعارك التي خاضها، ففي معركة أحد وقد مال جانب النصر العسكري إلى جهة المشركين وأصاب الاضطراب جيش المسلمين، صاح المشركون: (قتل محمد) وكادت الإشاعة أن تقضي على صف المسلمين تماماً لولا حكمته ﷺ حيث أعلن وجوده ومقاومته للكفر، الأمر الذي يؤكد أهمية وسرعة مقاومة الإشاعة حال ولادتها^(١).

ومن موجبات عمل الإشاعة (تدمير القوى المعنوية وتفتيتها، وبث الشقاق والعداء وعدم الثقة والإرهاب والرعب في النفوس)^(٢).

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/ ٨١)

(٢) د. حامد عبد السلام زهران ، مصدر سابق، ص ٤٠٢.

ولهذا فهي ركن أساسي وأداة مهمة من أدوات الحرب النفسية، بل لا تكاد تستغني عنها أية حرب نفسية في أوقات السلم أو الحرب، بل حتى في أوقات المواجهة المباشرة مع العدو في الميدان فإن الإشاعة لها دور مهم في تفتيت جبهة العدو عن طريق استخدام الطابور الخامس (الجواسيس) أو وسائل الاتصال الأخرى كالإذاعات والمنشورات بهدف تفتيت المقابل أو للحط من مصادر أنباء العدو أو تستخدم كمصيدة لسحب العدو إلى تصريحات أو أفعال تخدم المصدر للإشاعة. (وهناك أنواع عديدة من الشائعات تستخدم في إطار الحرب النفسية ومن أبرزها : شائعات الخوف والإشاعات الراجية أو الحاملة والإشاعات الداقة الأسافين وجميعها تسهم في تمزيق جبهة الخصم وتحطيم وحدته ومن ثم تحطيم إرادته، وبما أن للدعاية تكتيكها الخاص فإن للشائعة كذلك تكتيكها الذي يعتمد على قوانين أهمها :قانون التغيير والتشويه وقانون التضخيم والمبالغة وقانون التنسيق^(١).

ثالثاً، الضغط الاقتصادي،

نقف عند هذا الأسلوب من أساليب الحرب النفسية في السنوات الأولى من الدعوة الإسلامية وفي مرحلتها المكية والمدنية، ففي مكة وقد فشلت دعايات قريش وحربها النفسية والفعلية في صد المسلمين الأوائل عن تمسكهم بهذا الدين لجأت إلى حصار (بني عبد المطلب) وهم خاصة رسول الله ﷺ العشائرية مع نفر من المسلمين الأوائل في شعب بني طالب، حصاراً اقتصادياً قاسياً استمر ثلاث سنوات للتأثير عليهم ودفعهم لمفارقة الرسول -عليه الصلاة والسلام - أو بدفعه لترك دعوته. وقد عانى المسلمون من هذا الحصار معاناة شديدة، وباعتراض نفر من المشركين عليه أسقطوا الحصار.^(٢)

(١) د. حامد ربيع، مصدر سابق ص ٣١٠ وما بعدها.

(٢) ابن القيم، زاد المعاد (٤٦/٢)

وفي المرحلة المدنية من الدعوة الإسلامية، حين تمت السيطرة للمسلمين على المدينة المنورة وما يحيط بها، وضع المسلمون نصب أعينهم الطريق التجاري الذي كان يغذي مشركي مكة بتجارته، فاعترضوه أكثر من مرة مهددين قوافل قريش التي كانت تمر من هناك قريباً من المدينة حتى أحس المشركون بعظم الخطر الذي يمثله قطع هذا الطريق أو منع تجارتهم نهائياً أو مصادرة أموالهم المارة، فهذا يعني ضرب اقتصادهم الذي يعتمد على قوافل التجارة ضربة رئيسية ولن يفيقوا بعدها إلا وقد أصابهم الجوع والدمار^(١) بل إن معركة بدر ذاتها لم يكن مخططاً لها، لولا إرادة المولى تعالى، فقد خرج المسلمون لاعتراض قافلة تجارية لقريش، فعلم المشركون بذلك فخرجوا لحماية أموالهم، وقضى الله أمراً بالقتال المباشر كان مقدراً في علمه : ﴿ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهِنَّ لَكُمْ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۖ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلِتُزْكَرَ الْمُجْرِمُونَ (٨) ﴾ [الأنفال: ٧-٨].

لا خلاف في أن الاقتصاد يمثل الشريان الرئيسي لحياة أية دولة ويعد عنصراً حاسماً من عناصر القوة أو الضعف، وتزداد أهميته وخطورة العبث به والسيطرة عليه أوقات الحرب. ذلك إن قناعات المجتمع تكون عرضة للاهتزاز السريع وغير المنضبط مع اندلاع أول رصاصة في القتال الحقيقي، وذلك ببرز عوامل: الغذاء والأمن وغيرها. ولذلك تحاول الدول في حربها النفسية وضع اقتصاد خصمها تحت رحمة سياستها، وإثارة المتاعب أمامه في هذا الجانب وصولاً إلى إجباره على الرضوخ لظروف أو شروط معينة^(٢). وتمارس الضغوط الاقتصادية بأنماط وطرق مختلفة في

(١) ينظر: الصلابي، السيرة النبوية، ص ٣٦٢

(٢) ينظر: الدكتور أحمد ثابت، التمويل الأجنبي وخطر التوجه للخارج، مجلة المنار الجديد، ع ٩، ٢٠٠٠، ص ٧٤ وما بعدها.

عالمنا اليوم أهمها: احتكار الصناعات المهمة والحيوية لديمومة الحياة، أو بالسيطرة على موارد الطاقة في العالم مما يجعل الأطراف الأخرى خاضعة لسيطرتها، وكذلك محاولات الاستيلاء على ثروات الدول الضعيفة أو بمحاربتها اقتصادياً فلا تجد منفذاً لتسويقها فيذبل اقتصادها ويحدث الارتباك والخذلان في معنويات مجتمعاتها، وهذا في حالات الحرب النفسية التي لم تصل بعد إلى درجة الصراع الحقيقي المباشر. (أما الدول التي تخضع تحت الاحتلال فلها أساليب أخرى منها: ربط اقتصاديات هذه المناطق باقتصاد الدولة المحتلة وتذويب هذه المناطق ومرافقها الاقتصادية الأخرى)^(١).

رابعاً: المناورات السياسية :

وهي من أساليب الحرب النفسية المعروفة والقديمة وتبرز فاعليتها أوقات السلم خاصة ويتخذ هذا الأسلوب مظاهر متعددة منها: التهديد المستمر بالحرب وإنشاء الأحلاف العسكرية والمناورات العسكرية وتحريك الأساطيل البحرية قرب مناطق معينة والاستمرار بتنفيذ برامج التجارب النووية والتلويح باستخدام أسلحة التدمير الشامل والنشاط الدبلوماسي، والتصريحات الاستفزازية وغير ذلك من أساليب^(٢).

ويؤدي هذا الأسلوب دوراً فاعلاً في إخضاع الخصم إلى حرب نفسية قوية، مسببة له الخضوع لمناورات الطرف القوي أو يضعف موقفه العام على صعيد الداخل والخارج.

لقد أولى رسول الله ﷺ أسلوب التعامل السياسي لإخضاع العدو إلى حالة من التشتت والتمزق وتفرقة الصف والكلمة عناية فائقة، وما بيعة العقبة الأولى والثانية

(١) د. هيثم عبد السلام، مصدر سابق، ص ١٢٧.

(٢) ينظر: الدكتور فاضل زكي، الدبلوماسية والدعاية في عصر الذرة، مجلة الجامعة المستنصرية، ع ٥،

إلا محاولة دعوية وسياسية في آن واحد لتشكيل (جماعة إسناد) أو (حلف) مستقبلي يضعف من جبهة المشركين التي تبدو موحدة في الظاهر على حرب الإسلام والمسلمين، وفي المدينة المنورة أخضع ﷺ فصائل اليهود وأهل الكتاب والمنافقين إلى القيادة الإسلامية السياسية، فلا يستطيع أي طرف منهم عقد اتفاقية تخص المدينة المنورة إلا بالعودة إلى موافقة المسلمين على ذلك، وحالف رسول الله ﷺ قبائل اليهود في المدينة كل قبيلة منها بحلف خاص وشروط تختلف عن البقية لضمان عدم اتحاد العدو سياسياً في جبهة واحدة، وما رسائل المصطفى ﷺ إلى دول الجوار الإسلامي وملوكهم إلا خطوة متقدمة في العلاقات الدولية التي تتضح منها الحنكة السياسية وتقوية الدولة المسلمة الناشئة على حساب إضعاف المشركين وأعداء الإسلام.^(١) إن أسلوب المناورات السياسية باتخاذ طريقة الأحلاف السياسية والعسكرية أو التلويح بالسلح النووي وغيره تختلط أحياناً بمفاهيم إثارة الذعر والرعب ولكنها تلتقي جميعاً في كونها من أدوات الحرب النفسية المؤثرة والمحققة لأهدافها.

خامساً: غسل الدماغ؛

وتعرف على أنها (كل محاولة للسيطرة على العقل البشري، وتوجيهه لغايات مرسومة بعد أن يجرد من ذخيرته ومعلوماته ومبادئه السابقة)^(٢).

فهي تعني أسلوباً من أساليب التعامل النفسي يستهدف شخصية الإنسان، بمعنى نقل الشخصية المتكاملة أو ما في حكم المتكاملة إلى حد التمزق العنيف وفقدان الثقة بما كان يملك من قناعات وأفكار وعقائد، وعند الوصول إلى هذه الحالة يصبح الإنسان المستهدف مجرد إرادة خاضعة للطرف المقابل ويكون أرضاً خصبة لزرع

(١) ينظر: د. البوطي، فقه السيرة، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٨، ص ١٢٣.

(٢) ينظر: د. فخري الدباغ، غسيل الدماغ، المؤسسة اللبنانية للنشر، ١٩٧٠، ص ١١.

الأفكار الجديدة التي كان يرفضها ولا يأخذ بها في حالته النفسية أو العقائدية المستقرة السابقة. (وللحرب الدماغية آلاتها وفنونها وأحاييلها، وقد كانت تلك الوسائل والفنون تجريبية وعفوية في القرون الغابرة فأصبحت الآن بفضل العلوم النفسية والفسيولوجية أصبحت تقنية منسقة ومخططة وعرضه للدرس والتغيير والتطوير المستمر)^(١).

ويبدو من المفهوم العام لمعنى عملية غسل الدماغ أنها ذات طبيعة فردية فهي توجه إلى الأفراد الخصوم فرداً فرداً لإحداث هذا الاضطراب السلوكي والعقائدي والنفسي ثم تبدأ عملية التحول إلى النمط الذهني والسلوكي والعقائدي الجديد الذي يراد لهذا الشخص الخاضع لعملية غسل الدماغ اعتناقه والعمل ضمن إطاره. وهذا صحيح إلى حد كبير، إلا أن تطور وسائل وأدوات الاتصال الجماهيري وتطور فنون الحرب النفسية الحديثة واتساع أدواتها جعل من عملية توجيه غسل الدماغ إلى مجتمع عام مستهدف ممكناً وفعالاً إلى حد يستطيع الطرف القائم بعملية توجيه الهجوم أن يضمن نسبة جيدة من النجاح المؤكد في مسعاه، لقد أصبح بمتناول يد أي طرف متمكن من أدوات وشن عمليات غسل الدماغ تنويع طريقة تعامله مع (الضحية) وهو الشخص الفرد أو المجتمع المستهدف من خلال استخدام الدعاية وهي خاضعة بدورها إلى التطور وتجديد أساليبها باستمرار، وكذلك عن طريق استغلال القيم أو الأعراف أو المفاهيم النفسية للخصم، ويمكنه كذلك استغلال عوامل إثارة الرعب أو القمع أو الإرهاب في مختلف صورته^(٢).

وتقوم عملية غسل الدماغ على إجراءات وخطوات فنية مختلفة يستخدم بعضها

(١) د. فخري الدباغ، غسل الدماغ، ص ٨٧.

(٢) ينظر: كامل علوان الزبيدي، علم النفس في الميدان العسكري، بيروت، ١٩٨٨، ط ١، ص ٩١ وما

بصورة مستقلة أو ربما يكمل بعضها الآخر، وأحياناً تتبع طريقة بعد أخرى لإحداث الأثر المطلوب، وتبدأ غالباً هذه السلسلة من الإجراءات بتحقيق السيطرة الكاملة على الشخص المستهدف ثم إجباره أو إقناعه على الإحساس بعدم الالتئام إلى ما كان ينتمي إليه، أي إشعاره بالضيق والشك بما كان يعتقد ويعتق من عقائد أو أفكار ثم يتم عزله وتعذيبه إلى مرحلة الإنهاك الجسدي، إضافة إلى تحقيره نفسياً وشعورياً، ويتم إلصاق التهم به وتكرار ذلك حتى يبدأ الضحية بالاعتقاد الجازم بأنه فعلاً مرتكب لهذا الفعل وعند ذاك يبدأ بتصديق أي اتهام يوجه إليه فتتحول الجرائم (الزائفة) في ذهنه إلى حقيقة واقعة أو أشبه بذلك، قبل أن تتبلور هذه الإجراءات في خطوة تسبق انضمام الضحية إلى فكر وعقيدة وسلوك المهاجم كلياً وهي مرحلة الإحساس والشعور بالذنب تجاه الطرف الآخر (القائم) بعملية غسل الدماغ^(١).

وإذا كانت هذه هي صورة التعامل مع الفرد في عملية غسل الدماغ، فإن العملية نفسها ضمن إطار التعامل مع الشعوب تتخذ أبعاداً أخرى تضمن للقائم بخوضها وتوجيهها النجاح الذي يريده أو بدرجة قريبة من ذلك. (إن غسيل الدماغ يتم ويمارس على الجماهير، متتبعين ومستخدمين الأساليب نفسها التي تستخدم على المستوى الفردي، ذلك لأن العالم يشهد الآن كثيراً من الجهات التي تخطط إعلامياً للتأثير على الشعوب وعلى أنماط تفكيرها أو انتماؤها لفكر معين، مما يمكن تسميته بعمليات غسيل الدماغ الجماعي)^(٢).

ويبدو من هذا النص ومن سياق التطورات التي تخضع لها ظاهرة الحرب النفسية في العصر الحديث أنها تجدد أدواتها ووسائلها تبعاً للأحداث وتعاقب الأزمان أو تغير الأمكنة أو القضايا الرئيسة التي يراد تعريضها لعملية غسل الدماغ، بل إن جهات ودولاً مختلفة

(١) ينظر: لقاء مكّي شفيق، مصدر سابق، ص ٣٢.

(٢) د. وفاء مرسي، الإعلام الرشيد وحماية الدماغ من الغسيل، مجلة الدفاع، عدد ١٣٢ في ١/١/٢٠٠٣.

تجدد باستمرار وسائل وطرق تعاملها مع الشعوب المستهدفة للوصول بها إلى أقصى ما يمكن من درجة الإتياع لها والتخلي عن تاريخها . (حيث لجأت الدول التي تمارس الهجوم عبر الحملات الإعلامية الدعائية النفسية المعادية والغزو الثقافي وغسيل الدماغ الجماهيري والتخريب الفكري والتشويه الحضاري لجأت هذه الجهات إلى استخدام تقنيات وآليات عمل غسيل الدماغ، ولكن بتطبيقها هذه المرة على الشعوب)^(١).

لقد تم عبر آليات وطرق وممارسات معروفة وشائعة تؤدي بالنتيجة إلى تطبيق هذه العملية، التي غالباً ما تحدث من دون أن تشعر الشعوب المستهدفة بأنها تعرضت إلى عملية غسيل دماغ: مثل أساليب العزل والحرمان والحصار والغزو الفكري وتهميش الوجود والأدوار وقد يتم ذلك بأساليب التهديد والخوف وإثارة الرعب، ويتعدى الأمر أحياناً للوصول إلى الهدف المطلوب، شن حروب مباشرة لفرض إرادتها بالقوة وهذا يشبه أسلوب معاقبة الفرد المتبعة في عملية غسيل الدماغ على مستوى الأفراد.

إن ما يطلق عليه اليوم من غزو فكري وثقافي وإعلامي، هو حرب نفسية موجهة عبر وسائل الإعلام ومناهج التربية والتعليم والمناورات السياسية، يمثل عملية واسعة من غسيل الدماغ الجماعي أو الموجه إلى أمة كاملة أو في محاولة لإجبارها على السير في منوال معين يراد لها السير فيه . (وعماد هذا الغزو الفكر والثقافة، وشعاره التنوير والتمدن وهو لا يحدث فجأة بل يمر بمراحل متدرجة بخفاء ومكر شديدين، بدءاً من الصدمة الفكرية الثقافية حيث تسبح الشعوب العربية والإسلامية في تيار هذا الغزو يومياً بغرض إحداث عملية -غسيل مخ- للأفكار والثقافة العربية الإسلامية)^(٢).

وما أهداف العولمة الشاملة الموجهة من الغرب لمسح هوية وخصوصية الآخر، إلا

(١) د. وفاء مرسي، الإعلام الرشيد وحماية الدماغ من الغسيل، مجلة الدفاع، عدد ١٣٢ في ١/١/٢٠٠٣.

(٢) د. ماهر عباس جلال، الاستعمار النفسي في ثوبه الجديد، مجلة البيان، عدد ١٦٣، ص ١١٩.

أبرز مثال حي وفاعل في هذا الإطار.

سادساً : هناك أساليب أخرى من أساليب الحرب النفسية :

استخدمت هذه الأساليب وما زالت ممكنة الاستخدام للتأثير في معنويات العدو، إلا أنها ليست بذاك التأثير القوي الذي تحدثه الأساليب أعلاه وأبرزها الردع وإثارة الذعر، ولهذا سنلقي على هذين المصطلحين بعض الضوء للتعرف على ما يعنيه كل منهما :

١- الردع : ويكون العمل بهذا الأسلوب ضمن مفاهيم الحرب النفسية من خلال التلويح بالقوة أو باستخدامها أحياناً لتحقيق أهداف الإعلان السافر عن التهديد ويحاول هذا الأسلوب الحصول على نتيجة نفسية أكثر من سعيه لتدمير مؤسسات العدو. ويعرف الردع بأنه : (محاولة التأثير النفسي على صناع القرار في الدولة الخصم بإشعارهم بان الأضرار التي ستلحق بهم أعلى من النتائج التي يحصلون عليها نتيجة قيامهم بعمل غير مرغوب)^(١).

ويمتاز أسلوب الردع بأنه يربط دائماً في إعلام العدو بأن هذا الردع المعلن، فيه نوع من الإشارة أو التهديد بالرد النووي أو بالسلاح التقليدي وذلك ضمن ما تسمح به آليات الكتمان العسكري وما يسمح به نظام الدولة من إظهار القوة المسلحة أو إخفائها^(٢). ولم تخل السيرة النبوية المطهرة من استخدام هذا الأسلوب لردع العدو عن المقاومة وأبرزها ما حدث في فتح مكة حين أوقف رسول الله ﷺ أبا سفيان على رأس أقرب طريق دخولاً إلى مكة لتمر أمامه كتائب المسلمين واحدة بعد أخرى فهات لديه

(١) عبد اللطيف علي حسين المياح، الردع في السياسة الخارجية، رسالة ماجستير، معهد الدراسات القومية والاشتراكية، الجامعة المستنصرية، بغداد، ١٩٨٦، ص ٤٦.

(٢) ينظر : لقاء مكّي العزاوي، رسالة ماجستير، ، مصدر سابق، ص ٣٠.

ثم انتقلت إلى بقية سكان مكة أية رغبة بالمقاومة لتأثير أسلوب الردع في تحقيق غرضه وخنق أي محاولة للتصدي للمسلمين^(١).

٢- إثارة الذعر : ويعرف بأنه (شعور يقوم على حادث شاذ أو هو سلوك يختلف عن الأنماط السلوكية المعتادة للنشاط الإنساني .. أي أن الذعر سلوك يثير المشاعر العميقة التي هي أساس الإنسان في مجتمعه)^(٢).

فهو بهذا التعريف يشبه ما ورد في القرآن الكريم في سورة الفيل حين أرسل الله تعالى (طيوراً أبابيل) رمت جيش الكفار بقيادة (أبرهة الحبشي) بحجارة كان فيها هلاكهم فأثارت تفاصيل الحادثة الرعب في نفوسهم المهاجمين من التعرض إلى بيت الله تعالى .

وتقوم معظم عمليات إثارة الذعر على استغلال غرائز الخوف والفرع واستثمارها في إرهاب الخصم لتحقيق الانتصار عليه، مثل عمليات التخريب الداخلي أو إطلاق الإشاعات المروعة أو اختلاق الدعاية أو الأخبار حول كوارث قادمة من أوبئة أو حوادث غامضة أو باستخدام طرق القتل الجماعي مما يؤدي إلى إثارة الذعر في صف العدو من الداخل وتخطيط معنوياته بشكل سريع^(٣).

(١) ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، (٦٢/٤).

(٢) أحمد طاهر، الإذاعة والسياسة الدولية، القاهرة الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٨٠، ص ٢٠٩.

(٣) ينظر: حسن الرشيد، حرب المعلومات الحرب القادمة، مجلة البيان، ع ١٦٦، أيلول ٢٠٠١، ص ٤٩.

المبحث الثاني: خطورة الحرب النفسية وطرق مقاومتها

المطلب الأول : خطورة الحرب النفسية

تطورت أدوات وأساليب الحرب النفسية تطوراً كبيراً في العصر الحديث واتضحت حدودها وأنواع التطبيقات الخاضعة لها، حتى إن تسميتها بهذا المصطلح ظهر في هذا العصر بعد أن اكتشف المراقبون والمعنيون شخصيتها المستقلة وأثرها في التعامل مع المجتمعات في أوقات السلم والحرب، وقد مر بنا أنها عرفت تعريفاً علمياً لأول مرة عام ١٩٤١ في ملحق معجم ويستر الجديد ثم أخذت أقسامها تتبلور وأدواتها حتى أصبحت علماً مستقلاً له علاقات وثيقة ببعض العلوم كعلم النفس وعلم الاجتماع والإدارة والاقتصاد وعلم السياسة وعلم القانون والإعلام وعلم الحرب وغيرها، وأسست لدراستها الأقسام والكليات في كل جامعات العالم بل أفردت لها أقسام خاصة ضمن مجال عمل المخابرات والمحاكم والعلاقات الدولية، فهي ظاهرة مرنة ومتسعة وتترك بصماتها على الكثير من نشاطات المجتمع في أي زمان ومكان.

لقد ساهمت التطورات الحاصلة في وسائل الاتصال وتحولها إلى جماهيرية ومؤثرة جداً في حياة الإنسان في إبراز أهمية الحرب النفسية، كما أن التقدم الكبير الحاصل في أسلحة الجيوش في العالم زاد من خطورة الآثار المترتبة عن أي حرب تنشأ وفي أي مكان في العالم، فالأسلحة الجرثومية والذرية والنووية بإمكانها أن تنهي الحياة على كوكب الأرض، الأمر الذي دفع إلى استخدام (استراتيجية) حربية لها التأثير نفسه على الإنسان أو أكثر من دون أن تنهي الحياة تماماً على الأرض. إذ الإنسان بالطبع هو المستهدف قطعاً بالحرب النفسية أو غيرها، أما وسائل الاتصال ودخول الانترنت والبلث الفضائي وابتكار رسائل إعلامية جديدة ومؤثرة في حياة المجتمع جعل الإنسان مدمناً عليها لمتابعة ما يجري في العالم، إلا أنه في مقابل ذلك عرض نفسه لخطر

الدعاية والإشاعات وغسيل الدماغ الجماعي والغزو الفكري، وكلها أدوات تؤدي دورها الفاعل في إطار الحرب النفسية. إن الصراع الدولي بين الكتل الكبيرة وبين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي والذي أدى إلى ظهور الحرب الباردة، ثم ظهور الأحلاف والتكتلات السياسية زاد هو الآخر من إمكانية وخطورة وأهمية استخدام الحرب النفسية على نطاق واسع فأخذت الأطراف المتنازعة تبتكر وتجدد في أساليب وأدوات هذه الحرب بحيث يؤثر كل طرف منها على الآخر أو ينتصر عليه انتصاراً يصبو إليه من دون أي يضطر لخوض قتال حقيقي معه.

ولهذا أصبحت الحرب النفسية مهمة جداً، ومن يمتلك أدواتها ووسائلها ويضمن قوة التأثير في المقابل عن طريقها فقد ضمن نسبة كبيرة من إمكانية إخضاع الخصم وتحقيق النصر عليه، وإذا كانت الحرب المعاصرة حرباً شاملة لاستخدامها أسلحة مختلفة ودخولها في ميادين مختلفة، فإن الحرب النفسية تحتل نسبة كبيرة وخطيرة من مساحة هذه الحرب الشاملة^(١).

إن الحرب العسكرية والحرب الاقتصادية، والحرب النفسية، تشكل معاً نوعاً من الحرب هو الحرب الشاملة. وتتصل هذه الأنواع الثلاثة من الحروب ببعضها البعض، بحيث يكون النجاح العسكري نصراً اقتصادياً إذا كانت نتيجته الاستيلاء على كميات كبيرة من موارد العدو أو سد طرق الإمداد المهمة له، وقد يكون كسباً سيكولوجياً إذا استطاع إن يخفض من معنويات العدو أو يجعل جنوده يتوقعون الهزيمة أو يهيب شعبي العدو للاستسلام والخضوع^(٢).

وقد أظهرت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) الأهمية القصوى للحرب النفسية، فأنشأت بريطانيا في بداية الحرب مكتباً للدعاية يرتبط بوزارة الخارجية وبدأ

(١) الدكتور عصام سليمان موسى، المدخل في الاتصال الجماهيري، الأردن، ١٩٨٦، ص ٢٢٦.

(٢) ينظر: اللواء الركن محمود شيت خطاب، الرسول القائد، ص ٦٥ وما بعدها.

عمله على الفور مستغلاً وسائل الاتصال المتوفرة آنذاك في ربط الخطوط الداخلية ببعضها وفي إدامة الاتصال بدول الحلفاء الأخرى، حتى شاعت دعايتهم بأن إجراءات الحلفاء وخطوات نصرهم قاطعة ولا يمكن هزيمتها.

وقابلتهم ألمانيا بحرب نفسية مضادة دفاعية وهجومية في آن واحد إلا أن الثقة الزائدة إلى درجة الغرور بقدراتهم أفضل مسار الدعاية الألمانية وجعلها أقل تأثيراً من دعاية الخصوم. مقابل ذلك أسست الولايات المتحدة وكالتين للدعاية والحرب النفسية الأولى عسكرية والثانية مدنية، لتقوية موقفها من الحرب ومن غيرها من قضايا الساعة آنذاك، أما الثورة البلشفية فقد منحت للكيان السوفيتي في ذلك الوقت دعماً كبيراً للدفاع عن نظريتها الماركسية الجديدة ورؤيتها للحياة، وبدأت الدعاية الشيوعية في الانتشار والتوسع حتى انضوى تحت لوائها عدد كبير من دول العالم^(١).

أما الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٤) فقد طغت فيها الدعاية الألمانية على أي نشاط آخر للحرب النفسية وظهر من رموز السياسيين الألمان من أبداع بالدعاية والتأثير بالخصم في إجراءات وتوجهات ما زالت حتى الآن دروساً ثمينة في هذا المجال، وقد كتب احد قادة المعسكر الألماني قبل اندلاع هذه الحرب (إننا يجب أن نصل إلى أجهزة تستهدف الإنسان بذاته وتمثل قدراته الذهنية والمعنوية) وقد نجحت الدعاية الألمانية (في الميدان السيكولوجي باستخدام -الذعر الكامل- وذلك بجعل الشعب الألماني نفسه يخشى من تصفية الشيوعية له، كما استخدمت أفلام عمليات أسلحة الحرب الخاطفة لإخافة الجماعات الحاكمة في دول أخرى ولتحطيم المعنويات، وتسبب عن ذلك ما يسمى (بالانقياس العصبي) للأمم وذلك بإبقائها دائماً في حالة شك وعدم تيقن مما يمكن أن يحدث لها غداً^(٢)). وقد اضطرت قوة الإشاعات اليابانية

(١) ينظر: الدكتور أحمد بدر، الاتصال بالجماهير والدعاية الدولية، ص ٢١٣ وما بعدها.

(٢) د، أحمد نوفل، الحرب النفسية، الكتاب الأول، ص ١٣٢.

في هذه الحرب القوات الأمريكية للاعتراف بحجم خسائرها، حيث قامت باستغلال الإذاعات لبث خسائر مبالغ فيها وتفاعل معها الشارع الأمريكي، مما اضطرهم للاعتراف بالرقم الحقيقي لهذه الخسائر وهذا ما كان يبحث عنه الخصم^(١).

وقد ساعد التطور التقني والتكنولوجي في وسائل الإعلام الحديث إلى إدخال مفردات وأنماط جديدة من التأثير في المجتمعات في إطار الحرب النفسية، وقد كانت الإذاعات السرية من أقوى الأسلحة المستخدمة في الحرب العالمية الثانية وما تلاها من سنوات في غمرة أحداث وصراعات دولية كثيرة. (أما الإذاعات السرية فإنها بدأت خلال الحرب العالمية الثانية حين اكتظت الأجواء الفضائية في أوروبا بالعديد من الإذاعات التي تشن حرباً نفسية ضارية ضد بعضها البعض)^(٢).

لقد اتضح جلياً للأذهان والأنظار إثناء الحرب الباردة وبعدها وحتى اليوم الأثر الكبير الذي تحققه الحرب النفسية في تحقيق النصر على العدو من دون أن تطلق ولو طلقة واحدة، فالحرب بلا سلاح تستطيع أن تدمر القوات والنفوس والمعدات، فالحرب الاقتصادية تحرم العدو من إمداداته وتمويله والإشاعات وغيرها من أساليب الحرب النفسية تحطم القوة المعنوية للخصم بعد أن تستهدف في المقاتل عقله وتفكيره وعواطفه فيفقد توازنه حتى يقترب تماماً من الهزيمة، وهذا ما دعا رومل القائد العسكري الألماني لقوله (القائد الناجح هو الذي يسيطر على عقول أعدائه قبل أبدانهم) ودفع تشرشل -رئيس وزراء بريطانيا آنذاك- للقول: (كثيراً ما غيرت الحرب النفسية وجه التاريخ) وقد بلغ تأثير هذه الحرب حداً أن تعلن دول وأمم

(١) ينظر، عبد الله بن متعب بن ربيق، الإشاعة والحرب النفسية، مجلة الحرس الوطني السعودية،

عدد ١٢٩٧ في ١/١/٢٠٠٧.

(٢) د. إبراهيم الداوقي، الإذاعات السرية والحرب النفسية الإذاعية الامبريالية، مجلة كلية الآداب، ع ٣٢،

آذار ١٩٨٢، ص ٧.

استسلامها لخصمها قبل أن تنطلق منه طلقة واحدة^(١).

وما زالت الحرب النفسية المعاصرة في تطور كبير وتجدد وتطور في أساليبها وأدواتها لتحقيق أهدافها المرسومة (إن الحرب النفسية وإن كانت تبدو على أشدها في حالات الحرب ولكن في فترة السلم لا تقل عنها خطورة إن لم تكن أخطر منها وأصبحت الحرب النفسية الشغل الشاغل للدول الكبرى بعد أن اتسع معناها ومداهما بحيث أصبحت تمثل حرب الدعاية والإعلام والحرب الباردة والحرب العقيدية والسياسية والتي تستهدف كلها تحطيم المعنويات لغرض الهيمنة وفرض الإذعان)^(٢).

وفي العصر الحديث كذلك تميزت الدعاية الصهيونية والحرب النفسية التي خاضها الكيان الصهيوني والقوى المؤيدة له ضد العرب والمسلمين عامة والشعب الفلسطيني خاصة بتغير قنوات وتبدل رؤى كثيرين حتى من بين العرب أنفسهم نتيجة الحرب النفسية القوية والمبرجة التي شنت ضدهم : (حيث رافقت هذه الحرب مختلف وسائل القتال الفعلي خلال العقد السابق لقيام (إسرائيل) والذي تمثل بحوادث القتل والاغتيال والتخريب والتفجير التي مارستها المنظمات الإرهابية العسكرية الصهيونية داخل وخارج فلسطين ضد أطراف عديدة واتبعت هذه المنظمات جواً تكتيكياً إرهابياً مختلفاً تشترك جميعها بصفتي العنف والمكر)^(٣).

ورغم أن المستقبل لما يجري في تطورات الحرب النفسية مجهولاً في إطار الآليات والتطبيقات الجديدة إلا أن الاتفاق يكاد يكون مبرماً بين الجميع أنها لن تقف عند حد معين نتيجة لامتلاكها سمات وخصائص ترشحها لاحتلال موقع الأفضلية في

(١) ينظر، الدكتور أحمد بدر، مصدر سابق، ص ٢١٦ وما بعدها .

(٢) عيسى محمد عيسى، مصدر سابق، ص ١٢ .

(٣) لقاء مكّي شفيق، ص ٤٠ . وينظر : الدكتور سعد سلمان المشهداني، الدعاية الصهيونية في العراق

١٩٢١-١٩٥٢، بغداد، ٢٠٠١، ص ٢٩ وما بعدها .

خيارات التعامل مع الخصوم في المستقبل، فالحروب الفعلية بزمجرتها ودويها ودمائها تثير المشاكل والاعتراضات وربما الرفض أو المقاومة، كما إن مثل هذه الحروب أدعى للاعتراض والاحتجاج في مظاهرات أو اعتصامات لكونها مفضوحة معلنة على الملأ، وكذلك لاحتياج حرب القتال الفعلي إلى مبررات منطقية تخفي تحتها حركة الدبابات وتحليق الطائرات ودماء الضحايا، أما الحرب النفسية فهي ليست بحاجة إلى ذلك كله، وربما ساعدت ثورة الاتصالات الحديثة والتقنية الهائلة الحاصلة فيها إلى ذوبان الأسئلة والاعتراضات حول أسباب ونتائج هذه الحرب، فقد تداخلت ثمار هذه الثورة الهائلة في الحياة الاجتماعية للبشر، ورسمت آفاقاً غير محدودة في التعامل السياسي والدبلوماسي العالمي، كما أنها - وهذا هو الأخطر فيما يبدو - افتتحت لنفسها وللعالم ميادين رحبة جداً وغير محدودة في التعامل والتواصل الإعلامي. (مع ثورة الاتصالات خرجت الحرب النفسية المعاصرة عن حدودها التقليدية، إذ فرضت الاتصالات نفسها كعنصر رئيسي من عناصر هذه الحرب. حتى ظهر توجه استراتيجي يقول بأن النصر لم يعد من نصيب الأقوى بل هو من نصيب من يملك الرسالة (الرواية الأفضل)^(١).

إن حرب المعلومات من حيث التحكم في طرق الحصول عليها وإعدادها للنشر في العالم، أو بإظهارها في الوقت الذي يختاره مالك هذه المعلومات، دخلت كمؤثر جديد من المؤثرات الخطيرة في الحرب النفسية، فشيوع المعلومة التي تضر بعقيدة معينة أو بدولة ما يلهب حماسة المعارضين لها وتزيد من احتمال فشلها أو تدهور نظام العمل في كتمانها أو الحفاظ على صورة معينة يراد لها أن تظهر بها، وتؤدي التطورات التقنية الحاصلة في العالم من أجهزة تجسس أو أنظمة مراقبة أو أقمار صناعية وغيرها مما لم يكشف عنه النقاب لسريته دوراً رائداً وطاغياً في الكثير من تفاصيل هذه العمليات

(١) محمد أحمد النابلسي، الحرب النفسية في العراق، مركز الدراسات النفسية، لبنان، ٢٠٠٣، ط١، ص ١١.

وقد ارتبطت هذه المؤثرات بالتقدم الهائل الحاصل في مجال الالكترونيات، وما زالت هذه المجالات تتناسل في كل لحظة بصنع ما لا يرى بالعين المجردة أو لا تدركه الحواس العادية إلا أنه موظف لخزن ملايين المعلومات والصور والمؤثرات الأخرى، لقد أصبحت المعلومة وإرادة كتمانها أو تخزينها في عملية صراع غير متوازن لصالح طغيان الصناعة الالكترونية الحديثة التي لم تعد تحدّها حدود واضحة.

ورغم أن التعامل مع المصطلحات والرموز في صورة تقلب الخير إلى الشر أو الباطل إلى حق قديم هو الآخر قدم النفس البشرية ومع أول صور الحرب النفسية، إلا أن حرب المصطلحات اتخذت لها في العصر الحديث موقع الصدارة من بين آليات الحرب النفسية، فشوهت الآلة الإعلامية الضخمة أنباط ورموز وحالات ودعمت أخرى غيرها وهي في الحقيقة لا تحقق إلا غرضاً هدّاماً لإرادة طرف من أطراف النزاع، فأصبحت مقاومة الظلم والانتهاك إرهاباً وضاعت الحقوق بين المشروع واللامشروع من الأعمال، فبينما تستخدم أطراف ما القوة المسلحة الطاغية لفرض قناعاتها على آخرين تحتج هذه بدورها لقيام هؤلاء بالاعتراض أو إبداء الرفض لذلك وربما ارتدت مظاهر الحرب النفسية المعاصرة أو المستقبلية رداء المنظمات الدولية التي ينظر إليها باعتبارها ذات شرعية دولية في تمثيل دول العالم في محافل أو مجتمعات عالمية، فإذا بها أو ببعضها تخضع لإرادة جهة ما تستغل قراراتها وآرائها في جزء من حرب نفسية موجهة ضد عقيدة أو دولة أو مجتمع ما لغرض إضفاء الشرعية الدولية على هذه الصورة من صور الحرب النفسية، وربما انضمت هذه المفاهيم والأفكار كلها تحت ما يعرف حديثاً (بالحرب الاستباقية) التي تستند في الكثير من مفرداتها وآلياتها على الحرب النفسية. رغم أن بعضهم يعدّها (ارتكاب مخالفة صريحة للمنطق باعتبار الحرب الاستباقية مبدأً استراتيجياً)^(١).

(١) محمد أحمد النابلسي، مصدر سابق ص ١٧٣.

أي قد يكون غير مدروس بشكل علمي أو ربما يفتقد بعض الدقة التي تمتاز بها بعض صور الحرب النفسية وأساليبها.

المطلب الثاني : سبل مقاومة الحرب النفسية

لم تعد الحرب الحديثة حرب قبائل أو جماعات متفرقة يغير بعضها على بعض، أو يثير أحد منهما خصمه بصراخه أو بإشعال النار أو بطلاء الوجه، وإنما أصبحت اليوم حرباً شاملة تشارك فيها قوى الشعب كافة، وتشترك فيها كل الجهود العسكرية، والسياسية، والاقتصادية والإعلامية، والنفسية، وكل ما يمكن استخدامه من طرق ووسائل لتحقيق النصر على العدو و كسب المعركة . و لهذا تعددت و تنوعت تأثيرات هذه الحرب على سعد وميادين المجتمع كافة، كما تشن في هذه المجالات كافة، فأوضحت هذه الحروب مفتوحة لكل احتمالات التأثير غير المتوقع في الخصم مما يدخل ضمن مجالات التخريب و التدمير الشامل - والحرب النفسية - كذلك أصابها هذا الوابل الكبير من التطور و التعدد في الأساليب والوسائل فدخل فيها ما دخل من جديد لم يكن في الحسبان و تعمق القديم منها حتى بلغ حدود غير محسوبة و غير متوقعة من التأثير في مجتمع الخصم وتدمير معنوياته وتهوين قدراته كافة.

و من هذا الباب تزداد الحاجة إلى مقاومة الحرب النفسية بما استطاع المجتمع المستهدف منها إلى ذلك سبيلا، و يتطلب هذا الأمر استخدام جميع الوسائل و السبل المتاحة التي يمكن للمجتمع الاستناد إليها للتصدي لهذه الحرب و مقاومتها أو على الأقل تقليل الأثر الذي تخلفه . لهذا فمقاومة الحرب النفسية أجازها الشرع الشريف والعقل و دعا إليها فقه الواقع لما في هذا التصدي من تحصين و حماية لضرورات الحياة: الدين و العقل و النفس و العرض و المال . قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُفْتِنُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠] ، و التي يقف عندها

سيد قطب قائلاً : (إنه الجهاد للعقيدة و لحمايتها من الحصار، و حمايتها من الفتنة و حماية منهجها و شريعتها في الحياة، وإقراراتها في الأرض، بحيث لا يخشى أن يدخل فيه من يريد الدخول ...) (١) .

و الحرب النفسية بآلياتها وأساليبها التي تتبعها تحدد اتجاهات الصراع و تقوده إلى نتائج غير محسوبة وهي تستهدف تحقيق الانتصار، كما أن مقاومة العدو التي كلما ضعفت أو انهارت تماماً فقد زادت فرص الحرب النفسية في كسب الحرب : (والحرب النفسية تدرك أن جيش العدو سوف يستسلم فقط حينما يصبح غير قادر على المقاومة الفعالة و لكن عدد الأرواح التي ستفقد و المعدات التي ستدمر قبل أن يقرر الجيش أن المقاومة لم تعد مجدية هي من القضايا النفسية التي يمكن أن تتأثر بالحرب النفسية) (٢) .

و إذا كانت الحرب النفسية بهذه الخطورة فإن القرآن الكريم كان قد حذر منها و رسم ملامح مقاومتها و سبل تحصين المجتمع الإسلامي منها، خاصة وقد تعرض الإسلام إلى حرب مباشرة و حرب نفسية شرسة بدأت منذ لحظة التبليغ الأولى التي سمع فيها المشركون بأنباء هذا الدين، ثم تطورت هذه الحرب الموجهة إلى دين الله تعالى عبر المنافقين و أهل الكتاب و المشركين كافة مما جعل من تدخل القرآن الكريم و توجيهه للمسلمين بحماية المجتمع ضرورة لازمة لاستمرار الدعوة، وذلك على مستويين أو مبدأين هما :

المبدأ الأول : - وهو خاص ببقاء المجتمع - طاعة كتاب الله، فقيام مجتمع المسلمين كان على أساس من الإيمان بكتاب الله وحده، وكذلك بقاؤه رهن بطاعة

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ٢٠٠٤، ط ٣٤، مجلد ١، ص ١٨٧ .

(٢) الدكتور جيهان أحمد رشي، الدعاية واستخدام الراديو في الحرب النفسية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٥، ص ٢٧٣ .

هذا الكتاب و الإخلاص في تطبيق ما جاء به .

المبدأ الثاني :- وهو خاص بحماية المجتمع من الضعف أو الفناء - رد الخلاف في الرأي بين المسلمين، عند التنازع فيه و ظهور إمارات الشقاق بينهم بسببه، إلى كتاب الله وإلى رسوله وحدهما) .^(١)

إن مقاومة الحرب النفسية والتصدي لها لا بد لها من آليات وخطوات تبدأ بإقناع الشعب بعدالة قضيته و موقفه من الصراع مع العدو لارتباط هذه النقطة بالذات برفع المعنويات والمحافظة على مستوى هذا الارتفاع . و يكمل مفعول هذه النقطة بمدى الفاعلية على حشد مشاعر الحقد و الكراهية المباشرة على الخصم مستهدفين بذلك مبادئه وأفكاره وعقائده وعند ذاك يقل ضغط الحرب النفسية على المجتمع - إضافة إلى الحرص على وحدة وتماسك المجتمع و الابتعاد الدائم عن كل ما يسبب الفرقة والخلاف .^(٢) بل إن الباحثين الذين يرون إمكانية توجيه الحرب النفسية إلى الصديق و المحايد جعلوا أمر التصدي للحرب النفسية حرباً أخرى تقوم بالتركيز على هدفها في وحدة الصف وتحشيد قوى الداخل لتعزيز المعنويات ومنع أي بادرة من بوادر الانهيار التي قد تنشأ فيه نتيجة قوة الحرب النفسية المعادية، ويسمونها الحرب النفسية التعزيزية .^(٣)

ولم يغفل القرآن الكريم عن شمولية الحرب النفسية، وشمولية مقاومتها والتصدي لها، وذلك بالتركيز على الزوايا التي يُبنى من خلالها المجتمع المسلم بناء

(١) ينظر : الدكتور محمد البهيّ، الدين و الدولة من توجيه القرآن الكريم، مكتبة وهبة، مصر، ١٩٨٠، ط ٢، ص ٣٣٢ .

(٢) ينظر : الدكتور أحمد نوفل، الحرب النفسية، الكتاب الأول، ص ٧٢ .

(٣) و توجه نحو السكان المدنيين الموجودين في مناطقنا الخلفية أو في المناطق التي تحتلها قواتنا وتستهدف مساعدة الحركات العسكرية لحماية خطوط المواصلات والسيطرة على اللاجئين والحصول على التعاون الوثيق مع السكان المدنيين والرد على فعاليات العدو النفسية الموجهة ضد شعبنا . (لقاء مكّي، مصدر سابق، ص ١٨)

قوياً صامداً أمام التحديات. وقد انتظم منهج القرآن في رسمه لخطة التصدي للحرب النفسية باعتماده على توطيد وتعميق عقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر في نفوس المؤمنين، ثم بالوصول بالمسلمين إلى حقيقة مفادها : كون النصر من عند الله وتأكيد القرآن الكريم على موالاة المؤمنين و البراءة من الكافرين و المنافقين، كما أكد الله تعالى على الوحدة في تشريع النظام العبادي إذ تؤكد كلها على وحدة الصف وتماسك المجتمع كصلاة الجمعة و الجماعة و الزكاة والصيام وغير ذلك، وكان لنظام الأخلاق الإسلامي أثره في تحصين المجتمع المسلم و بالتالي الوقوف كالجدار الأصم الذي تتحطم أمامه كل محاولات الحرب النفسية المعادية فكّون النظام الاجتماعي في الإسلام مجتمعاً متماسكاً كالبنيان المرصوص .^(١) وبالتالي يمكن النظر إلى هذه التوجيهات القرآنية والنبوية على أنها مراحل تسبق آليات التصدي للحرب النفسية.

إن مقاومة الحرب النفسية و التصدي لها بأساليبها ذاتها و بوسائل أخرى تبدد أخطارها، لم تعد مهمة ضرورية و حاضرة في عصرنا هذا وحسب، بل تزايد أهميتها و حاجة المجتمع إليها، لا سيما و أن هذه الحرب تطّور وسائلها باستمرار و تجدد في أساليب استهدافها للإنسان فأصبح وعيه و ثقافته ومعتقداته و قيمه و كل ما يمكن أن يرتبط بعقله و فكره عرضة لأخطار هذه الحرب و آثارها الجسيمة مما يوجب استغلال أية وسيلة ممكنة لمقاومتها و صدها بل و محاولة ابتكار الجديد من سبل مقاومة هذه الحرب الشرسة . ومن جملة ما ابتكر الإنسان و أقرته الشريعة وأيدته الوقائع اليومية، هناك مجموعة طرق يتم من خلالها مقاومة الحرب النفسية و التصدي لها وهي :

أولاً : التعامل بصدق مع المجتمع و عدم خداعه: وذلك بإصدار البيانات والتصريحات المناسبة وفي أوقاتها المناسبة لتفند أثر الحرب النفسية المعادية، خاصة

(١) ينظر : محمد عياش الكبيسي، منهج القرآن في مكافحة الإشاعة، مجلة الأحمدية، العدد الخامس،

نيسان / ٢٠٠٠، ص ١٤٦ .

الإشاعات المغرضة التي يطلقها العدو ويدفع باتجاه الترويج لها ومن ثم الوصول إلى زعزعة العلاقة و تقطيعها بين القيادة والقاعدة .فالتعامل الصريح الصادق مع الجمهور يضمن بقاء المستوى المتقدم من العلاقة بينهما متواصلاً عكس حالة الصمت وتجاهل التعامل مع آثار الحرب النفسية على المجتمع التي ربما يفسرها المجتمع من باب الاستهانة بمشاعر الناس أو التصديق بفحوى الدعاية أو الإشاعة التي أطلقها العدو

(إن الطريقة المثلى في كشف الحقائق و تنوير المواطنين هي عدم ذكر الإشاعة وترديدها إنما يكتفي بمضمونها . وإذا تم التعاون بين الجماهير و السلطة بالهجوم غير المباشر على الوقاية من حرب الإشاعة بإصدار الحقائق اتجاهها وتوعية الجماهير إلى حقيقتها أمكن إلى حد كبير إزالة الغموض الذي يساعد على رواج الإشاعة)^(١) ، بل إن الكلمة الصادقة ذاتها يمكن أن تكون الفيصل بين النصر و الهزيمة : (إن الكلمة الصادقة الجريئة هي الكلمة التي يكتسب بواسطتها النجاح كأية حرب نفسية سواء إذا استخدمت في أيام الحرب أو في أيام السلم ...) .^(٢) إن منهج الصدق في التعامل مع التحديات و أحوال المجتمع منهج رباني أكد عليه القرآن الكريم و السنة النبوية تأسيساً على أن العلاقة الصادقة تزرع الثقة وتشر المعروف وتستخرج مواطن الخير من مواضعها .

قال تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩] .
وعن ابن مسعود رضي الله عنه في الحديث المتفق عليه، قال رسول الله ﷺ : (إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق، حتى يكتب عند الله صديقاً،

(١) رياض أحمد يحيى، حرب الإشاعة، مطبوعات المعهد العالي لضباط قوى الأمن الداخلي، بغداد، ١٩٨٤، ص ٧٣.

(٢) جاسم كريم حبيب، مصدر سابق، ص ٤٩ .

وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً^(١).

وقد أنجى الصدق أقواماً وتشرفوا به حتى نالوا أعلى الدرجات في المجتمع وأثبتوا من خلال صدقهم أن الحرب النفسية التي قد يشنها العدو أو يعمل على تحريك بواعثها إنما تكافح بالصدق وتقاوم بالنية الصادقة، وأماننا قصة كعب بن مالك، أحد الثلاثة الذين تحلفوا عن الغزو في معركة تبوك فلما عاد رسول الله ﷺ وبادر بسؤال المتخلفين عن القتال، راودت كعب مشاعر شتى بين الصدق في أنه لم يتخلف إلا كسلاً وعندها لا يعرف ما سيكون مصيره وبين الكذب كما فعل آخرون قبله فلم يبادرهم أحد بعقوبة أو تعزيز. ثم إنه حسم أمره فصارح رسول الله ﷺ بالحقيقة وأمر المصطفى - عليه الصلاة والسلام - بمقاطعته اجتماعياً مع اثنين من الصحابة قالوا نفس ما قال، بانتظار أمر القرآن في علاج حالتهم وقد عانى كعب وصاحبه معاناة كبيرة، بل إن قيصر الروم أرسل إلى كعب من يخبره أن بإمكانك أن تترك المسلمين وتلتق معنا نكلاً بهم لما فعلوه معك من المقاطعة وهي حرب نفسية أخرى يُستهدف فيها وجوه المجتمع وتشير إلى قوة وتأثير الجواسيس.

وانتصر منهج الصدق بقبول الله تعالى توبتهم لصدقهم وتركت القصة أثراً ودرساً مفيداً في وحدة الصف ومقاومة هوى النفس وبوادر الحرب النفسية في المجتمع^(٢).

وهي تربية رسول الله ﷺ لصحابته الكرام - رضي الله عنهم - على منهج الصدق المؤدي إلى الجنة والذي يحصن المجتمع من أية حرب نفسية معادية.

(١) أخرجه البخاري ٨/ ٣٠ (٦٠٩٤) ومسلم ٨/ ٢٩ (٢٦٠٧).

(٢) ينظر للمزيد عن القصة: البخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي، رقم (٤٤١٨)، والصلابي،

السيرة النبوية، ص ٨٣٩.

ففي نظام الشورى الذي أرشد إليه القرآن الكريم وعمل به الرسول ﷺ وصحابته - رضوان الله عليهم - الكثير من شيوخ قيم الصدق والتآخي التي تعزز أمن المجتمع ووحدته .

ثانياً : تعريف المجتمع بعدالة القضية التي يحاربون من أجلها و أنها مسألة حق لا تنازل عنه ولا ظلم فيه حتى للطرف المعادي ، فهي بهذا المفهوم حرب عادلة لها بواعثها الشرعية والمقنعة ، وإقناع الجمهور بهذا الجانب مهم جداً في استقرار نفسية المجتمع وتخلصه من عقدة الذنب والشعور باللائم إذا ما كانت هذه الحرب تسبب ظلماً لأحد حتى إذا كان العدو ذاته .

وقد انتهج القرآن الكريم هذا النهج في بيان عدالة و أحقية المسلمين في قتال الكفار ما دامت صفات العدل و الحق معهم وصفات الظلم والباطل مع أعدائهم ، قال تعالى : ﴿ أَلَا تَقْنَلُونَ قَوْمًا نَكَتُوا أَيْمَنَهُمْ وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَكَدْءُكُمْ أُولَئِكَ تَخْشَوْنَهُمْ فَأَلَّهْ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٣] .

وقد عرضت الآية الكريمة من مبررات مقاتلة الكفار ما تزرع في نفسية المسلمين العدالة التامة بصدقهم و أحقيتهم في هذه المعاداة للعدو ، و هذه القناعة الراسخة تؤجج لدى المجتمع عوامل الصمود والاستهانة بالعدو إلى درجة إفشال حربه النفسية بشكل قاطع . (وقد ثبت من خلال مختلف الحروب التي شهدتها العالم في الماضي أو الحاضر ، أن التماسك النفسي يتوقف أساساً على إمام جميع الفئات العسكرية و المدنية بطبيعة الحرب وعلى وجه الخصوص عدالة أهدافها) . (١)

ثالثاً : استثمار طاقة وسائل الإعلام إلى منتهى ما تصل إليه من تأثير في تماسك المجتمع الذي يراد له مقاومة الحرب النفسية ، فوسائل الإعلام الجماهيرية تؤدي دوراً كبيراً في

(١) جاسم كريم حبيب ، مصدر سابق ، ص ٤٢ .

تحديد اتجاهات الرأي العام وفي كسب ميول الناس وضمان ولائهم للقضية المتنازع بشأنها، فإذا تم شد المجتمع إلى متابعة وتصديق إعلامنا، يبرز حينذاك دور الرسائل الإعلامية في تكذيب وتدمير الحرب النفسية المعادية فتفشل من دون أن تحقق أهدافها، ولذلك يجب أن يكون الإعلام الموجه للتصدي للحرب النفسية المعادية أميناً وصادقاً وكفوءاً إلى الدرجة التي يصبح فيها بحد ذاته سلاحاً مضموناً نستطيع من خلاله ردع العدو عن تحقيق أهدافه وإفشال كل ما يقوم به من دعاية أو إشاعة ضد المجتمع، وإذا كان دور وسائل الإعلام في الحياة المعاصرة هو ما أدركه الجميع من الأهمية والخطوة فإنها في موضوع تحصين المجتمع الإسلامي من الحرب النفسية المعادية في مكان أكثر أهمية وخطورة، لأن واجب الإعلام في تربية المجتمع وتوحيد أفكارهم و مناهجهم على وجهة واحدة يعزز التوافق والوحدة، ويبدد عنهم خطر الفرقة والوقوع فريسة لحرب الأعداء النفسية. (ولهذا فإن وسائل الإعلام ينبغي أن يكون هدفها الأساسي هو الإعداد السليم ومساندة البيئة والأسرة والمدرسة والمجتمع، في تكوين شخصيات الأفراد وإعدادهم وعدم خروجها على وسائل التربية المقصودة، والمبرجة) ^(١).

و معلوم أن رسول الله ﷺ كان يشجع شعراء الدعوة الإسلامية أيما تشجيع في رد دعاية المشركين وإشاعتهم و حربهم النفسية ضد الإسلام والمسلمين، وقد هاجم حسان بن ثابت المشركين في معركة أحد حين رفعت (المرأة الحارثية) لواء الجيش عندما انسحبوا من ساحة القتال :

أقمنا لهم طعناً مبيراً منكلاً وحرناهم بالضرب من كل جانبٍ
فلولا لواء الحارثية أصبحوا يباعون في الأسواق بيع الجلائبِ ^(٢)

(١) د . رشدي شحاتة أبو زيد، مسؤولية الإعلام الإسلامي في ظل النظام العالمي الجديد، القاهرة،

١٩٩٩، ص ٤٠٧ .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ٣ / ٨٧

فكان لمثل هذا الإعلام أثر قوي في مساعدة المسلمين على التصدي لحرب المشركين الإعلامية وإسقاط أهدافهم في الحرب النفسية .

رابعاً: تعزيز الثقة بالقيادة وتقوية أواصر علاقة الاحترام المتبادلة بين قاعدة المجتمع وقيادته تساهم مساهمة فاعلة في صد الحرب النفسية التي يشنها العدو وتعمل بقوة على إفشالها أو تقليل خطرهما بشكل كبير، فشخصية القائد الناضج إذا عكست علائمه القوة والثقة والحكمة في نفسية أتباعه من المقاتلين ومن عامة المجتمع، انعكس ذلك مباشرة في تعزيز الاندفاع المعنوي والقدرة النفسية على الصمود والتضحية من أجل سلامة المجتمع .

(و تبدو لنا أهمية هذا العامل إذا أدركنا أن جهاز القيادة إنما هو رمز للسلطة التي تدفع بالجنود إلى القتال، فإذا استطاع أن يؤدي واجبه الإنساني، من حيث العناية بالجنود والاهتمام بمتاعبهم ومشاكلهم وحاجاتهم وإتاحة الحلول والإشباكات لها، فإنه يكتسب بذلك ثقتهم في قدرته وارتياحهم له كمصدر للرعاية) .^(١)

ثم إن القيادة الناجحة هي التي تردم الهوة المفترضة أو الموجودة فعلاً بينها وبين أفراد الشعب، وإيصال رسالة إعلامية واضحة تهدف إلى تقوية أواصر الأخوة والمودة بين الطرفين (القيادة والشعب) على أن تحتوي هذه الرسائل التأكيد على أن القيادة هي جزء منهم ولن تغزل نفسها عنهم في أي حالة من حالات الصراع الدائر. حيث تعمل هذه المفاهيم على تعزيز القناعة بوحدة الصف و محاربة الأفكار الدخيلة أو أية حرب نفسية يمكن أن يشنها العدو. (والقائد الحذق لا يترك مناسبة تمر دون الاختلاط بجنوده والتناقش معهم في أحوالهم وشكواهم، وهو لا يتشني عن عقد المؤتمرات والاجتماعات يفهمهم فيها سياسته في القيادة والأسباب التي تدعوه إلى اتخاذ بعض القرارات التي قد تبدو غريبة على الأذهان، وفي حالة القتال يفهمهم

(١) محمد عاطف السعيد، فصول في علم النفس العسكري، القاهرة، ١٩٥٩، ط، ص ١١٦

حقيقة الأوضاع المحيطة بهم ويفند لهم الإشاعات التي تصل إليهم (١) .

وقد وضع الإسلام في هذا الباب شروطاً ومواصفات للقائد يجب أن يتمتع بها لأنه في هذه الحالة يدفع بمجتمعه دفعاً إلى الصمود ومقاومة الخصم: (يجب أن يكون قائد الجيش وحامل اللواء ونحوهم من أولي الشجاعة والنجدة والجرأة والدين، ثابت الجنان، صارم القلب شديد البأس، فإنه إذا كان كذلك أثر في جيشه قوة قلب وشدة بأس وثبات جأش وثقة بالظفر فإن منزلته منهم، منزلة القلب من الجسد...).^(٢) وحدد الماوردي في الأحكام السلطانية إن من واجبات الأمير أو القائد التي لا يمكن إلا العمل بها : هو أن يقوي في نفوس أتباعه كل ما يشعرهم بالظفر ويقرب إليهم أسباب النصر بهدف تهوين شأن العدو في نفوسهم و إن أية بادرة يطلقها هذا العدو للإيقاع بهم من دعاية أو إشاعة أو ذعر لن تجدي نفعاً ما دام هذا العدو قد قلَّ شأنه في نفوسهم^(٣). وقد كانت بداية ذلك كله هو تمييز شخصية الرسول ﷺ في قيادته للمجتمع وإشعارهم أن الإسلام مصدر قوتهم وعزتهم وإن معية الله تعالى لا تلبث أن تحقق النصر لهم على عدو الله وعدوهم، وأن كيد الكافرين وحربهم النفسية وحقدهم على الإسلام والمسلمين لن تحقق لهم إلا الدمار والخسران، كما أنه عليه الصلاة والسلام كان يقظاً تماماً في طريقة معاملة العدو فلا يكشف له ناحية من جيش المسلمين يمكن أن يستفيد منها وكان يحرص أشد الحرص على كتمان أمر

(١) محمد عاطف السعيد، نفس المصدر، ص ١١٧ .

(٢) ابن النحاس، أبي زكريا أحمد بن إبراهيم بن محمد الدمشقي ثم الدمياطي، المتوفى سنة ٨١٤، مشاريع الأشواق إلى مصارع العشاق، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ٢٠٠٢، ط ٣، مجلد ٢، ص ١٠٧٤.

(٣) ينظر: الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ضبطه وصححه أحمد عبد السلام، بيروت، ٢٠٠٦، ط ٣، ص ٥٢ .

حركته وأحوال مجتمعه عن العدو، بل كان يتحرى كل ما قد يقوم به العدو ضد صف المسلمين و وحدته من دعر أو استهداف أو إشاعات فيصدها في الحال مما يعزز دور القيادة في تحقيق أمان المجتمع و تحصينه من الحرب النفسية^(١)

خامساً: إذا كانت الحرب النفسية التي يشنها العدو شاملة ويمكن أن تمتد إلى مجالات السياسة أو الاقتصاد أو بث الإشاعات أو غيرها فإن غلق منافذ حربه النفسية يحصن المجتمع و يفشل هذه الحرب فيعزز ذلك من قدرة المجتمع على الصمود .فإحساس المجتمع بالأمن و توفر الخدمات وما يحتاجه من غذاء و دواء وكساء وعدم تقطع الصلات بين أبناء المجتمع و سهولة الاتصال بين المقاتل و عائلته من شأنه أن يكون جداراً فاصلاً بين حرب العدو النفسية وبين سلامة المجتمع منها ونجاته من دعايته و إشاعاته، وذلك عبر: توفير الأمن والطمأنينة لأفراد المجتمع كافة والتغلب على القلق والخوف، وكذلك الاهتمام بالناس من حيث إطعامهم و إكسائهم و إشباع حاجاتهم الأخرى وتوفير أجواء نفسية إيجابية لهم وبناء علاقات إنسانية معهم^(٢).

وقد كانت عناية الرسول ﷺ بتوفير جوانب الإعاشة خطوط الاتصال وتوفير عوامل التحصين الأمني و النفسي إضافة إلى الرعاية النبوية بعوائل الشهداء من أهم أسباب صد حرب المشركين و دعاياتهم الموحية بالقوة المفرطة في معركة بدر فقويت معنويات المسلمين وشعر المشركون بالهزيمة النفسية منذ لحظة القتال الأولى^(٣)

بل إن المتأمل في السنة النبوية، وحصار المشركين الاقتصادي للمسلمين في شعب بني طالب يجد أن هذا الحصار ذاته و المقاطعة الاجتماعية وفقدان المحاصرين للأمان كان بمجموعه حرباً نفسية شرسة أوقعت أثراً بالغاً في صفوف المسلمين، فمات من

(١) ينظر: محمود شبت خطاب، الرسول القائد، ص ٢٩٩-٣٢٥.

(٢) ينظر: كامل علوان الزبيدي، مصدر سابق، ص ١٠١.

(٣) ينظر: محمود شبت خطاب، الرسول القائد، ص ٨٦.

مات وارتد بعضهم بينما صمدت البقية الباقية برعاية الله تعالى لهم وبتأمل الصحابة الأوائل لسنن الكون ثم وقوفهم عند مفهوم : إن للباطل جولة سرعان ما تزول، بينما كانت معنويات المشركين مرتفعة بتوفر ما افتقده المسلمون، حتى صبرت الفئة المؤمنة وانتصرت بما امتلكته من يقين أن الله لن يضيعهم^(١).

سادساً : وضع التشريعات و القوانين التي من شأنها صد الحرب النفسية الموجهة التي يشنها العدو بهدف زعزعة المعنويات، فإن الكثير من جهود هذه الحرب إنما توجه لكسب القلوب بالترغيب والترهيب وشراء الذمم والولاء وذلك بجعل بعض أبناء المجتمع جواسيس ينقلون أسرار المجتمع وأخباره إلى جهة الخصم، فكان لابد من معالجة هذه الظاهرة في إطار التصدي للحرب النفسية المعادية والعمل على وقاية المجتمع منها بتشريع القوانين والأحكام ووضع العقوبات الكفيلة بردع المتعاون أو المتهاون مع دعاية العدو أو إشاعته. ويأتي موضع العقوبات والتعزيز أو الاقتصاص من المروجين للحرب النفسية المعادية أو (المرجفين) كما يُسمون في الفقه الإسلامي^(٢)، بعد العلم والإعلام والإيضاح بخطر هذه الحرب النفسية المعادية، متمثلين في ذلك منهج القرآن الكريم الذي حذر من الإشاعة وخطرها في المجتمع ومن خطورة ترويجها والتعامل معها بدون وعي، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَهْلِكِهِمْ فَيُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ تَذَمِينًا ۖ﴾ [الحجرات: ٦].

ثم أرشد الله تعالى المؤمنين إلى حسن الظن بمن يوجه إليه العدو إشاعة أو رموز دعايته لإسقاطه، فقال ﷺ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحْسَبُوا أَن يَغْفِرَ بَعْضُكُم بَعْضًا يَأْتِيكُمُ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ

(١) ينظر : ابن هشام : السيرة النبوية : ١ / ٣٥٠ .

(٢) ينظر : د . خالد الجميلي، أحكام الإشاعة في الشريعة الإسلامية، مجلة جامعة صدام للعلوم

الإسلامية، عدد ١٢، ٢٠٠٠، ص ١١٥ .

ثم أمر المولى عز وجل ببيان الأدلة و البراهين على قول من يقول أو يخوض الحرب النفسية: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾ ﴿١٣﴾. [النور: ١٣] ووجه القرآن الكريم وحذر المؤمنين من اتباع ما لا يعلمون من نقولات أو إشاعات قد تؤدي بهم إلى نيل العقاب على ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ﴿٣٦﴾ [الإسراء: ٣٦].

ثم إن من يسعى في درب الإشاعة له نصيبه من غضب الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدِيتُ نَفْسِي عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلَحُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ [يونس: ٦٩-٧٠] بل إن الرسول ﷺ تعامل مع المرجفين أو الكاشفين لأسرار المسلمين، أو المروجين لدعاية العدو بحزم وعاقب من عاقب على ذلك .

منها ما حدث قبيل فتح مكة إذ أرسل الصحابي حاطب بن أبي بلتعة رسالة تحذير إلى قريش من خروج جيش المسلمين إليهم عن طريق امرأة، فأعلم رسول الله ﷺ وحيًا بذلك، فأرسل خلفها عليًا و الزبير - رضي الله عنهما - فأسترجعا الرسالة، وأوشك رسول الله ﷺ على عقابه لولا أنه كان بديراً^(١).

والتجسس يعد نوعاً من أنواع التمكين للحرب النفسية المعادية، سواء كان الجاسوس فرداً أم جماعة معادية أم أجهزة الكترونية أم فرداً من المجتمع كلفه العدو بذلك لقاء مالٍ أو غيره، وقد شرع الإسلام عقوبات وحدوداً خاصة به للحد من انتشاره أو آثاره وتطهيراً لنفوس المسلمين من الوقوع في شباك الحرب النفسية التي يشنها العدو، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ

(١) ينظر: بالتفصيل، البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح، ١٠٥/٥، رقم ٤٢٧٤.

أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿١٣﴾ [الحجرات: ١٢].

فوضع الإسلام معالجات وحلولاً لهذه القضية الخطرة وجعل الكلمة أمانة وإفشاء السر خيانة و موالاة الكفار قولاً أو عملاً نكوصاً عن الإسلام ونهى الشارع الحكيم عن التطفل والفضول وشهوة الثروة وشجع على ضرورة التحلي بوعي الحفاظ على أمن الأمة والتحصن بالتربية والتوعية في خطوات عملية هدفها تخليص الفرد المسلم من الوقوع في شرك الحرب النفسية المعادية وبالتالي حصوله على غضب الله وعقوبة ولي الأمر.^(١)

وامتد استخدام القوانين والتشريعات المتصدية لحرب العدو النفسية إلى القوانين الوضعية الحديثة، وإذا كانت جريمة التجسس وإرجاف المؤمنين ومحاولات شق وحدة الصف المسلم تعتبر من مباحث الفقه الجنائي الإسلامي فإن نفس هذه الأفعال المروجة لقوة العدو والهادفة إلى زعزعة المعنويات وضعت تحت مسمى (الجرائم الماسة بأمن الدولة) في الإطار القانوني، وقد أحتوت على عقوبات وإجراءات قضائية، كما احتوى الفقه الإسلامي قبلها على ما يعاقب من خلاله كل من أتى بفعل يروج من خلاله للعدو ويساهم في تفرقة المسلمين.^(٢)

بل إن قانون العقوبات العراقي نص على عقوبة (من أذاع عمداً أخباراً أو بيانات أو إشاعات كاذبة أو مغرضة أو بث دعايات مثيرة إذا كان من شأن ذلك تكدير الأمن

(١) ينظر : عبد الجبار الفهداوي، أحكام التجسس في الفقه الإسلامي، ص ٤٠ . وينظر : اللواء الركن جمال الدين محفوظ، النظرية الإسلامية في الاستطلاع والأمن ومقاومة الجاسوسية، ١٩٨٣، ص ٤١ وما بعدها .

(٢) ينظر : د . سعد إبراهيم الأعظمي، موسوعة الجرائم الماسة بأمن الدولة الداخلي، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ٢٠٠٠، ص ١١١ وما بعدها .

العام أو إلقاء الرعب بين الناس أو إلحاق الضرر بالمصلحة العامة) .^(١) وهنا تبرز ضرورة مراقبة وسائل الإعلام التي تبث دعاية العدو وإشاعاته التي يستهدف من خلالها التأثير في المجتمع وإثارة الفرقة والتنازع فيه، أو الترويج لقوته المادية والمعنوية بما يسهم في القضاء على معنويات المجتمع عبر التضخيم والتهويل من شأن العدو، فتمنع هذه الوسائل بتشريع ما يمنعها من قوانين وإجراءات ممكنة ويحق لولي الأمر معاقبة أو منع أو حرق أي وسيلة إعلامية تخالف عقيدة المسلمين وتروج لما يخالفها أو تساعد في شن حربه النفسية: وقد منع أهل العلم قديماً وحديثاً نشر الأقوال المضلة، وقالوا بحرق أو إتلاف الكتب المشتملة على تلك العلوم الباطلة . وقال النووي في المجموع، شرح المذهب (٢٤٠١٩) : (قال أصحابنا : ولا يجوز بيع كتب الكفر، لأنه ليس فيها منفعة مباحة، بل يجب إتلافها) ومن الأدلة على عدم نشر أفكار البدع والضلالات الكثرة الكاثرة من النصوص الشرعية التي تلزم المسلمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .^(٢)

إن خطر الحرب النفسية على المجتمع و سعي الخصم لامتلاك أدواتها وأساليب التأثير من خلالها في المجتمع، يوجب في أحيان كثيرة اللجوء إلى القوانين والأحكام والتشريعات الموجبة للعقاب والاقتصاص من المروج لها والساعي من خلالها لإرباك الناس وإثارة الخوف والقلق والإحباط عن طريق الإفراط في تضخيم صورة العدو وتهويل إمكانياته وأسلحته وقوته التي يمكن أن يحقق من خلالها النصر وعند ذاك تنهار المعنويات ويصبح انتصار العدو ممكناً بعد أن تم الترويج له بما يكفي، وهو بالطبع من مهام الحرب النفسية .

سابعاً: تساهم قوى الأمن الداخلي بما عرف قديماً بالعسس أو الحراسات و حديثاً

(١) د . سعد إبراهيم الأعظمي، مصدر سابق، ص ١٨١ .

(٢) ينظر : محمد بن شاكر، الموقف من الرأي الآخر - رؤية شرعية، مجلة البيان، عدد ٢٠٦، ص ١٢ .

بقوات الشرطة أو المخابرات مساهمة كبيرة في حماية المجتمع من الحرب النفسية المعادية، وأهميتها لا تقل عن أهمية وجود قوات مسلحة قوية و ذات معنويات عالية يتم من خلالها إشعار المجتمع بالأمن والطمأنينة من ناحية وإحباط محاولات العدو في تحقيق النصر من ناحية ثانية . (إن وجود القوات المسلحة شرط جوهري للسيادة الوطنية وبوصفها ضماناً وأساسية لاستقلال الأمة، فإنها تعتنق مثل الأمة وقيمها، وتعتبر المؤمن الوفي عليها).^(١)

أما قوى الأمن الداخلي فهي معنية من زاوية أخرى بالتصدي لحرب الإشاعة ومقاومة الحرب النفسية التي يشنها الخصم من خلال تأمين البيئة المناسبة لاستقرار المجتمع و حرصها على سلامة الناس والمحافظة على قيم و ضوابط المجتمع، (ومن هنا كان الإقناع بالالتزام الحتمي والمسؤولية الكاملة لقوى الأمن وحماية الجبهة الداخلية، إن قوى الأمن الداخلي على اتصال مباشر مع الجماهير وله الدور الكبير في التصدي لحرب الإشاعة ...).^(٢)

ويعرف ما تقوم به أجهزة الأمن الداخلي من إجراءات و ممارسات لحماية المجتمع والحفاظ على وحدته وسلامته أمام الحرب النفسية المعادية (بالأمن الوقائي) حيث يتم من خلاله تكوين الخطوط الدفاعية التي من شأنها منع دعاية العدو وإشاعته من الوصول إلى الجماهير، (ولكي تواجه الدولة عمليات المخابرات الأجنبية المعادية لها، عليها أن تتخذ من التدابير و الإجراءات و العمليات ما يكفل لها ضمان التحفظ على أسرارها و يمنع حدوث ما يمكن أن يلحق الإضرار بها أو يؤثر على سلامتها وأمنها).^(٣)

(١) العقيد شارل شانديسي، علم النفس في القوات المسلحة، ترجمة الدكتور محمد ياسر الأيوبي، المؤسسة

العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٤، ط ٢، ص ٩٨ .

(٢) رياض أحمد يحيى، حرب الإشاعة، مصدر سابق . ص ٨٧ .

(٣) ينظر : جمال الدين محفوظ، مصدر سابق، ص ٤٨ .

ويمكن القول إن أهم الأدوار الموكلة بهذه الأجهزة للتصدي للحرب النفسية، هي كونها تمثل (السلطة) بمعنى أن تصريحاتها وبياناتها مستقاة من المصادر العليا في إدارة الدولة كما أن (الثقافة الأمنية) التي يجب أن يتحلّى بها هؤلاء تؤهلهم للتعامل مع دعاية العدو وإشاعته وكل أساليبه الأخرى في الحرب النفسية بوعي ومهنية متقدمة، وترتكز إلى العلم والمعرفة اللازمة في مثل هذه المجالات، إضافة إلى أن هذه الجهات الأمنية تتصل يومياً بمعظم صنوف المجتمع وفي مختلف الحالات ومن هنا تستطيع أن تعمل عملها في تكذيب إشاعات العدو و ردع دعاياته و تنفيذ مخططاته في إثارة الرعب والهلع لدى الناس .^(١)

إن تركيز الإسلام من خلال القرآن الكريم على أن هذه الحياة الدنيا فانية، وأن الآخرة هي دار القرار والخلود لمن أطاع الله تعالى وحصل على رضاه، دفع المسلمين إلى التضحية بكل ما يملكون نصرة لهذا الدين، وبذلوا ما في وسعهم للحفاظ على الأخوة ووحدة الصف والاعتصام بحبل الله تعالى فكان هذا التلاحم بمثابة العقبة الأولى أمام أي محاولة معادية لتفتيت الصف، أي بمعنى أنهم تمثلوا مسؤولية المجتمع كله في الحفاظ على الأمن والضرب على يد العاصي والمسيء و المرجف و مقاطعة المنافقين و تبليغ الإشاعة ومصدرها إلى ولي الأمر .

فكان هذا السلوك دعامة أولى لاستقرار المجتمع بعد أن مارس الجميع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فاستشعروا أهمية أن يكون كل منهم رقيباً على نفسه ومنعها من موالاة العدو ومصلحاً لغيره من الناس، في عملية متكاملة من الإحساس بأهمية الأمن الداخلي للمجتمع وأهمية الاحتفاظ بأسرار المجتمع و المحافظة على سلامته .

وكان من علائم نجاح التخطيط النبوي في اختيار الرجال الذين يعهد إليهم

(١) ينظر: رياض أحمد يحيى، مصدر سابق . ص ٨٩ .

بمهمات الأمن الداخلي ومراقبة العدو وجمع المعلومات عنه، أنه لم تعرف في سيرته ﷺ حادثة واحدة تشير إلى إنكشاف واحد من رجاله الذين كلفهم بواجبات أمنية، كما أنه ﷺ لم يتحرك في غزوة إلا وكانت لديه المعلومات الكاملة عن طبيعة العدو والأرض والظروف المحيطة، إضافة إلى استقرار واضح في أمن المدينة الداخلي رغم وجود المنافقين واليهود وغيرهم.^(١)

إن المهام الأمنية فاعلة جداً وحيوية في عصرنا الحاضر، بل تزداد أهميتها كلما زادت خطورة الحرب النفسية، فإن هذه المهام بطبيعتها وسريتها وحسن تنظيمها، تعمل جاهدة على التصدي لحرب العدو النفسية عن طريق مراقبة اتجاهات الدعاية لديه ومصدر الإشاعات ونوعها والتي تنطلق من خلاله لزعزعة استقرار المجتمع، لهذا فقيام أجهزة الأمن بدور الدفاع أو الوقاية من آثار الحرب النفسية يضعها في صلب عملها.

وتعد مقاومة الجاسوسية الجانب الإيجابي من المخابرات الوقائية ويمكن تعريفها بأنها المعرفة والتنظيم والتحليل والنشاط الذي تستخدمه مخابرات الدول لشل نشاط المخابرات المعادية، وإن الهدف الشامل من تلك الجهود هو وقاية أمن الدولة وسلامتها وكذلك منع تسلل عملاء العدو وهي في هذا المجال تصل عن طريق المعرفة إلى إزاحة القناع عن نشاط منظمات العدو، وكشف خططه ونواياه.^(٢)

(١) ينظر: جمال الدين محفوظ، مصدر سابق، ص ٨٣.

(٢) صلاح نصر، الحرب الخفية - فلسفة الجاسوسية ومقاومتها، دار الكتب، بيروت، ١٩٨٢، ص ٢٨ وما بعدها.

الفصل الثالث

الحرب النفسية في القرآن الكريم والسنة النبوية

المبحث الأول : مشروعية وحكم الحرب النفسية

المطلب الأول : مشروعية الحرب النفسية

مرّ بنا أن مصطلح الحرب النفسية أطلق حديثاً على أساليب و صور وردت قديماً في الحروب والصدامات التي وقعت بين البشر، والتي ذكرتها الأدلة الشرعية، بتسميات مختلفة. فمخاطبة النفوس والمعنويات ومحاولة التأثير فيها واستخدام الاقتصاد في الصراع ومحاولات تحقيق النصر على العدو من غير قتال مباشر، ممارسات قديمة لتسمية حديثة أطلقت لتحديد ما ضمن مفهوم معين، وسنحاول هنا تلمس مشروعية الحرب النفسية من خلال النظر في: القرآن الكريم و السنة النبوية وأقوال الفقهاء، ومن خلال ما يأتي :

أولاً : في القرآن الكريم :

قوله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فهو أمر من الله تعالى بالإعداد لمواجهة العدو وإرهابه وإظهار القوة له و الحرب النفسية بكل صورها و أساليبها جزء من هذا الإعداد، فالإعداد في الجانب المعنوي لا يقل أهمية عن الإعداد في الجانب المادي و كذلك كلمة (ترهبون) التي وردت في الآية الكريمة فهي تشمل أيضاً إرهاب العدو معنوياً و مادياً، أما قوله تعالى (وأعدّوا) فقد جاء بصيغة الأمر، و الأمر يقتضي الوجوب كما يقول الأصوليون^(١).

(١) المقصود بذلك : ما لم يقدّم دليل على خلاف ذلك . ينظر : إمام الحرمين الجويني، البرهان (١/ ٢٠٣)،

والدكتور مصطفى الزلمي، أصول الفقه في نسيجه الجديد، شركة الخنساء للطباعة، بغداد، ٢٠٠٢، ط

و وجه الدلالة يتضح في قول القرطبي : «قوله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ﴾ أمر الله سبحانه وتعالى بإعداد القوة للأعداء وقوله تعالى : ﴿تَرْهَبُونَ بِهِ﴾ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ يعني : تخيفون به عدو الله وعدوكم من اليهود وقريش وكفار العرب ﴿وَأَخْرَجَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ يعني فارس و الروم، قاله : السدي، وقيل : الجن، وهو اختيار الطبري، وقيل : المراد بذلك كل من لا تعرف عداوته...»^(١).

وقال فخر الدين الرازي في تعليل الأمر بإعداد القوة في قوله تعالى : ﴿تَرْهَبُونَ بِهِ﴾ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ : ثم إن الله تعالى ذكر ما لأجله أمر بإعداد هذه الأشياء، فقال : ترهبون به عدوا الله وعدوكم، وذلك أن الكفار إذا علموا كون المسلمين متأهبين للجهاد ومستعدين له، مستكملين لجميع الأسلحة والآلات خافوهم^(٢).

قوله تعالى : ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَيَتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَرُغَبَ فَاَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]. ودلالة الآية قول الطبري : (يقول : قوّوا عزمهم، وصححوا نياتهم في قتال عدوهم من المشركين، وقد قيل : إن تثبيت الملائكة المؤمنين كان حضورهم حربهم معهم، وقيل : كان ذلك بأن الملك يأتي الرجل من أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - يقول : سمعت هؤلاء القوم، يعني المشركين يقولون : والله لئن حملوا علينا لننكشفن، فيحدث المسلمون بعضهم بعضاً بذلك، فتقوى أنفسهم، قالوا : وذلك كان وحي الله إلى الملائكة).^(٣) ويقول ابن عطية - رحمه الله - في تفسيره لقوله تعالى : ﴿سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَرُغَبَ﴾ : (فسخر الله ذلك الرجل معبد بن أبي معبد وألقى بسببه الرعب في قلوب الكفار، وذلك أنه لما سمع الخبر ركب حتى لحق بأبي سفيان

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (١٠ / ٣٩٧).

(٢) ينظر : الرازي، التفسير الكبير (٤ / ٤٧٧).

(٣) الطبري، تفسير الطبري، ج ٩، ص ١٩٧.

بالروحاء فلما سمع أبو سفيان معبدًا، قال ما وراءك يا معبد؟ قال : محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط ! يتحرقون عليكم) .^(١)

وقال الزجاج :- كان بأشياء يلقونها في قلوبهم تصح بها عزائمهم - أي المؤمنين - وللملك قوة إلقاء الخير في القلوب ويقال له إلهام كما أن للشيطان قوة إلقاء الشر ويقال له وسوسة، وقيل : كان ذلك بمجرد تكثير السواد - أي حضور الملائكة مع المؤمنين.^(٢) وعلى كل حال فإن حضور الملائكة مع المؤمنين ومعية الله تعالى معهم وإلقائه الرعب في قلوب الكفار هو نوع من إرباكهم وزعزعة معنوياتهم وإفلاق نفسيتهم فهو في الحالتين حرب نفسية واضحة ومؤكدة^(٣) .

قوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦] .

وغيرها من النصوص الشرعية التي أمرت بقتال الأعداء وهي كثيرة ومختلفة الأغراض والأهداف والمناسبات وهي على كثرتها لم تحدد نوع القتال أو تحصره بنمط القتال المباشر فقط بل إن ذلك يشكل كل الوسائل والأساليب التي يتم من خلالها

(١) ابن عطية، التفسير (٣/ ٣٦٧) وابن كثير، تفسير ابن كثير (١/ ٤٠٦) .

(٢) الألوسي، روح المعاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلا سنة طبع، ج ٩، ص ١٧٧ .

(٣) وقد ورد في سورة الحشر قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا

ظَنُّوا أَن يَخْرِجُوهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ مَانَعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرَوْنَ يَدِيَهُمْ وَآيِدِي الْمُؤْمِنِينَ فَأَعْتَبُوا بِتَأْوِيلِ الْأَنْصَرِ ﴿١﴾﴾ [الحشر: ٢] . وفي سورة الأحزاب:

﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَافِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقَاتَلُوا وَفَرِيقًا قَاتَلُوا﴾ [الأحزاب: ٢٦] . وهما تسجلان معارك المسلمين مع اليهود أما آيتي الأنفال وآل عمران

فهما عن المعارك مع المشركين، وفي آيتي الكفار وصف الله تعالى الرعب بالإلقاء وفي آيتي اليهود وصفه بالقذف .

إيقاع الهزيمة بالخصم، وفي مقدمتها كل ما يتبع في إطار الحرب النفسية التي يدل اسمها على كونها حالة من المواجهة و الصدام مع العدو. قال القرطبي في بيان دلالة الآية : (وإنما معنى هذه الآية الحُض على قتالهم و التحزب عليهم و جمع الكلمة، ثم قيدها بقوله : ﴿ كَمَا يُقْنِلُونَكُمْ كَأَفَّةً ﴾ فبحسب قتالهم واجتماعهم لنا يكون فرض اجتماعنا لهم ...) .^(١) والملاحظ من كلام القرطبي - رحمه الله - أن : (الحُض على قتالهم و التحزب عليهم و جمع الكلمة) تحمل الكثير من معاني الحرب النفسية حيث تعزيز المعنويات وتهيئة الطاقات مجتمعة لذلك، وهي جميعاً تدخل في مفهوم الجهاد الذي هو أوسع من القتال، ويقول صاحب الظلال : (فالجهاد كلمة جامعة تشتمل جميع أنواع السعي وبذل الجهد، وإذا عرفت هذا فلا تعجب إذا قلت : إن تغيير وجهات نظر الناس وتبديل ميولهم و نزعاتهم و إحداث انقلاب فكري وعقلي بواسطة مرهفات الأقلام نوع من أنواع الجهاد).^(٢)

وفي المحصلة إن جهاد العدو لا يشمل فقط القتال المباشر، بل يمتد إلى نواح أخرى، منها الحرب النفسية .

قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضٌ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ... ﴾ [الأنفال: ٦٥] التي قال القرطبي في تفسيرها : (أي حثهم و حضهم، يقال : حارض على الأمر و واطب و واسب وأكب بمعنى واحد) .^(٣)

و ذكر الألوسي في معرض تفسيره لها : (والتحريض : الحث على الشيء، وقال الزجاج: هو في اللغة أن يحث الإنسان على شيء حتى يعلم منه إنه حارض، أي مقارب للهلاك وعلى هذا فهو للمبالغة في الحث، والتحريض الحث على الشيء بكثرة

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (١٠ / ٤٧٤).

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، (٩ / ١٤٤٧) .

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، المجلد الرابع، ج ١٠، ص ٤٠٢.

التزين وتسهيل الخطب فيه، فالمعنى هنا : يا أيها النبي بالغ في حث المؤمنين على قتال الكفار (١). ففي هذا التحريض المعنوي كف لدعاية الكفار وبأسهم بأساليب أخرى أهمها تعزيز المعنويات ووحدة الصف لتقف حائلاً أمام بأس الذين كفروا وفي شن الحرب النفسية ضدهم .

قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۖ ﴾ [الأحزاب: ٦٠] . ودلالة الآية يتضح فيها قاله القرطبي - رحمه الله - في بيانه لعمل المرجفين : (المرجفون في المدينة قوم كانوا يخبرون المؤمنين بما يسوؤهم من عدوهم فيقولون إذا خرجت سرايا رسول الله ﷺ: قد قتلوا أو هزموا، وإن العدو قد أتاكم... والإرجاف إلتماس الفتنة والإرجاف إشاعة الكذب و الباطل للاغتمام به وقيل: تحريك القلوب، ويقال: رجفت الأرض، أي: تحركت وترزلت) . (٢)

و حيث إن الإرجاف يزعزع القلوب ويزحزح الأفئدة عن ثباتها فقد جعل الله تعالى جريمة الإرجاف موجبة للقتل ما لم ينته المرجفون، فإن تابوا كان ذلك موجباً للتعزيز حسب درجة خطورتها ومعصيتها . (٣)

ووضع الزمخشري - رحمه الله - تفسير الآية في معناها ضمن أساليب الحرب النفسية وتأکید مشروعية شنّها بقوله : (لئن لم ينته المنافقون عن عداوتكم وكيدكم والفسقة عن فجورهم و المرجفون عما يؤلفون من أخبار السوء لنأمرنك بأن تفعل بهم الأفاعيل التي تسوؤهم وتنوؤهم ثم بأن تضطرهم إلى طلب الجلاء عن المدينة) . (٤)

(١) الألوسي، روح المعاني، ج ١٠، ص ٤٣١ .

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٤، ص ٢٤٥ .

(٣) ينظر: الدكتور خالد الجميلي، أحكام الإشاعة والحرب النفسية في الشريعة الإسلامية، ص ١١٨ .

(٤) الزمخشري، الكشاف (٣/ ٥٦١) .

و من هنا يتضح أن عمل المرجفين هو تخذيل معنويات المسلمين و نشر الرعب في صفوفهم و هو حرب نفسية توعدهم القرآن الكريم إذا لم ينتهوا عنها بإجلالهم من المدينة و هذا أسلوب آخر في الحرب النفسية .

ثانياً - في السنة النبوية :

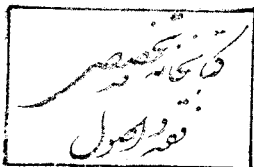
١- قوله ﷺ : (فَضَلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بَسْتُ : أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، وَنَصَرْتُ بِالرَّعْبِ ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ ، وَجَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ مَسْجِداً وَطَهوراً ، وَأُرْسِلْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً ، وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ) .^(١)

وجه الدلالة فيه : أنه - عليه الصلاة والسلام - اعتبر مقدرته على التأثير في نفس العدو فضيلة من الفضائل الممنوحة من قبل الله تعالى ، بل أثبت الرسول ﷺ في سنته الشريفة أن الحرب النفسية جزء لا يتجزأ من الجهاد فعمل بفنونها وأساليبها وابتكر الجديد فيها لتحقيق النصر على العدو .

و يروي أصحاب السير أن رسول الله ﷺ لم يقتل أحداً بيده إلا أبي بن خلف فكان يهدد ويستفز الرسول - عليه الصلاة والسلام - في مكة المكرمة بقوله : يا محمد إن عندي (العوذ) فرساً أعلفه كل يوم سأقتلك عليه ، فيجيبه الرسول - عليه الصلاة والسلام - : بل أنا أقتلك إن شاء الله ، وقد حدث هذا في معركة أحد ، فبعد أن جرح الرسول ﷺ والتجأ إلى زاوية من الجبل ، نادى أبي : أين محمد ، لا نجوت إن نجا .

فهّم المسلمون بقتاله ، إلا أن الرسول ﷺ قال لهم اتركوه وأخذ الحربة من أحد الصحابة و انتفض بها انتفاضة هزت القوم ، وضرب بها أبي بن خلف ضربة أصابت عنقه فانقلب عن فرسه متدحرجاً و أسرع إلى قريش قائلاً : قتلني محمد ، فلما رأو

(١) رواه مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب : المساجد ومواضع الصلاة ، برقم : ٥٢٣ ،



جرحه وجدوه غير قاتل، فقالوا : هوّن عليك فما بك من بأس، فقال : كذبتُم لقد روعني محمد والله لو بصق عليّ لقتلني، ومات فعلاً في الطريق إلى مكة^(١)

ومن الحديث والقصة المشهورة نقف على درس مهم هو أن السيطرة على معنويات الخصم وإرباكه نفسياً كفيل بتحقيق الظفر عليه حتى إذا كان أكثر خبرة أو أفضل تسليحاً و هو فعل مؤثر في إخضاع المقابل بأقل الخسائر الممكنة ومن هنا تتضح مشروعيته .

٢- قول رسول الله ﷺ : (.. الحرب خدعة ..)^(٢) .

ووجه دلالة الحديث : (وفيه التحريض على أخذ الحذر في الحرب و النذب إلى خداع الكفار، وإن لم يستيقظ لذلك لم يأمن أن ينعكس الأمر عليه ... قال ابن العربي: الخداع في الحرب يقع بالتعريف وبالكمين وغير ذلك، وفي الحديث إشارة إلى استعمال الرأي في الحرب، بل الاحتياج إليه أكد من الشجاعة، ولهذا وقع الاختصار على ما يشير إليه بهذا الحديث ...)^(٣) .

و ذكر النووي في شرحه لصحيح مسلم : (واتفق العلماء على جواز خداع الكفار في الحرب كيف أمكن الخداع، إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان، فلا يحل)^(٤) .

وقد ورد في سنة الرسول ﷺ الترخيص في استخدام الكذب في حرب العدو في مواضع عدة، من أشهرها قصة قتل (كعب بن الأشرف)، ففي صحيح البخاري

(١) ينظر : ابن هشام، السيرة النبوية (٢ / ٣١) .

(٢) أخرجه الشيخان من حديث جابر، باللفظ نفسه، ينظر صحيح البخاري (٣ / ١١٠٢) وصحيح مسلم (٣ / ١٣٦١) .

(٣) فتح الباري (٦ / ١٥٨) .

(٤) شرح النووي على مسلم (٧ / ٣٢٠) .

ومسلم عن جابر : (قال رسول الله ﷺ من لكعب بن الأشرف ؟ فإنه آذى الله ورسوله ! فقال محمد بن مسلمة : يا رسول الله ! أتحب أن أقتله ؟ قال : نعم ، قال ائذن لي فلاقتل ! قال : قل) .^(١)

٣- عن أنس رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألستكم) .^(٢)

فوضع ﷺ جهاد اللسان و المال في نفس أهمية جهاد النفس و فيه إشارة إلى أهمية الحرب النفسية ، كما أن النبي ﷺ خرج قائداً للناس يوم بدر فحثهم وحرصهم على جهاد العدو ، ثم قال : « و الذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » فقال عمير بن الحمام ، وفي يده تمرات يأكلها : (بخ بخ فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء) ... فقذف التمر من يده وشهر سيفه فقاتل المشركين حتى قتل .^(٣)

وقوله : (بخ بخ) بفتح الباء وإسكان الخاء المعجمة ، وهي كلمة تقال : عند تعظيم الأمر وتفخيمه تعجباً ، و يقال : بخ بخ بالخفض منوناً .^(٤) ، ولا شك أن كلمات الرسول ﷺ ساهمت في رفع معنويات هذا الصحابي فلم يعد قادراً على العيش في الدنيا ولو لدقائق يأكل فيها بضع تمرات وهو يرى الأعداء أمامه حتى فعل ما فعل .

(١) البخاري ، صحيح البخاري (٣٠٣٢) / فتح الباري (١٦٠ / ٦) ، واللفظ لمسلم ، ج ٣ ، ص ١٤٢٥ ، برقم (١٨٠١) .

(٢) رواه أبو داود في كتاب الجهاد بإسناد صحيح على شرط مسلم (٢٢ / ٣) .

(٣) ينظر : مسلم ، صحيح مسلم ، رقم (١٩٠١) كتاب الإمامة ، باب : ثبوت الجنة للشهيد ، (٣ / ١٥١٠) .

(٤) ينظر : ابن النحاس ، مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ، تحقيق : إدريس محمد علي ومحمد خالد اسطنبولي ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، ٢٠٠٢ ، ج ١ ، ط ٣ ، ص ١٩٩ .

كان رسول الله ﷺ يكلف رجالاً من الصحابة - رضي الله عنهم - لتشكيك العدو وبث الدعاية المفرقة لصفوفه فيتفرقوا مهزومين .

ففي معركة الخندق ساق الله تعالى، نعيم بن مسعود ليعلن إسلامه أمام رسول الله ﷺ قائلاً: إن قومي لا يعلمون بإسلامي فمرني بما شئت، فقال له رسول الله ﷺ :
(إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة) .^(١)

فتوغل نعيم في معسكر المشركين و دفع اليهود لطلب رهائن من قريش حتى تبقى على تعاونها معها في حرب المسلمين و ذهب إلى معسكر قريش ليحذرهم من طلب اليهود فلا يستجيبوا له فحدث الشقاق بين الطرفين وانقضى حلفهم .

و في قول رسول الله ﷺ له : (إنما أنت فينا رجل واحد) يعني أن وجوده مع مقاتلي المسلمين لن يضيف شيئاً مؤثراً بنفس مقدار فعله إذا نجح في الحرب النفسية . وفي المعركة نفسها وقد أوشك معسكر العدو على الانهيار والتفريق، طلب رسول الله ﷺ من يستطلع له أخبار العدو ويحمل له أخبارهم فيتخذ الفعل المناسب، وهي من صلب مهمات الحرب النفسية، فقال : (ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة) .^(٢) وهنا استعمل طريقة الترغيب فلما لم يجد أحداً يقوم بذلك، عيّن صحابياً ليقوم بهذه المهمة من الحرب النفسية، فقال : «قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم ولا تدعهم عليّ» .^(٣)

فمهمة حذيفة ؓ هنا، هي التجسس على العدو وهي حرب نفسية، ثم هو مقيد بوصيته عدم إثارتهم ضد جيش المسلمين و لهذا ترك أبو سفيان طليقاً بعد أن كان

(١) مَرَّخْرِيج الحديث في الصفحة السابقة .

(٢) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب : غزوة الأحزاب، برقم (١٧٨٨) .

(٣) مسلم، نفس الحديث السابق .

بإمكانه قتله بسهولة بسهم من كنانته وهو لا يدري، فقام بواجبه كأفضل ما تكون عليه شروط العمل بالحرب النفسية وهي تؤكد مشروعيتها .

روى أصحاب السير أنه : (خرج ﷺ في مائتين من أصحابه فسمعت به بنو لحيان فهربوا في رؤوس الجبال، فسار إلى عسفان، لتسمع به قريش فيدخلهم الرعب ويريمهم من نفسه قوة) .^(١)

و كانت هذه الغزوة وما حققته في إطار الحرب النفسية لإثارة ذعر الأعداء، لحماية حق الدعوة الإسلامية ونشرها، وهذا يثبت مشروعية الحرب النفسية لهذا الغرض وغيره. وكانت بنو لحيان قد تعرضت بالغدر لعشرة من الدعاة أرسلهم رسول الله ﷺ للدعوة في بعض أرجاء الجزيرة فاستشهدوا جميعاً في حادثة عرفت بفاجعة الرجيع.

ثم جاء وقت الانتقام من هؤلاء وإثبات أهمية الداعية في التشريع الإسلامي مما يعزز معنويات المسلمين ويهرب الأعداء بزرع الذعر في صفوفهم، وفي هذه الغزوة التي بقي فيها رسول الله ﷺ في ديار القوم ليومين دون أن يواجهه أحد، أرسل رسول الله ﷺ عشرة من فرسان المسلمين بقيادة أبي بكر الصديق رضي الله عنه للقيام بمناورة عسكرية هدفها إظهار القوة للمشركين وإثارة خوفهم، وقد سمعت قريش بذلك فظنت أن المسلمين سيغزونهم فأصابها الخوف والفرع والرعب ... وهكذا حققت هذه الغزوة أهدافاً مهمة ضمن سياق الحرب النفسية^(٢).

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٩٥).

(٢) د. علي الصلابي، السيرة النبوية، مصدر سابق، ص ٦٤٦.

ثالثاً- في إجماع العلماء :

تكلم عدد من فقهاء المسلمين عن ترجيح وسيلة التأثير على العدو و دفعه للتسليم بغير قتال مباشر لما في ذلك من تمثّل حقيقي لروح الإسلام الذي يمثل الإنسانية فيه قيمة عليا و هدايته للخير والصالح أفضل بكثير من بقاءه على الكفر أو قتله بما يعني إضفاء المشروعية على سلوك أساليب الحرب النفسية للتأثير على الخصم .يقول الخطيب الشربيني - أحد فقهاء الشافعية في القرن العاشر الهجري - : (وجوب الجهاد وجوب الوسائل لا المقاصد، إذ المقصود بالقتال : إنها هو الهداية وما سواها من الشهادة وأما قتل الكفار فليس بمقصود حتى لو أمكن الهداية بإقامة الدليل بغير جهاد كان أولى من الجهاد).^(١)

فدعوة الناس إلى الدين هي المقصد الأول، فإذا تعذرت فحرب الكلمة والدعاية والتأثير على المعنويات، فإذا لم يتحقق مقصد الهداية من خلال الدعوة فالحرب، وهي هنا ليست لقتل المشركين بل لإزالة سلطان من يمنعهم من الاستجابة للدعوة .

بل ويرجح الفقهاء استخدام المصالحة - حين تكون حرباً نفسية - لإيقاع اندفاع العدو، على الاستمرار معه في القتال وطمعاً في تحقيق مصلحة راجحة حتى إذا كانت في المستقبل، ويقر بذلك ابن القيم - رحمه الله - في حديثه عن فوائد قصة الحديبية وبأن مصالحة المشركين ببعض ما فيه من ضيم على المسلمين جائزة للمصلحة الراجحة ودفع ما هو شر منه، ففيه دفع أعلى المفسدين باحتمال أدناهما .^(٢)

وهذا بلا شك يمنح الحرب النفسية مشروعية في استخدامها مع العدو دفعاً لمفسدة القتل والتدمير.

(١) ابن قدامة، مغني المحتاج (٤/٢٠٨) .

(٢) ابن القيم، زاد المعاد (٣/٣٠٦) .

أفاض الفقهاء في حديثهم عن مسألة حضور (المخذل) الحرب مع المسلمين اعترافاً منهم بدور هؤلاء في تهوين عزيمة المسلمين وإضعاف معنوياتهم و في هذا الإجراء تصدياً للحرب النفسية، كما تعتبر حرباً نفسية بذاتها معززة للمعنويات .

يقول ابن قدامة في المغني : (ولا يستصحب الأمير معه مخذلاً : وهو الذي يثبط الناس عن الغزو ويزهدهم في الخروج إليه، والقتال، والجهاد، مثل أن يقول : الحر أو البرد شديد والمشقة شديدة و لا تؤمن هزيمة هذا الجيش وأشباه هذا، ولا مرجفاً وهو الذي يقول : قد هلكت سرية المسلمين و ما لهم مدد ولا طاقة لهم بالكفار، والكفار لهم قوة و مدد و صبر ولا يثبت لهم أحد، ونحو هذا) .^(١)

وقال غيرهم من الفقهاء : يمنع الأمير المخذل - المهوّن لعزيمة الجند - من الحضور في الجيش فإن خرج رده، فإن قاتل لم يستحق شيئاً، ولو قتل كافراً، لا يستحق سلبه عند الشافعي وأحمد .

والمخذل : هو من يخوف الناس، بأن يقول : عدونا كثير وخيولنا ضعيفة ولا طاقة لنا بهم، ونحو ذلك، وفي معناه : المرجف وهو من يكثر الأراجيف بقوله : أقبلت سرية كذا أو لحق بالعدو مدد كذا فعله أو يستعملون لنا كميناً، وسوى ذلك من أقوال تضعف المعنويات .^(٢)

وفي إبعاد هؤلاء عن صف المؤمنين ومنعهم من مخالطة الجيش صورة من صور التصدي المشروع للحرب النفسية .

أقرّ الفقهاء معاقبة المحرّضين على قتال المسلمين ممن كانوا يشنون حرباً نفسية

(١) ابن قدامة، المغني (١٠ / ٣٧٢) الشرييني، مغني المحتاج (٤ / ٢٢١)، والشافعي، الأم (٤ / ١٦٦) .

(٢) ينظر : ابن النحاس، مشارع الأشواق، المجلد الثاني، ص ١٠٢٥ .

عليهم بالشعر والدعاية وتكثير سوادهم، بل وأجازوا قتل من لا يجوز قتله في الحرب المباشرة إذا أثبت أنه يحرّض على قتال المسلمين أو صد حربه بحرب نفسية مثلها .

(وأما قتل من أضعفه أو أعجزته الزمانة أو كان ممن تخلى من الرهبان وأصحاب الصوامع فإن كانوا يمدون المقاتلة برأيهم ويحرضونهم على القتال جاز قتلهم عند الظفر بهم) . ^(١) ويأتي هذا الجواز لمنع هؤلاء من مساعدة العدو في شن الحرب النفسية، ويمثل هذا التصدي لهم حرماناً لصف العدو من الاستفادة من دعايتهم وهو أسلوب مشروع من أساليب الحرب النفسية، وقد استند الفقهاء في ذلك إلى ما روي عن الرسول ﷺ في أنه أجاز معاقبة ستة أنفار من المشركين من الذين كانوا يحرضون على قتال المسلمين وحربهم . ويقع حكم المحرّض على رعايا الدولة التي يخوض معها المسلمون حرباً، فلا يجوز لهم تحريض دولهم ضد المسلمين و منعهم من ذلك مشروع في إطار شن الحرب النفسية عليهم : (ويمنع المستأمن حال الحرب من محاولة الدس و الوقعة بين صفوف المواطنين، كما يمنع من الدعاية لقومه لرفع قواهم المعنوية وإضعاف الروح العامة لدى خصومهم) . ^(٢)

فإذا أصر هؤلاء على التحرض لدولهم وعقائدهم و استمروا في شن الحرب النفسية ضد المسلمين أبعدوا و طردوا، فمثل ذلك حرباً نفسية مضادة لهم وللجهات التي يعودون لها (فإذا أحس المسلمون من المستأمن من خيانة بأمارات تدل على ذلك أبعد من إقليم الإسلام، وبهذا يظهر أن حق الإبعاد أو الطرد في الإسلام - أو بتعبير ألطف (النبذ) - مقيد بخوف الخيانة التي تدل عليها دلائل كافية كما حصل في إجلاء عمر لليهود من المدينة و خير) . ^(٣)

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٣، ص ١٧٠ .

(٢) د . وهبة الزحيلي، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٢، ط ٤، ص ٢٥١ .

(٣) ينظر وهبة الزحيلي، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، مصدر سابق، ص ٥٠٨ .

ومن هذا تتضح مشروعية حرمان العدو من مصادر دعايته وتجنسه على مجتمع المسلمين مما يمثل حرباً مضادة ضده .

تتضح مشروعية الحرب النفسية بما أجازها الفقهاء من أساليب وصور إيذاء العدو اقتصادياً، بحرمانه من موارده أو بإتلاف زروعه أو بحصاره، أو بتهديده كما فعل أبو بصير حين أفلت من أسريه ولم يكن بإمكانه الانضمام للمسلمين في المدينة بعد شروط صلح الحديبية فحارب المشركين اقتصادياً (وكان يقطع الطريق على تجارة قريش وعلى غيرهم) .^(١)

وأجاز الفقهاء حرق منشآت العدو وتدمير زروعه إذا رأوا في ذلك مصلحة، كدفعه للتسليم أو دون استمراره بالحرب : (وإذا رأى في قطع نخلمهم و شجرهم صلاحاً يستضعفهم به ليظفر بهم عنوة أو يدخلوا في السلم صلحاً فعل ولا يفعل إن لم ير فيه صلاحاً) .^(٢)

وما عليه جمهور الفقهاء في قطع أشجار العدو : (يجوز أن نقطع وهو قول كثير من العلماء وفيهم الحنفية و المالكية و الحنابلة في الرواية الثانية عنهم ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَرَكْتُمْهَا فَأَيْمَةٌ عَلَى أَصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الحشر: ٥] فقد دلت هذه الآية على جواز قطع الأشجار للكفار بقصد إضعافهم ولما في ذلك من كبت لهم وإغاظة ، وهذا مقتضى قوله تعالى : ﴿ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .^(٣)

وفي قول الفقهاء : إن في حربهم اقتصادياً (كبت وإغاظة) إنما يعني إقراراً للعمل

(١) أبو يوسف، الخراج، المطبعة السلفية، مصر، ١٣٨٢هـ، ط ٢١٢٣.

(٢) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٦٤.

(٣) ينظر : الشوكاني، شرح فتح القدير (٤٤٧/٥)، والكاساني، البدائع (١٠٠/٧)، وابن قدامة، المغني (٤٥٤/٨).

بأساليب الحرب النفسية ضد العدو و مشروعية لها .

ويرى ذلك طائفة من فقهاءنا المعاصرين : (ويجوز التغريق بالماء ولا مانع من قطع المياه عن الجيش المقاتل لحملة على التسليم ولا مانع من الحصار أو الحرب براً وبحراً لمنع الإمدادات والإلجاء إلى التسليم وكذا الحصار الاقتصادي للتضييق على العدو و إرباك مخططاته وإضعافه) .^(١)

أوجبت آراء الفقهاء العميل بالتجسس على الأعداء وبث العيون لرصد أخبارهم وتحركاتهم من جهة وأوجبت التصدي لما يقوم به العدو من تجسس ضد المسلمين، وهو ما يعد من مهام الحرب النفسية في كل زمان ومكان، حيث يرى الفقهاء : (وأهم ما ينبغي لصاحب الجيش قبل القتال أن ييث الجواسيس الثقات عنده في عسكر عدوه ليتعرف أخبارهم مع الساعات وما عندهم من العدد والآلات ويحزر أعدادهم، ويتنسم ما دبروه من المكاييد ويبحث عن أساء رؤسائهم وشجعانهم) .^(٢)

كما أجاز الفقهاء معاقبة جواسيس العدو إذا ثبت أنهم يعملون لصالحه : (يجوز قتل من قدم منهم لتجارة ثم تبين أن قدومه إنما كان للتجسس و أنه عين لأهل الحرب، ويسقط ما كان له من الأمان) .^(٣)

بل إن الفقهاء أوجبوا خروج الذمي في بلاد المسلمين من مقتضى عقد الذمة وحماية المسلمين إذا ثبت أنه أعان جاسوساً على المسلمين : (كذلك ما لو آوى الذمي

(١) د . وهبة الزحيلي، أحكام الحرب و السلم في الإسلام، مجلة الشريعة والقانون، الإمارات، العدد ٣، ١٩٨٩، ص ٢٧ .

(٢) ينظر : ابن النحاس ، المجلد الثاني، ص ١٠٧٥ .

(٣) ينظر : التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية، محمد راكان الدغمي، دار السلام، القاهرة، ط ٣، ٢٠٠٦، ص ٤٣ .

جاسوساً أرسله الكفار ليتلصص في بلاد المسلمين فيقف على بعض أخبارهم لينقلها إلى الأعداء وكذلك ما لو دل أهل الحرب على عورات المسلمين ...). (١)

ولا تخفى أهمية التجسس في الحرب النفسية، بل إجازة العمل به ضد الأعداء ومقاومته لحماية المجتمع يثبت مشروعية الحرب النفسية .

المطلب الثاني : حكم الحرب النفسية

توصلنا في إثبات مشروعية الحرب النفسية إلى أنها جزء لا يتجزأ من الجهاد في سبيل الله، لهدفها في إلحاق الأذى والضرر و النكاية بالعدو، وبأدلة كثيرة من الكتاب والسنة وأقوال أهل العلم، لذلك فهي من زاوية علاقتها بالأحكام الشرعية التكليفية، تأخذ حكم حالات : الفرضية، والحرمة والكراهة، والإباحة، وسنحاول هنا بيان هذه الحالات وأحكامها بإذن الله.

والحرب النفسية باعتبارها من صور الجهاد فقد اتفق الفقهاء على فرضيتها، إلا أنهم انقسموا إلى فريقين في كونها فرض عين أم فرض كفاية .
أولاً - الفريق الأول : الحرب النفسية فرض عين (٢) :

وقال به عدد من الفقهاء، حيث ذكروا لذلك حالات هي :

(١) ابن قدامة، المغني (٨/ ٥٢٥) .

(٢) يعرف فرض العين بأنه : (هو ما طلب الشارع فعله من كل فرد من أفراد المكلفين، وسمي واجباً عيناً لأن خطاب الشارع يتوجه إلى كل مكلف آخذ به، فلا بد من أدائه من جميع المكلفين كالصلاة والزكاة والحج واجتناب الخمر والميسر، و حكمه أن كل مكلف ملتزم به وإن ذمته مشغولة به حتى يؤديه بنفسه، فإن قام به فله الأجر والثواب وإن تركه فهو آثم وعليه العقاب . (ينظر الدكتور محمد مصطفى الزحيلي، أصول الفقه الإسلامي، ص ٢٥٦)

١- إذا احتل العدو بلداً من بلاد المسلمين - أو أراد أهلها أو بطائفة أو أحد منهم بالسوء والاعتداء من أسر أو قتل أو ترويع .

يقول القرطبي : (قد تكون حالة يجب فيها نفير الكل وذلك إذا تعين الجهاد بغلبة العدو على قطر من الأقطار فإن كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافاً وثقلاً ... ولو قارب العدو دار الإسلام ولم يدخلوها لزمهم أيضاً الخروج إليه، حتى يظهر دين الله وتُحمى البيضة وتحفظ الحوزة ويُجزى العدو ولا خلاف في هذا). ^(١)

فهذه الحالة توجب أن تكون الحرب النفسية فرض عين على جميع المسلمين في حالة شنّها أو التصدي لها .

٢- يصير الجهاد فرض عين: إذا أصدر الخليفة أمره بحق طائفة من الجيش أو الأفراد أن يخرجوا للقتال، في حالات الاستعداد أو الاستنفار، فيجب على من عينه الإمام لذلك أن يلتزم بالأمر ويحرم عليه التخلف عن ذلك .

يقول القرطبي : (الاستدعاء والاستنفار يبعد أن يكون موجباً شيئاً لم يجب من قبل إلا أن الإمام إذا عيّن قوماً وندبهم إلى الجهاد لم يكن لهم أن يتثاقلوا عن التعيين، ويصير بتعيينه فرضاً على من عينه لا لمكان الجهاد ولكن لطاعة الإمام والله أعلم). ^(٢)

٣- إذا احتدم القتال بين الفريقين، يصبح أمر مقابلة الأعداء فرض عين ولا يجوز الفرار إلا في حالات التمويه على العدو أو طلب النجدة من بقية المسلمين . قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ١٥١﴾ وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَلَبَّسَ الْمُحْسِرُ

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (٨/ ١٥١ - ١٥٢)، والأم للشافعي (٤/ ١٧٠) .

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨/ ١٤٢)

﴿١٦﴾ [الأنفال: ١٥-١٦]. وحذر النبي ﷺ بشدة من خطيئة الفرار من وجه العدو في المعركة وتوعد الهارين بالإثم والعذاب. ^(١) فقد أخرج البخاري ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال : (اجتنبوا السبع الموبقات) قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قال : (الإشراك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المؤمنات الغافلات المحصنات) ^(٢).

ولا نرى شذوذ حالة الاحتدام مع العدو في الحرب النفسية عن مثلتها في حالة القتال الحقيقي، فيعد الهرب فيها إثماً عظيماً، والله أعلم .

وقد استدل هؤلاء بما يلي :

أ- قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ﴿٣٨﴾ [التوبة: ٣٨].

والتي قال فيها الجصاص : (إن ذلك كان في غزوة تبوك لما ندب إليه النبي ﷺ الناس إليها فكان النفير مع رسول الله ﷺ فرضاً على من استنفر ...) ^(٣).

ومعلوم أن الحرب النفسية أضحت اليوم سلاحاً يحقق النصر لمن يجيد النفرة إليه ويجيد استشهاده .

ب- قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُفَاةً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

(١) ينظر : الدكتور أمير عبد العزيز، فقه الكتاب والسنة، دار السلام، القاهرة، ١٩٩٩، ط١، ص ١٣٣٧.

(٢) البخاري : (٤٦٢ / ٥) برقم (٢٧٦٦) ومسلم (٩٢ / ١) برقم (٨٩) وأبو داود (٢٩٤ / ٣) برقم (٢٨٧٤).

(٣) الجصاص، أحكام القرآن (٣١٠ / ٤).

ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ [التوبة: ٤١].

والتي قال فيها القرطبي: «وذلك إذا تعين الجهاد بغلبة العدو على قطر من الأقطار فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافاً وثقالاً، شباباً وشيوخاً، كل على قدر طاقته ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج...»^(١).

ج- قول رسول الله ﷺ: (لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا)^(٢).

وجاء في أحكام القرآن للجصاص بصدد هذا الحديث :

(وهو محمول على ما ذكرنا من الاستنفار للحاجة إليهم، لأن أهل الثغور متى اكتفوا بأنفسهم ولم تكن حاجة إلى غيرهم فليس يكادون يستنفرون، ولكن لو استنفرهم الإمام فعلى من استنفر من المسلمين أن ينفروا)^(٣).

ثانياً- الفريق الثاني : الحرب النفسية فرض كفاية^(٤):

وقال بذلك جمهور الفقهاء، ومن آرائهم في ذلك :

قال ابن قدامة في المغني : (والجهاد من فروض الكفايات في قول عوام أهل العلم،

(١) القرطبي، الجامع الأحكام القرآن (١٠ / ٤٨٧) .

(٢) ينظر : صحيح البخاري، برقم ٢٨٢٥، وصحيح مسلم، برقم (١٣٥٣) .

(٣) الجصاص، أحكام القرآن ٣١١/٤ .

(٤) الواجب الكفائي : هو ما طلب الشارع فعله من مجموع المكلفين، لا من كل فرد بعينه، فإذا قام به بعض المكلفين فقد تآدى الواجب وسقط الإثم عن الباقي، وسمي واجباً كفاً لأن قيام بعض المكلفين به يكفي للوصول إلى مقصد الشارع، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورد السلام والجهاد، واكتساب العلوم المختلفة (ينظر : الدكتور محمد مصطفى الزحيلي، أصول الفقه الإسلامي، ص ٢٣٥) .

وحُكي عن ابن المسيب أنه من فروض الأعيان .^(١)

و قال ابن حزم في المُحلى : (والجهاد فرض على المسلمين، فإذا قام به من يدفع العدو و يغزوهم في عقر دارهم ويحمي ثغور المسلمين سقط فرضه عن الباقيين وإلا فلا) .^(٢)

٣. جاء في تفسير الآلوسي : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ﴾ [البقرة: ٢١٦] : أي قتال الكفار، وهو فرض عين إن دخلوا بلادنا، وفرض كفاية إن كانوا ببلادهم) .^(٣)

واستدلوا لذلك بما يلي :

أ- قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٥] وداليتها: قول الجصاص: (فلو كان الجهاد فرضاً على كل أحد في نفسه لما كان القاعدون موعودين بالحسنى، بل كانوا يكونون مذمومين مستحقين للعقاب بتركه)^(٤)

ب- قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢] .

وجاء في تفسير الآية عند القرطبي : (الجهاد ليس على الأعيان وأنه فرض كفاية كما تقدم، إذ لو نفر الكل لضاع من وراءهم من العيال، فليخرج فريق منهم للجهاد،

(١) ابن قدامة، المغني (١٠/٣٦٤) .

(٢) ابن حزم، المُحلى (٧/٢٩١) .

(٣) الآلوسي، تفسير الآلوسي (٢/١٠٦) .

(٤) الجصاص، أحكام القرآن، (٤/٣١٥) .

وليقيم فريق يتفقهون في الدين ويحفظون الحريم، حتى إذا عاد النافرون أعلمهم المقيمون ما تعلموه من أحكام الشرع وما تجدد نزوله على النبي ﷺ . (١)

ج- وفي السنة ورد في صحيح مسلم : (عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ بعث بعثاً إلى بني لحيان من هذيل، فقال : لينبث من كل رجلين أحدهما، والأجر بينهما) . (٢)

وقال النووي في شرح الحديث : (اتفق العلماء على أن بني لحيان) كانوا في ذلك الوقت كفاراً فبعث إليهم بعثاً يغزوهم وقال لذلك البعث : ليخرج من كل قبيلة نصف عددها، وهو المراد بقوله : من كل رجلين أحدهما، وأما كون الأجر بينهما فهو محمول على ما إذا خلف المقيم الغازي في أهله بخير ...) . (٣)

ومن هنا نتبين أن آراء الفقهاء بالنسبة لفرض الكفاية : يكون في حالة بدء المسلمين الكفار بالحرب، من أجل دعوتهم للإسلام وهو ما يطلق عليه : الجهاد الهجومي .

كما قرر الفقهاء إن الجهاد يكون فرض كفاية في حالة الدفاع أيضاً، وذلك في حالة كون المعتدى عليهم من المسلمين قادرين على رد الاعتداء، فتكون هنا مشاركة المسلمين معهم في الدفاع فرض كفاية . (٤)

ومن مجمل أدلة الفريقين يتبين أن فرض العين في الحرب النفسية يتضح في كونه واجباً على كل مسلم ومسلمة في حالة التصدي للحرب النفسية المعادية، وذلك

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (٥/ ٢٧٤) .

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي، رقم الحديث ١٨٩٦ .

(٣) النووي، شرح مسلم، (٨/ ١٠١) .

(٤) ينظر : الدكتور محمد خير هيكل، الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، دار البيارق، دار ابن حزم،

١٩٩٦، ط ٢، ص ٨٦٢ .

لكون هذه الحرب تشن على المسلمين على قدم وساق وباستخدام وسائل الإعلام والمناورات السياسية وسلاح الاقتصاد وغيرها، مما يتوجب على كل المسلمين مقاومة دعاية العدو وإشاعته وعدم التهاون في أداء هذا الواجب .

أما فرض الكفاية فيها فيتجلى من زاوية النظر إليها كاختصاص علمي وفكري ومهني فإنها تتطلب ذلك اليوم لتعدد أساليب و وسائل و طرق شن هذه الحرب، مما يتطلب توفر كفاءات وطاقات بشرية لها الدراية و المعرفة بأساليب إرهاب العدو معنوياً و هذا لا يتوفر في مجموع المسلمين فإذا تعينت هذه الحالة يُصبح أمر إعداد هذه الفئة التي تشن حرباً نفسية ضد العدو واجباً، فإذا لم توفر الأمة هؤلاء النفر من المسلمين أثم الجميع لتقصيرهم في ذلك .

ثالثاً: متى تكون الحرب النفسية محرمة^(١) :

و تتجلى حرمتها حين يطرأ حادث من الأسباب العارضة على أحوال المسلمين في مجموعهم أو في أفرادهم فتأخذ الحرب النفسية حكم التحريم^(٢) .

ومن صور ذلك تحريم الإساءة إلى أسرى العدو أو تعذيبهم أو قتلهم نكاية بالعدو ونشراً للرعب بينهم، وقد روي أن أبا عزيز أخا مصعب بن عمير كان في أسرى المشركين يوم بدر فقال : (وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر، لو صية رسول الله ﷺ بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها، قال : فأستحي، فأردها على

(١) يعرف التحريم بأنه : طلب الشارع الكف عن الفعل على وجه الحتم والإلزام، و الأثر المترتب على التحريم الحرمة، فالأول صفة الشارع وشرعه وهو حكم أصولي، والثاني صفة تصرف الإنسان غير المشروع وهو حكم فقهي . (ينظر : الدكتور مصطفى الزلمي، ص ٢١٦)

(٢) ينظر : د . محمد خير هيكل، مصدر سابق، ص ٩٣٩ .

أحدهم فيردها عليّ ما يمسها) .^(١)

كما يحرم منح الأمان أو العفو عن جواسيس العدو إذا ثبت عليهم ذلك : (لو أمن جاسوساً أو طليعة لم ينعقد الأمان ، وينبغي أن لا يستحق التبليغ للمؤمن لأن دخول مثله خيانة فحقه أن يُغتال) .^(٢)

رابعاً : الحرب النفسية في حالة الكراهة ^(٣) :

و من صورها كراهة مفاجئة الخصم بشن الحرب النفسية أو الحرب الفعلية من دون إنذارهم بذلك أو تبليغهم بالدعوة ، قال الماوردي : (فإن بدأ بقتالهم قبل دعائهم إلى الإسلام وإنذارهم بالحجة وقتلهم غرة وبياتاً ضمن ديات نفوسهم ، وكانت على الأصح من مذهب الشافعي كديات المسلمين ، وقيل : بل كديات الكفار على اختلافها اختلاف معتقدهم) .^(٤)

و قال غيره من العلماء في حكم الكراهة في حالات أخرى : (يكره نقل رؤوس المشركين من بلد إلى بلد والمثلة بقتلاهم وتعذيبهم ، ويكره رميها في المنجنيق) .^(٥)

كما أن رسول الله ﷺ صبر واحتسب على تمثيل المشركين في جثة حمزة بن

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، (٥ / ٣١٤) .

(٢) ابن النحاس ، مصدر سابق ، مجلد ٢ ، ص ١٠٦٢ .

(٣) يُعرف حكم الكراهة أنه : طلب الشارع الكف عن الفعل طلباً غير جازم وهي بهذا المعنى صفة الشارع والأثر المترتب عليه هو الكراهة التي هي صفة التصرف ، والفعل المطلوب تركه طلباً غير جازم يسمى مكروهاً وهو ما يمدح تاركه ولا يعاقب فاعله . (ينظر : الدكتور مصطفى الزلي ، مصدر سابق ، ص ٢١٧) .

(٤) الماوردي ، الأحكام السلطانية (٥٠) و ينظر : الشافعي ، الأم (٤ / ٢٣٩) .

(٥) ابن قدامة ، المغني (١٠ / ٥٦٥ - ٥٦٦) .

عبدالمطلب ﷺ في معركة أُحُد ولم يقابلهم بمثل ما فعلوا مما يدل على كراهة هذا الفعل للتأثير في معنويات العدو .^(١)

خامساً - حين تكون الحرب النفسية مباحة^(٢) :

ويتجلى هذا الحكم في جملة صور وحالات في الحرب النفسية منها ما يتضح في حكم الاستعانة بالمشرك في هذه الحرب أو في قتال العدو بشكل عام، والتي يقول فيها أهل العلم : (تجوز الاستعانة بالكفار في القتال بشرطين : أحدهما : أن تؤمن خيانتهم .

والثاني : أن يكونوا بحيث لو خانوا وانضموا إلى الكفار قاومناهم . ومذهب مالك أنه لا يستعان بالمشركون في القتال إلا أن يكونوا نواتية - الملاحون في البحر - وخداماً، وقال أحمد : لا يستعان بمشرك، وعنه جواز الاستعانة به) .^(٣)

(١) ينظر : الدكتور علي الصلاحي، السيرة النبوية، مصدر سابق، ص ٤٨٨ .

(٢) يعرف فعل الإباحة بأنه : طلب الشارع ممارسة العمل والامتناع عنه على وجه التخيير وهي التسوية بين فعل الشيء وتركه تخيير الإنسان بينهما دون لوم أو مدح أو ثواب أو عقاب . (ينظر : الدكتور مصطفى الزلمي، مصدر سابق، ص ٢٢٠ .

(٣) ابن قدامة، المغني (١٠ / ٤٥٦) .

المبحث الثاني: الحرب النفسية في القرآن الكريم

صور وأساليب الحرب النفسية في القرآن الكريم

صوّر القرآن الكريم حرب البشر كتجسيد لسنة الصراع والتدافع بينهم، بين معسكري الحق والباطل، مدفوعين إلى ذلك لجملة أسباب نفسية واجتماعية أو اقتصادية أو غيرها، قال تعالى: ﴿وَأَنذَرُ عَلَيْهِم نَبَأَ آتِيٍّ ءَادَمُ يَالْحَقُّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧]. ثم ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المائدة: ٣٠].

وهكذا كان الحسد ومحاولة إفزاز المقابل وإرهابه بداية طريق الحرب بين الطرفين حيث انتهت بقتل قابيل لأخيه بعد أن فشلت بقية وسائل الإخضاع في رأيه.

ويعلق (سيد قطب) عن ماهية هذا الصراع والتدافع المستمر بقوله:

(وفي أحداث المعركة التي تصورها القصة بين الإنسان والشیطان مذكر دائم بطبيعة المعركة: إنها بين عهد الله وغواية الشيطان، بين الإيمان والكفر، بين الحق والباطل، بين الهدى والضلال، والإنسان هو نفسه ميدان المعركة، وهو نفسه الكاسب أو الخاسر فيها، وفي هذا إجماع دائم له باليقظة، وتوجيه دائم له بأنه جندي في ميدان، وانه صاحب الغنيمة أو السلب في هذا الميدان)^(١).

إن القرآن الكريم يقر في أكثر من آية كريمة بوجود حقيقة الصراع بين الحق والباطل، بين الكفر والإيمان، مصوراً هذا الصراع بأنه سنة كونية، تتعلق في الكثير من أسبابها برفض الصواب والسير خلف الباطل، وبكل ما في هذا الصراع والتدافع من حرب نفسية شرسة استخدمت فيها الإشاعة وزعزعة المعنويات وردع الخصم

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مجلد ١، (٦/١).

باستخدام السلاح وبالتهجير عن الديار وبكل ما رافق ذلك من أساليب الحرب النفسية في تشويه المكانة والالتهام بالكذب والتزوير ومحاولات الاغتيال أو النفي أو بث الدعاية المضادة.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥١).

والتي قيل في التعليق عن مقصد الشارع الحكيم فيها:

(لقد كانت الحياة كلها تأسن وتتغنن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، ولولا أن طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة، لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع...) (١).

ومع إشارة القرآن الكريم وتصويره لهذا الصراع وسنة التدافع بين البشر، والواضح في صور الحروب المتكررة يضع الله تعالى النصر للحق والهزيمة للباطل، وأن معيته ﷻ مع المؤمن الذي يطبق شرعه ويعبده حق عبادته :

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهَلَكَتْ صَوَامِعُ وَبِعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

وقد استوجبت طبيعة هذا الصراع في الحرب النفسية بين أهل الكفر وأهل الإيمان، بأن يجاهد كل طرف نقيضه بأقوى ما لديه من أسلحة، وقد استخدم الكفار من بين أسلحتهم للتأثير على المؤمنين، سلاح استهداف الكتب السماوية . وفي مقدمتها القرآن، بل ما زال هذا الكتاب المبارك هدفاً لهم ولمن عاونهم أو حذا حذوهم من الملحدين واللادينين حسداً للمؤمنين به، وحقداً على أحكامه وآياته التي سعت لتنظيم الحياة، وتشكياً في أصل ومغزى القرآن لكي ينفض عنه أتباعه والسائرون على

(١) سيد قطب في ظلال القرآن، مجلد ١، ص ٢٧٠.

صراطه المستقيم، وهي حقيقة تؤيد منطق الصراع بين الحق والباطل وتشير بوضوح ضمن سنة التدافع هذه إلى حجم الحرب النفسية الضخمة التي يشنها هؤلاء على أقدس وأعظم كتاب على وجه الأرض.

وقد اقتضى ذلك أن لا يقف القرآن الكريم بعيداً عن ما يفعله هؤلاء وما يطلقونه من اتهامات وافتراءات عليه وعلى مصدره، بل فضح القرآن أساليبهم النفسية الخبيثة في الإساءة إليه، ولم يكن تصوير وتجسيد القرآن الكريم لاتهامات الكفرة له مجرد عمل يقتضيه كون هذا الصراع والتدافع سنة كونية، بل ينظر إلى ذلك من باب تثبيت أهل الإيمان على إيمانهم.

أما ذكر القرآن الكريم لتهجم وافتراءات الكفار عليه فهو رد عليهم وتكذيبهم في الوقت نفسه بأسلوب مباشر يتضح من الآية القرآنية أو غير مباشر بعجز الكفرة حتى قيام الساعة بوضع قرآن آخر أو بنجاحهم في الإساءة إليه.

لقد تمخضت حقيقة النظر إلى الصراع والتدافع باعتبارها سنة كونية يصورها القرآن عن جملة دعايات واتهامات نادى بها أعداء القرآن وأبرزها:

أ- إشاع الكفار عن القرآن الكريم أنه سحر، ويتضح في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٠].

ب- إشاعتهم عن القرآن أنه شعر وكلام شعراء، كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمٌ بَلِ افْتَرَيْنَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]. وفضحهم القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤١].

ج- اتهموا القرآن بأنه أساطير الأولين في إشارة إلى انقطاعه عن واقع الحياة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالَوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤].

د- إشاعة الكفار عن القرآن بأنه إفك، بمعنى الكذب، قال تعالى: ﴿وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمُ

ءَايَاتُنَا يَنْتَرِ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ كَانِ يَعْبُدُ ءَابَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرٍ
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٣﴾ [سبا: ٤٣].

هـ- تقولهم وإشاعتهم عن القرآن الكريم انه مأخوذ عن آخرين، ويتضح في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبِيْ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣].

وتستند هذه الإشاعة على ادعائهم أن رسول الله ﷺ كان يتردد على شابين نصرانيين من أهل عين تمر، ليأخذ منهما ما يقوله، وقد كذب القرآن الكريم هذه الإشاعة بالمنطق في أن هذين يتكلمان بلسان أعجمي وهذا القرآن عربي اللسان فلا وجه للربط بينهما^(١).

وإذا كان حقد الكفار وأعداء القرآن لم يتوقف حتى اليوم بنفس هذه الإشاعة وحرب الدعاية على القرآن الكريم، فإن ذلك يوضح استمرار الحرب النفسية المعادية للإيمان وأهله وهي نار مستعرة منذ نزول أول صحيفة سماوية لهداية الناس، بينما أبى أغلب هؤلاء إلا كفرًا وعنادًا وحرباً نفسية على القرآن مجسدين بسلوكهم هذا تصوير القرآن وإقراره أن الصراع والتدافع سنة كونية.

شواهد وأساليب الحرب النفسية في القرآن،

إذا كان القرآن الكريم قد أبرز في أكثر من موضع فيه، أن الصراع والتدافع سنة كونية فإن قصص الأنبياء فيه، كانت بمثابة التطبيق الحي والعملية لهذه السنة عبر صور وأساليب الحرب النفسية المتبعة، وقد تداخلت في هذه القصص المشاعر النفسية المختلفة من خوف وقلق وإيهام وتزوير وتشهير واتهام وإرهاب عبر صيغ وأساليب عامة تتقدمها الدعاية التي كانت بمثابة السلاح الرئيس الذي اشهرته معظم هذه الشعوب بوجه دعوة الأنبياء معلنين رفضهم لرسالاتهم، ثم كانت الإشاعة وإطلاقها

(١) تفسير ابن كثير ٩٩/٣.

في أوقاتها المناسبة أو تعليقها بحوادث يومية سلاحاً آخر أفتك من غيره في تحقيق الغرض من محاولة هؤلاء تشويه سير الأنبياء (عليهم السلام).

كما كانت المناورات السياسية وحرب الدبلوماسية وسلاح الاقتصاد والمواجهة المباشرة بين الحق والباطل وأسلوب المناظرات والمجادلات وغيرها حاضرة على الدوام في تفاصيل المواجهة بين كل نبي مرسل وبين الشعب الذي أرسل إليه، وكان القرآن الكريم مسجلاً ومدوناً لكل هذه التقلبات النفسية والأحوال الاجتماعية المتغيرة في صور مختلفة من الاستخدامات اللغوية والتعبيرية المؤثرة التي تأخذ بالعقول وتدهش الأذواق من هذه البلاغة المعجزة التي تحدى بها الله تعالى الكافرين والملحدين والجاحدين لنعمه وعظمته، قال تعالى: ﴿ أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ (١) مَا يَأْنِيهِمْ مِّنْ ذِكْرِ مِّن رَّبِّهِمْ يُحَدِّثُ إِلَّا أَسْمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ [الأنبياء: ١-٣].

وسنحاول التعرف على صور الحرب النفسية في قصص الأنبياء فيما يأتي:

أولاً - في قصة النبي نوح عليه السلام:

لقد دعا نوح عليه السلام قومه ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية كما أخبر القرآن الكريم بذلك فلم يكونوا إلا في فرار دائم من دعوته وإعراض عنه . (حتى أنه كان يكلم الرجل فيقول له إن لي معك كلاماً ثم يقول في أذنه: قل لا إله إلا الله، فلما علموا بذلك لم يلتفت إليه أحد، فكان يأتي أبواهم بالليل ويقول: يا فلان فإذا أجابه صاحب الدار قال له: قل لا إله إلا الله، قال: واشتد عليه البلاء وانتظر القرن بعد القرن، وكان كل قرنٍ أخبث ممن قبله، حتى إن الرجل كان يوصي ولده عند وفاته، ويقول، احذر هذا المجنون)^(١).

(١) ينظر: الخطيب البغدادي، تاريخ الأنبياء، دراسة وتحقيق: آسيا كليان علي البارح، دار الكتب العلمية،

وذكرت سورة هود جزءاً من معاناة نبي الله نوح عليه السلام مع قومه، نقف منها على
 شنههم حرباً نفسية شرسة ضده وضد من آمن معه، قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا
 مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ
 يُبَادُوا بِآيِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى
 لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود: ٢٧].

ويتبين من الآية الكريمة أسلوب التحقير والوضاعة التي اتبعها الكفار مع النبي نوح عليه السلام (حاشاه) عن ذلك، ويحمل هذا الأسلوب في طياته تقليل الشأن لصاحب الدعوة وأتباعه فيأنف من أتباعه باقي الناس، كما أشاروا إلى أنهم يريدون علامات أو إمكانيات فوق طاقة البشر العاديين تؤهل النبي المرسل ليقول ذلك، وهذا يعني أنهم رسموا في أذهانهم صورة غير إنسانية لمن يريدون أن يكون لهم مرشداً وهادياً ربما على غرار صور الآلهة التي رسمتها عقلية الشرك الضالة عن الحق، من وجود أجنحة أو قرون أو تصرف بالرياح أو غير ذلك، ولا يخفى ما في هذا الأسلوب من تقليص وتكليل لقدرة هذا النبي الكريم وطاقته على قيادة الناس إلى بر الأمان.

كما اتضح من الآية أن هؤلاء الكفار أشاعوا عن نوح عليه السلام، أنه (كاذب) في محاولة مكررة لتشويه صورته أمام الناس، فإذا تم ذلك فلن يتبعه إلا القليل كما حدث فعلاً. (انه دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة في الليل والنهار والسر والجهر، بالترغيب تارة والترهيب تارة أخرى وكل هذا لم ينجح فيهم بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان ونصبوا له العداوة في كل وقت وأوان وتنقصوه وتنقصوا من آمن به وتوعدهم بالرجم والإخراج ونالوا منه وبالغوا في أمرهم).^(١).

ويقول لهم نوح عليه السلام: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِ عَيْنُكُمْ كُنَ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمَنِ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [هود: ٣١]. في إشارة واضحة إلى أنهم طالّبوه بمعجزات وخوارق عادات لإثبات نبوته

(١) ابن كثير، قصص الأنبياء، مكتبة الإيمان، مصر، ٢٠٠٦، ص ٤٨.

وهي نوع من الحرب النفسية التي يوضع فيها الإنسان في امتحانات أعلى من قدرته ومداركه بهدف إحراجه وإسقاط دعوته بالدعاية.

وحين أمره الله تعالى ببناء السفينة تمهيداً للانتقام من أهل الكفر وإنقاذاً للمؤمنين القلائل الضعفاء من قبضتهم استخدموا أسلوب السخرية والاستهزاء وهو في ميزان الحرب النفسية إطلاق النكات التي تسخر من الخصم وتهون من شأنه في عيون الناس فتخور معنوياته وتجف منابع الصمود والمقاومة لإشاعتهم الماكرة. (ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) فيرد عليهم نوح عليه السلام: ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ (٣٨) ﴿هود: ٣٨﴾.

وهو يعني استخدام نوح عليه السلام لحرب الإشاعة المضادة لأسلوب عدوه، ومقابلة السخرية بمثلها، كما استخدم معهم أسلوب المحاججة العقلية والخطاب المنطقي عسى أن يكون ذلك نافعاً مقابل حربهم النفسية ضده: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ (١٣) ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ (١٤) ﴿نوح: ١٤﴾.

واتبع معهم أسلوب المجادلة في مواجهة بين الحق والباطل فأبى أهل الباطل إلا الاستمرار في الضلال: ﴿قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جِدَلْنَاهُ فَاكْثُرْتِ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِنَا قَدْ دَنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣٢) ﴿هود: ٣٢﴾. أي بمعنى أنهم: (تعجبوا أن يكون بشراً رسولاً وتنقصوا بمن اتبعه ورأوهم أراذلهم. وقد قيل: إنهم كانوا من أقياد الناس وهم ضعفاؤهم).^(١)

وبقي الضالون على ضلالهم وصمد نوح عليه السلام أمام حربهم النفسية الشرسة حتى انتهوا بإغراقهم ونجاة المؤمنين وانتصارهم.

(١) ابن كثير، البداية والنهاية (١٠٤/١).

ثانياً- في قصة النبي إبراهيم عليه السلام:

أما إبراهيم عليه السلام فقد اشتهرت دعوته بأسلوب المجادلة والمناظرة والمحاججة بالأدلة النظرية والتطبيقية كنوع من أنواع الحرب النفسية ضد قومه الذين وقفوا ضد دعوته وحاربوه بالصد والتقريع والاتهام بالضلال، فلم يزددهم في بادئ الأمر، إلا مجادلة ومناظرة عسى أن يتوقفوا عن صد دعوته ويتركوه يصل إلى الناس من دون رقباه ولاية الأمر في مجتمعه المعروف بصناعة التماثيل لغرض العبادة، أما ملكهم (نمرود) فكان شأنه كشأن (فرعون) حيث أغوى الناس وخدعهم بإشاعة أنه ربهم وولي نعمتهم.^(١)

وقد بدأ النبي إبراهيم عليه السلام بمناظرة أبيه قائلاً: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا إِلَهًا إِنِّي أَرَىٰ أَنَّكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤]. ثم قال له مقدماً الحجج والبراهين العقلية: ﴿يَتَّبَعُ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢].

ولم يجد هذا الأسلوب المفعم بالإقناع قبولاً عند أبيه، فأنكر تغير دينهم الباطل وسلوكه طريقاً آخر، ثم هدهد بالقوة والمهجران والعقوبة جراء ذلك، وهي حرب نفسية معلنة لكي يترك هذا النبي عليه السلام دعوته إذ أن الأب لم يكن يمثل نفسه بل كان يتكلم باسم مجتمع كامل يرفض هذه الدعوة.

ثم استمر إبراهيم عليه السلام يناظر بالعقل ويدعوهم بالحجة مستهدفاً بصدقه معهم تغيير عقولهم التي ركنت إلى الباطل. ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (٧٠) ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُلُّ لَهَا عَذَابِينَ﴾ (٧١) ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ﴾ (٧٢) ﴿أَوْ يَفْعَلُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ (٧٣) ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (٧٤) [الشعراء: ٧٠-٧٤]. والتي يقول فيها ابن كثير: (سلموا له أنها لا تسمع داعياً ولا تنفع ولا تضر شيئاً وإنما الحامل لهم على عبادتها الاقتداء بأسلافهم)^(٢).

(١) ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية (١/ ١٣٦)

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية (١/ ١٣٧). و ينظر: الدكتور محمد عبد العزيز الخضير، دعوة إبراهيم في

القرآن، مجلة الخطيب، بغداد، ع ١٩، شوال ١٤٢٨هـ، ص ٤٢.

ثم استغل إبراهيم ﷺ الظواهر الطبيعية وأدلة الكون الذي يعيشون فيه لكي يبين لهم أن المعبود الحق هو الله وبقية الظواهر لا تنفع شيئاً: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ رَبِّي بِالْقَمَرِ فَلَمْ يَذَرْنِي فَلَا أَفْلَ وَلَا يَهْدِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٦-٧٧]. وكان إبراهيم ﷺ يهزأ بهم كنوع من الخطاب النفسي لتغيير قناعاتهم: (وكان آزر يصنع الأصنام ويعطيها إبراهيم لبييعها فكان إبراهيم يقول: من يشري ما لا يضره ولا ينفعه؟ فلا يشتريها منه أحد. وكان يأخذها إلى نهر فيصوب رؤوسها فيه ويقول: اشربي، استهزاء بقومه، حتى فشا ذلك عنه في قومه).^(١) ثم توصل معهم إلى نتيجة أن المؤمن هو من يجب أن يكون مستقراً مطمئناً أما المشرك العاصي فهو من يجب أن يحاسب ويخاف من عاقبة فعله وهي حرب نفسية يشنها إبراهيم ﷺ مثيراً في نفوس قومه القلق والإرباك قال تعالى: ﴿ وَكَيَفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الأنعام: ٨١].

وحين لم تجد نفعاً هذه الحرب الباردة بين النبي إبراهيم ﷺ وبين قومه أقر استخدام طريقة شد الانتباه في حدث قوي ربما يفيقون من خلاله على ضلالتهم فيؤمنون بالله، فشن حرباً نفسية مباشرة ضد عقائدهم الباطلة في عبادة الأصنام وهددهم بتحطيمها، فلما فعل ذلك وواجهوه بالاتهام، وضعهم مباشرة في مفترق طريقي الحق والباطل بأن أرجع مسؤولية ذلك إلى كبير الأصنام فأدركوا آنذاك أن كل عملهم ضده قد فشل وأن صدق إبراهيم ﷺ ومخاطبتهم بالحجة والمنطق قد حطم معنوياتهم بشدة وسقطوا في هوة أخطائهم. ﴿ قَالُوا أَأَتَتْكَ هَٰذَا إِلَٰهَتُنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٧٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٧٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار بيروت، بيروت، ١٩٦٥، (١/٩٦).

أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٦].

وقد أوقع في أنفسهم هذا الأسلوب من الحرب النفسية أثراً بالغاً إلا أنهم أصروا على ضلالتهم فقرروا حرق إبراهيم عليه السلام (لقد كان الحدث المدوي وسيلة من وسائل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام) في تحطيم الإشاعات وجلب أنظار الناس لدعوتهم. سواء كان هذا الحدث هو المعجزة التي أيدهم الله بها كعصا موسى عليه السلام أو هو الفعل البشري المؤثر كتحطيم الأصنام على يد سيدنا إبراهيم عليه السلام^(١). وبالتأكيد فإن إبراهيم عليه السلام كان يعلم أن هذا الفعل سيهز نفوس الكفار هزاً عنيفاً فإما أن يسلموا معه أو يزدادوا كفراً فيصنعون غيرها، فكان الخيار الثاني حيث قرروا حرقه، مستعملين طريقة التهديد بالإفناء والقتل فلو استسلم لهم إبراهيم عليه السلام ربما تركوه وحاشاه أن يفعل ذلك فقبل اتهامهم وظلمهم، ثم أنجاه الله تعالى من كيدهم ففشلت كل محاولاتهم في بث الإشاعة عليه وفي تهديده وفي منع الناس من اتباعه حتى أوصلوه لمرحلة القتل حرقاً في أسلوب مؤثر من أساليب الحرب النفسية قبل أن يصلوا معه إلى مرحلة القتل المباشر، وأمر الله تعالى نار حربهم النفسية المستعرة ونارهم الحقيقية فكانت برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام، وكان آخر ما اتبعوه معه من حرب نفسية لم يجدوا غيره لمعاملته هو أسلوب التهجير والإبعاد عن الديار^(٢)، فقد هدده أبوه وقد بقي كحال قومه على الكفر فقال له:

﴿لَيْنَ لَّمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] فاعتزلهم بكل ما اعتادوه من ضلال وظلم وطغيان فهاجر إلى مصر، وأتاهم أمر الله وهم ماكثون على ذلك. لقد كان إبراهيم عليه السلام ثابتاً على منهج الله تعالى في الدعوة ومقاومة كيد الطغاة، فقد صبر

(١) د. محمد عياش الكبيسي، منهج القرآن في مكافحة الإشاعة، مصدر سابق، ص ١٥٦.

(٢) ينظر: الدكتور توفيق الواعي، اليهود مصدر إفساد وانحلال ودمار، دار ابن حزم، بيروت، ١٩٩٥،

على جفاء الأبوة وعدوان العشيرة وظلمها له، وهجران الأرض، وفتنة الحرق بالنار، ثم الغربة في موطن بعيد، والأمر بذبح ولده، ما أهله ﷺ لان يخرج بعد كل فتنة منها أقوى من السابق .

ثالثاً- في قصة يوسف ﷺ :

في قصة يوسف ﷺ الكثير من الفتن والابتلاءات النفسية التي تسبغ على هذا النبي الكريم صفات العظاء لصبره وورعه وزهده، فقد صبر على كيد أخوته وهم له كارهون حتى انتهى بهم الأمر إلى رميه في البئر وادعوا أمام أبيهم أن الذئب أكله وصبر على فتنة السجن وأذاه بعد أن رفض الانصياع إلى فتنة النساء في بيت العزيز، وكان قد صبر وقاوم هوى نفسه وكيد النسوة حتى أطلقت عليه (الإشاعة) بأنه يخون سيده في أهله، فصبر على ذلك كله آملاً في رحمة الله وفرجه، ثم أظهر من الورع والحكمة والزهد بالدنيا حين تولى (وزارة) مصر فعرضت أمامه أموال الدنيا بأسرها فلم يخضع لفتنتها ﷺ وضرب مثلاً للبشرية في حفظ الأمانة والعدل والورع والعفة التي صارت له عنواناً تقترب بها سيرته^(١). قال تعالى في اصطفاء يوسف ﷺ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ٢٢﴾ [يوسف: ٢٢]. ورغم كل ابتلاءاته استمر هذا النبي الكريم مواصلاً دعوته في توحيد الله تعالى: ﴿يَصْنَعِي السِّجْنَ ءَازْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ٣٩﴾ [يوسف: ٣٩]. وتعرض يوسف ﷺ لحملة قوية من الحرب النفسية التي لا ترحم مستهدفة سمعته وأخلاقه وسيرته عبر إطلاق الإشاعات عنه، وهي (إشاعة الفاحشة) التي تستخدم حتى اليوم ضمن أساليب الحرب النفسية لإسقاط رمز أو شخص أو جماعة ما بنسبة الفاحشة أو الأخلاق المتردية إليها. وقال تعالى ذاماً هذا النوع من الحرب النفسية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ١١﴾ [النور: ١١].

(١) ينظر : ابن كثير، قصص الأنبياء، مصدر سابق، ص ١٤٤.

١٩]. وقد بدأ الأمر مع يوسف عليه السلام بكذبة هي ما تستند عليه الإشاعة ضمن مواصفات الحرب النفسية، وما لبثت هذه الكذبة حتى كبرت رغم أن صاحبها هي مصدر الكذب وراعي الإشاعة باعترافها هي: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَوَدْتَنِّي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ قُلْتُ خَشِيَ اللَّهُ مَا عُلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَن حَصَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ [يوسف: ٥١].

إلا أن أمر الإشاعة قد فشا وانتشر حتى بلغ أسماع الكثيرين مستهدفة سمعة وكرامة وأخلاق المستهدف بالإشاعة فلا يحترم (حاشاه) أو يسمع له قولاً، وذلك بقول النساء: ﴿وَقَالَ يَسُوْفُ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَوِّدُ فَتَهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [يوسف: ٣٠].

وتعددت مصادر الفتنة فيها حتى بدأت بعض النساء يطمعن في نفس الفعل الذي أرادته امرأة العزيز معه، وهذا يعني نجاح الإشاعة في الوصول إلى هدفها في تشويه سمعة الرجل المتهم حتى ظنت البقية أنه سينصاع لما يطلبه منه، إلا أنه عليه السلام لجأ إلى استخدام الدعاء خلاصاً من قوة الإشاعة وإلى ما قد تمتد إليه مخاطباً ربه عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]. (فاختار يوسف السجن على معصية الله).^(١) في إشارة ذكية إلى أن هذه الحرب النفسية مستمرة ضده ولا يبدو أنها ستوقف عند حد معين، وأرادت امرأة العزيز من مجموعة النساء اللاتي بلغتهن الإشاعة تصديقها والاعتراف أمامهن أنها هي من أطلقت الإشاعة عنه فاعترفت أمامهن: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَفْعَلَنَّهُ لِيَتَّخِذَنَّهُ مِنْ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف: ٣٢]. واستخدم يوسف عليه السلام الأسلوب الذي أقره (القرآن) في معالجة الإشاعة والتصدي لها، باعتقاد الحقيقة والتعامل بمصادقية مع الحدث ثم باستخدام حق الدفاع عن

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (١/١٤٤).

النفس: ﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي...﴾ [يوسف: ٢٦].

كما أقر القرآن الكريم لمعالجة الإشاعة أسلوب النظر في الدلائل العقلية والأدلة المتوفرة عن الحادثة وكشفها للناس، بقوله تعالى على لسان الشاهد: ﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يوسف: ٢٦-٢٧]. وفي طلب يوسف ﷺ لرسول الملك وقد جاء يطلق سراحه ما يثبت الأمر بسؤال النساء عن امتناعه الشديد عن فتنتهن^(١). وكذلك يستنبط من قصة يوسف ﷺ لمقاومة الإشاعة، أسلوب قطع دابرها بتغيير الأحداث أو البعد عن موطن الحدث أملاً في إظهار الحقيقة فيما بعد، خاصة إذا كان المستهدف يعاني من وطأة الفتن والحرب النفسية، وذلك حين تمنى يوسف ﷺ من الله تعالى السجن خلاصاً من فتنة المجتمع الذي هو فيه: (قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ..)، فلبى له مولاه تعالى هذه الأمنية التي طافت بدورها في أذهان القوم: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [يوسف: ٣٤]. كان إبعاد يوسف ﷺ إلى السجن ومكوته فيه أحد أسباب انتشاله من دوامة الإشاعات المستمرة.

رابعاً- في قصة النبي موسى ﷺ:

وفي قصة موسى ﷺ التي ذكرت بكثرة في القرآن الكريم نجد الكثير من أساليب الحرب النفسية المتبعة بين طرفي الصراع (الحق والباطل) ونجد تكراراً وتأكيذاً على استخدام أساليب وطرق معينة من هذه الحرب لكسب الخصم أحياناً أو إرهابه أو إضعاف معنوياته، أو لكسب المجتمع الذي يحيط بفرعون بتخويف الناس من التبعية العمياء له وبضرورة اتخاذ الله تعالى رباً وتطبيق حكم الله في الأرض. ولقد عمت

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق (١/ ١٩٢).

دعاية فرعون ضد موسى ﷺ أرجاء الزمان والمكان، حتى سارت بها الأمثال تشويهاً لسمعته واتهامه بالبدعة وتغير نمط الحياة والدين السائد وإلحاقه بالسحرة^(١)، وقد صور القرآن ذلك بقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سَحَرٌ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ [طه: ٦٣].

ويهدف إحراجه وإفشال أهدافه وإظهار أنه كاذب (حاشاه) طالبه فرعون بالمعجزات: ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٦].

واستمر الكفرة بذلك واتهموا موسى ﷺ وأتباعه بالفساد ثم واجهوهم بالعنف والشدة وقتل الأبناء وإهانة النساء لعلهم يستسلموا لهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُنَا مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ الْمَلَأُ قَالَ سَتُنْقِلُنَا أَثْنَاءَ هُمْ وَتَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]. وقال القرطبي في تفسيره لهذه الآية شارحاً معنى ما يقصدون من فساد (أي بإيقاع الفرقة وتشتيت الشمل)^(٢).

ولم يسلم جسد موسى ﷺ نفسه من اتهامات قوم فرعون حتى اتهموا حيائه وحبه للستر بأنه إنما يفعل ذلك لما في جسده من برص أو مرض، وانطلقت هذه الإشاعة المغرضة لتشويه دعوته كما يشوه جسده ﷺ فعالج الله تعالى هذه الإشاعة بالبرهان والدليل حين رأى بعضهم موسى ﷺ وهو يغتسل في البحر وقد بعدت عليه ملابسه، حتى سقطت الإشاعة^(٣). وذكر القرآن الكريم أن موسى ﷺ واجه حربه النفسية بما يوازيها من أساليب في الدعوة تارة وفي الدعاية وإثارة ذعرهم بالعصا وبآيات الله تعالى وعقابه لهم وبعرض الحقيقة تارة أخرى، حتى وصل الأمر إلى المواجهة المباشرة

(١) ينظر: ابن كثير، قصص الأنبياء، مصدر سابق، ص ١٩٦.

(٢) القرطبي / الجامع لأحكام القرآن، ج التاسع، ص ٢٢٧.

(٣) ينظر: البخاري، صحيح البخاري، كتاب التفسير، رقم الحديث (٢٧/٦). وينظر: الطبري، تفسير

بين الإيمان والكفر، حين استدعى فرعون أعتى السحرة لديه لمواجهة موسى ﷺ واختاروا يوم عيدهم موعداً لذلك، وفي هذا الأسلوب من الحرب النفسية الكثير من إثارة المعنويات وزعزعة القيم والمبادئ العقلية وإرهاب النفس بإدخالها في امتحان عسير: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأَمْنَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوَىٰ ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشَرَ النَّاسُ ذُحًىٰ ﴿٥٩﴾﴾ [طه: ٥٦-٥٩].

كانت مشاهد من الحرب النفسية المتواصلة، بثت فيها الدعاية أن موسى ﷺ ساحر وأن دعوته سحر، وبثت عنه الإشاعة أنه قاتل (حاشاه) كما حدث ذلك في شبابه وأنه اليوم يريد تفريق الناس وتشيت وحدة المجتمع. فتكونت له صورة جديدة في مجتمع قوم فرعون، أنه: ساحر، قاتل، عدو الجميع (حاشاه) وهنا تكون حرب فرعون النفسية قد نجحت في تشويه سمعته وصورته فابتعدوا عن الإيمان به، إلا أن الله تعالى تدخل برحمته وحكمته، فوضع فريق سحرة فرعون في موقف لا يحسدوا عليه حين وقفوا بأنفسهم على أن ما يفعله موسى ﷺ ليس سحراً بل هو شيء آخر خارج نطاق القدرة البشرية فكان جوابهم ما أبهت فرعون وأذهله: ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُدًىٰ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه: ٧٠]. وكان فرعون قد جمع السحرة على أمر منه.^(١)

فأصبح فرعون في موقف محرج ولا يحسد عليه، فقد انقلب مؤيدوه ضده فكان لابد أن يتصرف بسرعة ويفشل ما جرى محاولاً مواصلة حربه النفسية ضد معسكر الإيمان فأطلق إشاعته: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الأعراف: ١٢٤]. حيث اتهمهم بخيائته والتعاون مع موسى ﷺ ضده لكي لا يتأثر بهم الناس فيؤمنون بها آمنوا هم أيضاً. ثم استمر في حربه النفسية: ﴿فَلَا قُطْعَ أَيْدِيكُمْ وَأُجُلُكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبُنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ ءَيْنَا

(١) ينظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ص ١٨٢.

أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾ [طه: ٧١].

لكن الإيثار كان قد تغلغل في النفوس ففشلت دعاية فرعون ولم تثمر إشاعته شيئاً: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿٧٢﴾ ... [طه: ٧٢].

وبقي فرعون مصراً على دعايته (إنه يحاول أن يوحى لهم ويوحى إلى الملأ وكل من شهد المشهد أن السحرة قد ارتكبو مخالفة بعدم الاستئذان من فرعون في إتباع موسى، ثم إن هذا الإيثار الذي أظهره السحرة في هذا الحشد هو نتيجة اتفاق ومؤامرة بينهم وبين موسى^(١)). أما موسى عليه السلام فقد اتبع مع فرعون وملأه من أساليب الحرب النفسية ما يستطيع من خلالها التأثير في كفرهم واستهداف عقولهم المصرية على الضلالة. فبين لهم أن ما يفعلونه كذب وافتراء وسيكونون بذلك مستحقين لعذاب شديد من الله، ثم إن نهايتهم إلى خسران مبين في الدنيا والآخرة: ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ ﴿٧١﴾ [طه: ٦١]. ثم حاول موسى عليه السلام إفشاء الفرقة والتنازع في معسكر عدوه كأسلوب من أساليب الحرب النفسية لإضعاف الخصم: ﴿فَنَزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ﴾ ﴿٧٢﴾ [طه: ٦٢]. ثم اتجه موسى عليه السلام إلى صفه الذي آمن به لكي يقوي عزيمتهم ويعزز معنوياتهم المستهدفة من قبل فرعون ودعايته القوية، فوجههم للتوكل على الله والصبر لتحقيق أهدافهم: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عَبْدِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٢٨﴾ [الأعراف: ١٢٨]. فكان يخبرهم (أن الآخرة هي دار القرار التي من وافاها مؤمناً قد عمل الصالحات فلهم الجنات العاليات)^(٢). حتى نجح أسلوبه هذا بتوفيق الله وفضله فأغرق الله عز وجل جيش فرعون ونجح موسى بإبعاد قومه عن خطرهم

(١) د. أحمد نوفل، الحرب النفسية من منظور إسلامي، الكتاب الثاني، ص ١٣.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، (١/ ٢٤٠).

وكيدهم. (إن المعجزات التي أيد الله بها موسى ﷺ قد تكون أكثر من مجموع ما ذكره القرآن للأنبياء من المعجزات وكل هذا يثبت أن دور موسى ﷺ يمتاز بخصوصية قد لا يشاركه فيها بقية الأنبياء السابقين).^(١).

إلا أن موسى ﷺ واجه أصعب من هذا الموقف حين رفض قومه الذين فروا معه من مصر، مقاتلة شعب الجبارين، فشملمهم الخوف وخوار المعنويات ووهن العزيمة نتيجة إشاعات مروعة ومهولة عن هؤلاء في الأرض المقدسة، حتى نسوا فضل الله تعالى عليهم وإنقاذهم من بطش فرعون وقومه فقالوا عبارة توضح خوارهم النفسي وهزيمتهم المعنوية فكانوا مهزومين من دون قتال : ﴿ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤].

فكان هذا قرارهم الأخير الذي لا رجعة فيه قبل أن يعاقبهم الله تعالى (بالتيه) في أرجاء الأرض لأربعين سنة جراء جبنهم وهوانهم النفسي وتركهم الحق حين خضعوا لهوى النفس الذي مال بهم لحب الدنيا والاستسلام للضعف وهوان العزيمة، (إن تغيير سنة الله في الكون والحياة أهون في نظرهم من تغيير موقفهم وأخلاقهم وحالتهم النفسية المتهالكة الخوارة)^(٢).

خامساً- في قصة النبي سليمان ﷺ :

ابتدأ النبي سليمان ﷺ قصته مع بلقيس وقومها في سبأ بحرب نفسية دعتهم للتساؤل وتفضيل مشاعر الخوار والاستسلام وتوقع قوة غير معتادة للمقابل وإن ادعوا أنهم في إجابتهم للملكة بلقيس أنهم ذوي قوة وبأس، ذلك أن سليمان ﷺ اتبع معهم أسلوب المفاجئة القوية مذكراً إياهم بوجوده كقوة على الأرض، وبدعوتهم إلى إجابته في خيارين : إما التسليم لله وترك الوثنية وإما الحرب، فلم يتوقعوا أن يكون

(١) د محمد عياش الكبيسي، المحكم في العقيدة، قطر، ٢٠٠٣، ط ١، ص ١٧٤.

(٢) د. أحمد نوفل، الحرب النفسية من منظور إسلامي، ص ١٦.

صاحب هذه الدعوة ضعيفاً أو غير واثق من نفسه، ولا بد أن وصول رسالة سليمان ﷺ إليهم بغير الطريقة المعتادة التي يأتي بها رسول من الرجال أو الوفود أثار في نفوسهم مشاعر التوجس والتساؤلات التي لم يجدوا لها جواباً، قال تعالى: ﴿قَالَ يَأْيُهَا الْمَلَأُ إِنَّ إِلَهِي إِنَّكَ كَذِبٌ كَرِيمٌ﴾ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأَتَوْفَىٰ مُسْلِمِينَ (٣١) [النمل: ٢٩-٣١].

وربطت بلقيس بين أسلوب سليمان ﷺ وبين مفهوم أن القوة إذا كانت في جانبه ورافقتها الهزيمة في حربها معه فقد تعرضت مملكتها وشعبها للدمار، وذلك قولها الذي حكاه القرآن الكريم عنها: ﴿قَالَ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (٣٤) [النمل: ٣٤]. والتي يقول فيها ابن كثير: (تقول برأيها السديد أن هذا الملك لو غلب على هذه المملكة لم يخلص الأمر من بينكم إلا إليّ ولم تكن الشدة والسطوة إلا عليّ) (١). فتظهر حكمتها في أن الحرب النفسية التي ترافق الحرب المباشرة أو تلحقها في حالة هزيمتها أمام سليمان ﷺ ستكون آثارها: الاحتلال والخضوع للقوة وهذا بالطبع سيؤدي إلى ذل أهل بلدها، وهذا على الأقل منطق بلقيس وخبرتها عن طغاة الأرض وملوكها إذ لم تكن تعرف أن سليمان ﷺ نبي ولن تسمح له أخلاقه بذل الناس.

وإذا كان سليمان ﷺ قد استخدم مع مملكة بلقيس أسلوب المفاجأة والمباغطة الذي يهز المعنويات هزاً عنيفاً، فقد اختارت هي أسلوب المناورات السياسية الذي هو أحد أساليب الحرب النفسية المعروفة، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣٥) [النمل: ٣٥]. فهي بهذا (أرادت أن تصانع عن نفسها وأهل مملكتها بهدية ترسلها ولم تعلم أن سليمان ﷺ لا يقبل منهم والحالة هذه صرفاً ولا عدلاً لأنهم كافرون) (٢).

(١) ابن كثير، قصص الأنبياء، (ص ٣١٠).

(٢) ابن كثير، قصص الأنبياء، (ص ٣١١).

وفشلت طريقتهما في المناورة السياسية وفتح الحوار حين جاءها رد سليمان ﷺ حازماً ومؤكداً على قوة لن تستطيع مجابته: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنُ قَالَ أُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَنِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ نَفَرُونَ ﴿٣٦﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأَيِّدَهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النمل: ٣٦-٣٧].

وكان هذا الرد الحاسم من سليمان ﷺ قد زاد من مخاوف بلقيس فقررت أن تطلع بنفسها على إمكانيات مصدر قلقها لعلها تقف على سر قوته وأن تخفف من هذه الحرب النفسية الموجهة إليها، إلا أنها قررت الاستمرار في درب المناورة السياسية عبر زيارة سليمان ﷺ في مقره بالقدس عسى أن تقف الحرب عند حدود السياسة. أما سليمان ﷺ فعبر تسخير الله تعالى للطير والجن والمخلوقات في خدمته فقد علم عن طريق (استخباراته) واستطلاعاته التي تدخل ضمن مهام الحرب النفسية هي أيضاً بنيتها في زيارته، فكان لابد من استقبالها بما يوهن لديها عزيمة المقاومة ومعنويات الصمود، فقرر سليمان ﷺ الاستمرار في حربه النفسية ضدها، فقال لجنوده: ﴿قَالَ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ أَيَكُمِ يَأْتِنِي بَعْرُشًا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [النمل: ٣٨].

وفي قوله هذا الكثير من زيادة ثقة جيشه بقدراته وإمكانيات قائده، إذ بشرهم بالنصر قبل بدء المعركة، ثم هيا لها المفاجأة الثانية ببناء الصرح المرد من القوارير ليشير إعجابها وتطلع بنفسها على طاقات دولة تعجز عن مقاومتها أو صد حربها، فكانت هذه الخطوات بمثابة الضربات الأخيرة في حربه النفسية ضدها حتى أعلنت إسلامها وانقيادها إليه.

لقد أدركت بلقيس آنذاك خواء منطق الكفر وانهار أركانها أمام قوة من الإيمان لا تقهر: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل: ٤٣].

فانتصر الإيمان المقتدر على هذا الكفر المتهاوي بلا حرب سيوف أو دماء أو خيول، بل بمخاطبة النفس والسيطرة على المعنويات وجذب القلوب: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا

رَأَتْهُ حَبِيبَتُهُ لُحَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرَخَ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي
وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ [النمل: ٤٤].

سادساً: في قصة النبي عيسى عليه السلام :

وتعرض النبي عيسى عليه السلام لإشاعات اليهود وحرهم النفسية منذ اللحظة التي ولد فيها، وذلك باستخدامهم الإشاعة ضد أمه مريم البتول (عليها السلام) وبترويحهم للإشاعة عن عفتها فقد ضربوا عرض الحائط حسن سيرتها وأصالة عائلتها بهدف تدمير السمعة الاجتماعية وواد مولودها المبارك وأداً نفسياً فلا يستطيع نهوضاً أو حراكاً في المجتمع. قال تعالى: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مَيِّتَهُمْ وَكَفَرِهِمْ تَبَايَأَ اللَّهُ وَقَوْلُهُمُ الْآيَاتُ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُهُمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَكَفَرِهِمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء: ١٥٥-١٥٦]. وفي كون عيسى عليه السلام (من دون أن يكون له والد كان أعجوبة العجائب، ولأجل أن الله أراد له شأنًا منفرداً لا ينازعه فيه إلا أبو البشر آدم).^(١) والتي قال عنها المفسرون : (يعني جل ثناؤه وبكفر هؤلاء الذين وصف صفتهم ﴿وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ يعني بفريتهم عليها ورميهم إياها بالزنى وهو البهتان العظيم لأنهم رموها بذلك وهي مما رموها به بغير ثبت ولا برهان بريئة فبهتوها بالباطل من القول)^(٢). وعن نفس الحدث يعلق ابن كثير : (وذلك أن طائفة من اليهود في ذلك الزمان قالوا إنها حملت به من زنا لعنهم الله فبرأها الله من ذلك ...)^(٣).

وأثناء دعوته عليه السلام طالبه القوم بالكثير من المعجزات واحدة تلو أخرى في منهج من

(١) ينظر : الشيخ عدنان الربيعي، عيسى في القرآن الكريم، بلا مكان طبع، ٢٠٠٤، ص ١٥.

(٢) تفسير الطبري (٩ / ٦).

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية (٥٨ / ٢).

التشكيك النفسي والعقائدي برسالته، فأيده الله تعالى بالمعجزات فلم يؤمن إلا القليل منهم، ومعلوم أن مطالبة الإنسان بما لا طاقة له هو نوع من الحرب النفسية واتهام له بالكذب وادعاء النبوة، إلا أن الله تعالى وضعهم مباشرة أمام مقاصدهم الماكرة من ذلك، قال تعالى ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكَرٌ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أُيِّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِن هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ [المائدة: ١١٠].

حيث يتضح من هذا الآية الكريمة أن كل هذا المعجزات التي طالبوه بها والتي أيده الله تعالى بها، انتهت إلى أن يقولوا عنه : إنه ساحر (حاشاه) وإن معجزاته تلك ما هي إلا سحر ليس غير . وهي إشاعة مدمرة المقصود منها تشويه سمعة المستهدف في إطار دعاية قوية مدمرة امتاز بها اليهود هي شدة تمسكهم بالباطل وكرهيتهم للحق وجرأتهم على الأنبياء (عليهم السلام) قال تعالى: ﴿فِيمَا نَقُضُّهُمْ مَيِّشَهُمْ وَكُفِّرِهِمْ بَيَّأْنَتِ اللَّهُ وَفَلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَعِيرٍ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

فهم ناقضون للعهد والميثاق وكفرة بآيات الله ثم قتلهم للأنبياء بظلم وعدوان يدل على منهجهم الأعوج وطريقتهم العرجاء في التعامل مع أهل الحق بل إنهم يعترفون بذلك الاعوجاج وحياتهم المخالفة لمنهج الله تعالى^(١)، إن قتلهم الأنبياء لابد أن يكون مسبوقاً بنوع من الحرب النفسية ضدهم من إرهاب وإثارة ذعر واغتيال واستهداف بحصار أو إشاعات أو دعاية منكرة تحاول إفشال دعوتهم، كما أن قتل أي نبي لابد أن يترك في نفوس أتباعه الكثير من الخوف والقلق والرعب مما يؤثر هو الآخر على نفسية

(١) ينظر: توفيق الواعي، مصدر سابق، ص ٥٣ وما بعدها.

المؤمن ويتركه نهياً للإبراك أو الردة عن دينه، وهذا كله من صلب مهام الحرب النفسية. لقد واجه عيسى عليه السلام نوعاً جديداً من الحرب النفسية في إطار استهداف دعوته وتحريف منطق الإيمان بالله وتوحيده الذي تقوم عليه كبقية الرسالات السماوية ورد عليهم القرآن في لهجة شديدة من التقرير والوعيد: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة: ١٧].

بل غالوا وبالغوا في النظر إلى أنفسهم ومكانتهم بمعنى أنهم تعصبوا لعرقهم من دون ربط ذلك مع الإيمان بالله والأمر بالمعروف، وفي هذا الأسلوب تحريف لدعوة النبي وايداء له وحرب نفسية ضد المؤمنين من أية طائفة أخرى غير طائفتهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة: ١٨].

وقد كذب إشاعتهم هذه القرآن نفسه ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ والتي قال عنها المفسرون: (فلم يكونوا يخلون من أحد وجهين إما أن يقولوا: هو يعذبنا، فيقال لهم: فلستم إذاً أبناءه وأحبائه، فإن الحبيب لا يعذب حبيبه، وأنتم تقرون بعذابه فذلك دليل على كذبكم، أو يقولوا: لا يعذبنا فيكذبوا ما في كتبهم وما جاءت به رسلهم ويبيحوا المعاصي وهم معترفون بعذاب الله للعصاة منهم)^(١). وقد واجه عيسى عليه السلام حربهم النفسية ضده بوسائل عدة، منها أسلوب المعجزات والآيات التي أيده الله تعالى بها، ليعين لهم أنهم أمام قوة عظيمة، تفوق مستوى تفكيرهم وإدراكهم الدنيوي، واتباع معهم أسلوب كشف الخفايا، بما يجري في بيوتهم أو غير ذلك لكي

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٦/ ١٢٠ - ١٢١.

يُؤْمِنُوا أَنْ دَعَايَتِهِمْ ضِدَّهُ لَنْ تَجْدِيَ نَفْعًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَنْبَرَكُ وَأُخَيَّ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُلُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران: ٤٩]. كما خفف عنهم بإذن الله تعالى بعض المحظورات الشرعية في الطعام لكي يعزز من ثقتهم بنفسهم ودورهم في الحياة: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيَّنَّ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران: ٤٩].

إلا أن منهج الكفر بقي سائداً في تعاملهم مع عيسى عليه السلام وكانهم عبيد لإشاعتهم التي أطلقوها عنه (حاشاه) منذ الولادة فكذبوا الآيات والبيانات وظلوا يكيدون له وللمؤمنين معه بشكل مستمر . بل حتى في وفاته عليه السلام أطلقوا عليه إشاعة قتله من قبلهم والتي كذبها القرآن الكريم في أكثر من موضع، إلا أنها ما زالت متداولة حتى اليوم بما يضعون لها من أدلة زائفة أو بما يعملون لتقويتها لتكون قابلة للتصديق عبر دعاية مستمرة وإشاعات داعمة لها وإعلام مشوه للحقيقة وحرب نفسية ضد الحق وأهله : قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٨].

الفتنة أشد من القتل :

ومن خلال النظر في تعامل القرآن الكريم مع صور وأساليب الحرب النفسية في قصص الأنبياء وفي غيرها نقف على أن القرآن وضع لهذه الحرب منزلة أكبر وأخطر من الحرب الفعلية، وذلك من خلال تصويرها بالفتنة التي تستهدف الإنسان في فكره وعقيدته والتي يتضح من خلالها أن قتل الإنسان أهون من صرفه عن جادة الصواب قال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١].

والتي يتضح من خلالها أن آثار القتل تنتهي غالباً بموت الإنسان، أما الحرب النفسية فهي لا تقتل جسده بل تحرف أفكاره وتضلل معتقداته فيكون ضحية من جهة وداعية لغيره لسلوك طريق الانحراف والضلال من جهة أخرى وهذا المنهج بالطبع اشد تأثيراً في الإنسان من القتل المعتاد.

وغالباً ما تكون هذه الفتنة بشرية المصدر، أي: ضغط الإنسان على الإنسان لغرض إخضاعه له والسيطرة على قراره ومصدر ثرائه العقلي أو المالي أو النفسي، مشكلة عبر مختلف الصور والمظاهر ما يعرف بالحرب النفسية، وقد ألقى المولى عز وجل بوعيده الشديد على كل من يحاول (فتنة) المؤمنين بتحريضهم أو إجبارهم أو تعذيبهم ليرتكبوا دينهم القويم عبر مختلف وسائل الحرب النفسية المؤثرة، قال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَنَافُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

ومعنى فتنوا المؤمنين والمؤمنات أحرقوهم بالنار ولم يجعلوا لهم خياراً في ذلك إلا أن يكفروا بالله، فمحنوهم، أي: أدخلوهم في محنة شديدة، في دينهم ليرجعوا عنه، وتمتد هذه الفتنة إلى كل وسائل إخضاع النفس الإنسانية لخصمها بالتعذيب أو الحصار أو التجويع أو الإرهاب وسائر أساليب الحرب النفسية المعروفة.

(قال أصحاب الأخبار والتفسير: إن أصحاب الأخدود كانوا باليمن وكان لهم ملك يقال له: ذو نؤاس وسمي بذلك لأنه كانت على رأسه صفيرتان تنوسان على عاتقيه، فسمي ذا نؤاس وكان جباراً عاتياً، وأنه كان له وزير ساحر كاهن وعليه مدار أهل الملك)^(١).

وكثيراً ما تمتنع أو تقاوم هذه الفتنة، أي الحرب النفسية، بالقتال المباشر حين لا يجدي نفعاً لإيقافها إلا ذلك، فإن بقاء واشتداد فتنة الحرب النفسية يمنع الناس من

(١) ينظر: الخطيب البغدادي، تاريخ الأنبياء، مصدر سابق، ص ٣٩٤.

الإيمان بالله واتخاذ سبيل الحق والهدى منهجاً، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ أُنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٩٣).

وهذا يعني أن الشريعة الغراء أقرت شن الحرب ومقاتلة دعاة الباطل ومثيري الإشاعات والشاقيين لصف المؤمنين مادام هدفهم إلحاق الضرر بأهل الإيمان، وما لم يتوقفوا عن ذلك بالتوبة.

يقول سعيد حوى في تفسيره معلقاً على قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ أُنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الأنفال: ٣٩). ما نصه: (الهدف النهائي للجهاد في الإسلام هو أن تنقطع فتنة المؤمنين عن دينهم، وأن تكون كلمة الله هي العليا في العالم، وكثيرون من الناس لا يعرفون المراد من كلمة الفتنة في هذا المقام حتى إن الذين يفتنون المسلمين عن دينهم يتهمون المسلمين بالفتنة إذا ما طالبوا بإقامة شريعة الله).^(١)

بل إن الله تعالى عاتب المسلمين الذين يتعرضون لمثل هذا الموقف ويستسلمون لفتنة الكفار من دون أن يحاولوا الهجرة أو الرحيل والخلاص من وطأة الحرب النفسية، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْكَلْبِيَّةَ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَئِنْ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء: ٩٧).

إن اعتراف القرآن الكريم بالفتنة وتأكيده على تأثيرها المباشر على الإنسان باعتبارها (أشد) و(أكبر) من القتل يدلل بوضوح على أن الحرب النفسية المرادفة في معانيها ودلالاتها لمعنى (الفتنة) إنما هي حقيقة واقعة ولها من الآثار على الإنسان وحياته ما يجعلها في مرتبة متقدمة جداً من الخطورة والتأثير على عقل الإنسان ومعنوياته .

(١) سعيد حوى، الأساس في التفسير، دار السلام، القاهرة، ١٩٨٥، مجلد ٤، ص ٢١٧٤. (١)

المبحث الثالث: صور وأساليب الحرب النفسية في السنة النبوية

المطلب الأول: صور وأساليب الحرب النفسية في العهد المكي

كانت انطلاقة دعوة الرسول ﷺ إلى هذا الدين الخالد في مكة المكرمة، أشبه ما تكون بعملية اندلاع نور قوي مفاجئ في غياهب حلكة دامسة، فاصطدم العقل لأول وهلة وعشي البصر، وارتجفت القلوب والأطراف بل الأبدان كلها. حتى إذا ما زال اثر الصدمة الأولى أدركت الجاهلية أنها أمام امتحان عسير لابد أن تجتازه، وأنها أمام مفترق طرق لا اختيار فيه فأما الإيمان وأما الكفر.

وقد مثلت تعاليم الإسلام وأحكامه وتشريعاته نقطة تحول كبيرة في حياة قريش وبقية قبائل العرب قبل أن يصل هذه التحول إلى بقية العالم. وفي كل مجالات الحياة: العقيدة، والعبادات، والأخلاق ونظام المعاملات وغيرها. إلا أن هذا التحول في نظام الحياة الشامل لم يمر من دون اعتراضات أو تصد أو ردود فعل، بل بدأت قريش مع انطلاق الأيام الأولى للدعوة حرباً نفسية شرسة ضد المسلمين الأوائل يساعدها في ذلك قلة المسلمين (آنذاك) وضعفهم وجهل الناس بمحاسن الإسلام وفضله على العالم وجبروت قريش التي كانت تتخذ من موقعها المتميز في الجزيرة العربية ومن الأصنام تجارة وعبادة. وإذا كانت الحرب النفسية في مفهومها العام تتخذ من عقل الإنسان وعقيدته ومعنوياته هدفاً وبمختلف أساليب التأثير التي تلائم بيئة الصراع ونظرة الخصوم لعملية النصر والهزيمة، فإن مشركي قريش استخدموا أسواقهم الموسمية وقوافلهم التجارية وعلاقاتهم مع بقية القبائل وبراعتهم في الشعر والخطابة ومواسم الحج واللقاءات العامة مناسبات للدعاية ضد الإسلام والمسلمين وإثارة الإشاعات عنهم، وإرهابهم وتهديد المسلمين بالعذاب والتهجير والطرود ومصادرة الأموال والتنكيل والسخرية والإغراء وإحداث الشقاق بينهم بقصد تشتيتهم وواد الدعوة في دروب مكة قبل أن تنطلق وتنتشر فلا يستطيعون وقفها أو السيطرة عليها.

بل كانت هذه الحرب النفسية الموجهة إلى المسلمين تزداد قوة وضراوة كلما نما الإسلام وانتشر وقوي عوده. أو كلما فشل أسلوب من أساليبهم فانتقلوا إلى غيره لإحداث التأثير المطلوب.

أما أبرز صور وأساليب الحرب النفسية الموجهة للمسلمين في المرحلة المكية فهي :

أولاً : أسلوب السخرية والاستهزاء :

وشخصه القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ فَأَصْدَعَ بِمَا تُؤْمَرُ وَاعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٦) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ [الحجر: ٩٤-٩٦].

والذي يأمر رسول الله ﷺ بدعوة الناس إلى دين الهدى والحق، وعدم الالتفات إلى سخرية المشركين واستهزائهم، فإن الله تعالى هو الذي سيتولى الرد عليهم ويبعدهم عن شخص الرسول ﷺ ودعوته، وذلك أنهم أشركوا مع الله عز وجل ما لا يجوز في حقه تعالى.

ثم وفي السورة نفسها يسجل القرآن الكريم أن أسلوب السخرية والاستهزاء الذي يتبعه المشركون يؤثر بالتأكيد في نفسية الرسول ﷺ: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ (١٧) [الحجر: ٩٧].

وعلاج ذلك في الآية التي تليها تماماً : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ (١٨) وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿١٩﴾ [الحجر: ٩٨-٩٩].

وقد اتبع المشركون في مكة أسلوب السخرية والاستهزاء بالمسلمين، خاصة بالرسول ﷺ كأسلوب مؤثر من أساليب الحرب النفسية، التي تبعد الناس عن اتباع صاحب الدعوة، فالنفس مجبولة على الاقتداء بالصالح والقوي والمحترم في المجتمع، خاصة في مجتمع الجاهلية والذي يحتل فيه سلوك السخرية والاستهزاء موقعاً متميزاً.

(ولا تسل عن العربي إذا جهل كم هو خبير في فن الاستهزاء ومع أننا نعلم أن السخرية كلام وفقاعات هواء إلا أنها في الواقع والحقيقة تجرح ابلى من جرح السنن ما لم تكن النفس على ثقة عظيمة بذاتها وما تحمل من حق وحتى هذه النفس تحزن ويثقل عليها الأمر)^(١).

وبدا رسول الله ﷺ دعوته الجهرية بعد ثلاث سنوات من الدعوة سرّاً، بعد قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. فبدأ بنبي هاشم حيث جمع منهم (٤٥) رجلاً ليخبرهم أنه رسول الله، وأن الإنسان يبعث كما يستيقظ ويموت كما ينأ، فانفض عنه قومه المقربون غير مصدقين به بل واستهزأ أبو لهب به ﷺ وأعلن أبو طالب حمايته له. ثم جمع الرسول ﷺ بطون قريش على الصفا لينذرهم قائلاً (أرأيتم لو أخبرتم أن خيلاً بالوادي بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي). فأجابوه بالإيجاب، ثم قال عليه الصلاة والسلام: (فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد..). ولما أتم كلامه ﷺ انفض الناس عنه وتفرقوا ولم يذكر لهم أية ردة فعل، إلا (أبو لهب) فقد سخر واستهزأ برسول الله ﷺ قائلاً^(٢): (تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا، فنزلت في حقه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]).

وكان أبو لهب من أشد الناس قسوة على رسول الله ﷺ وأكثرهم سخرية به^(٣).

(وكانت أم جميل، زوجة أبي لهب، من ألد أعداء رسول الله حتى إنها كانت تذيع عنه الأكاذيب في مجامع النساء، فتشعل بتلك الأكاذيب نار العداوة في قلوبهن، ويعبر العرب عن مثل ذلك الفعل بحمل الخطب لأنه هو الذي يؤجج النيران)^(٤).

(١) د. أحمد نوفل، الحرب النفسية من منظور إسلامي، مصدر سابق، ص ٢٣.

(٢) البخاري، كتاب التفسير / رقم الحديث (٤٧٧٠)

(٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٨.

(٤) الشيخ محمد الخطري بيك، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، القاهرة ٢٠٠٣، ص ٨٠.

ومن صور استهزاء هؤلاء برسول الله ﷺ أنهم كانوا إذا رأوه أشاروا إليه في استهزاء وقالوا : انظروا إلى حفيد عبد المطلب الذي يدعي أن لديه خبر السماء ثم ادعوا أنه (حاشاه) مجنون واتهمه بعضهم بالسحر، وقال عنه آخرون: قد تقمصه شيطان، ولما يكفهم الكلام في الاستهزاء برسول الله ﷺ بل أضافوا إليه الفعل، ومن ذلك أن رسول الله ﷺ كان يصلي عند الكعبة، وجماعة من قريش ينظرون إليه حتى قال أبو جهل : من يقوم إلى سلا جزور بني فلان (أمعاء ذبيحة لهم) فيضعها بين كتفيه وهو ساجد ؟ فقام أحدهم ففعل ذلك وهم يضحكون ويسخرون من الموقف، حتى جاءت فاطمة (رضي الله عنها) وهي صغيرة تبكي وترفع القاذورات عن رسول الله ﷺ فدعا عليهم دعاءً لم يخطئهم إذ مات من شهد هذا الموقف في معركة بدر^(١).

ومن صور هذه السخرية اللاذعة التي كانوا يعاملون بها الرسول ﷺ وهي من أساليب عمل الحرب النفسية، أن بعضهم كان يطلق عليه لقب (الأبتر) إشارة إلى أنه لا خلف له من الأولاد الذكور، فأنزل الله تعالى في ذلك : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ۖ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۚ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۚ ﴾ [الكوثر: ١-٣].

وكان هدفهم في اتباع السخرية والاستهزاء بالإسلام والمسلمين تخذيل المسلمين وتوهين قواهم المعنوية، إذ رموا الرسول ﷺ بتهم هازلة وشتائم وعبارات سفينة^(٢).

وعالج القرآن الكريم أسلوبهم في السخرية بمثلها مع الوعيد بسوء الخاتمة، قال تعالى: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا يَدَّعُونَ ۚ ﴾ [الأنعام: ٥].

(١) صحيح مسلم (٣ / ١٤١٩) وينظر: القرطبي، بداية المجتهد (١ / ٥٤).

(٢) ينظر: منير محمد الغضبان، المنهج الحركي للسيرة النبوية، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٤، ط١،

التي تحمل الكثير من معاني فضح سخريتهم بالدعوة وإنذار الله تعالى لهم، رغم فشل هذه الطريقة في التأثير على المسلمين . (ولم تفلح طرق الاستهزاء في الصد عن سبيل الله أو تشويه معالمها . إنها زادت شعور المسلمين بما تزخر به الوثنية من معرات ومخاز تستحق الفضيحة والاستئصال)^(١).

ثانياً: أسلوب الإغراء والترغيب:

حين أدرك مشركو قريش أن دعوة الإسلام متجذرة في نفوس من اتبعها، وأنها تحمل ما يؤهلها للثبات والصمود، لجؤوا إلى معاملة الرسول ﷺ بأسلوب إغرائه وترغيبه بالأموال أو المناصب الدنيوية أو الجاه وأي وسيلة دنيوية أخرى. يظنون أنهم من خلالها يستطيعون إيقاف مد الدعوة الجديدة، وفي هذا الأسلوب المتبع من قبل المشركين ما يعبر عن فهمهم القاصر لأصول ودوافع الدعوة الإسلامية، أو تجاهل لمعانيتها، حين ربطوا أنهم إذا منحوا الرسول ﷺ بعض متع الدنيا فانه قد يتراجع عن دعوته.

ومن أشهر محاولاتهم في هذا الباب، حين ذهب عتبة بن ربيعة وكان سيداً مطاعاً في قريش إلى رسول الله ﷺ قائلاً: (إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً نراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ..)^(٢).

ثم إنه حين أنهى كلامه قرأ عليه رسول الله ﷺ : ﴿ حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) محمد الغزالي، فقه السيرة، بيروت، دار القرآن، ١٩٨٠، ص ٣٤.

(٢) تفسير القرطبي (١٠ / ٣٢٨).

﴿٢﴾ كَتَبْتُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قَرَأَنَا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَمٍ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونُ ﴿٥﴾ ﴿ [فصلت: ٤-٥] .

ومضى رسول الله ﷺ يقرؤها عليه ثم قال له : (قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك)^(١) .

وفي جوابه ﷺ من آيات القرآن ومن حديثه وفي أفعاله ما أوصل إليهم رسالة أن طريقتهم هذه بإغرائه بالمال أو الجاه أو الملك لن تجدي نفعاً، وأنه ماضٍ في الدعوة تنفيذاً لأمر الله تعالى، فلما رأوا ذلك ذهبوا إليه مجتمعين متصورين أنهم إذا عرضوا عليه نفس منافع الدنيا جميعاً وعلناً فربما يتنازل ويقبل بها طرحوه فقال لهم رسول الله ﷺ :

(ما بي ما تقولون، ما جئكم بما جئكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وانزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فان تقبلوا مني ما جئكم به فهذا حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوا علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم)^(٢) .

ويربط بعض كتاب السيرة أسلوب الرسول ﷺ في رفض غنائم الدنيا، بصدق هذا الدين وصدق نبيه عليه الصلاة والسلام في تبليغ الدعوة، إذ إنه لو أراد سلوك غير الطريق الصحيح لقبل بالملك ليكون السلطان له عوناً في تبليغ الدين ونشره، وفي هذا إشارة إلى اعتماد سبل السلوك المستقيم والأساليب الصادقة في الدعوة^(٣) .

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ١/ ٢٩٣-٢٩٤ .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ١/ ٢٩٥-٢٩٨ .

(٣) د. محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، ص ٩٢ .

ولا يخفى ما في أسلوب الترغيب والإغراء من دعاية مخطط إليها ومحاولة جادة لغسل دماغ المستهدف، بهدف دفعه للانحراف بدعوته وسلوك طريق آخر غير الذي يريده.

ثالثاً: حرب الإشاعات والافتراءات:

وقد أحست قریش أنها بحاجة إلى هذا الأسلوب لخوفها من انتشار الإسلام أكثر داخل مكة وخارجها، لا سيما وأنهم قد وقفوا بأنفسهم على انتشاره القوي، فاستخدموا أسلوب الدعاية الشاملة ضد الدعوة الجديدة بكل ما احتوته هذه الدعاية من تشويه وافتراء وأكاذيب ومجادلة وترويج إشاعات وظنوا أن حرب الإشاعات والافتراءات لابد أن تفيدهم (خاصة) مع القبائل العربية خارج مكة والذين كانوا يفدون إليها في المواسم والأعياد للتجارة والحج، فكان هدفهم من ذلك أن يعود هؤلاء بصورة مشوهة عن الدين الجديد ودعوة الرسول ﷺ.

وقد سجل القرآن الكريم جملة من هذه المفتريات والإشاعات، منها في قوله تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ اِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ ﴿١٣﴾﴾ [هود: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا اضْغَضْتُ احْلِيْمَ بَلِ افْتَرَيْنَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَاْنَا بِتٰبِعٍ كَمَا اُرْسِلَ الْاَوَّلُوْنَ ﴿٥﴾﴾ [الأنبياء: ٥].

وقوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوْا اَنْ جَآءَهُمْ مُّنْذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُوْنَ هٰذَا سِحْرٌ كَذٰبٌ ﴿٤﴾﴾ [ص: ٤].

وقوله تعالى: ﴿وَاِنْ يَكَاْذِبِيْنَ كَفَرُوْا لَيَرْجِعُنَّكَ بِاَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُوْلُوْنَ اِنَّهٗ لَمَجْنُوْنٌ ﴿١١﴾﴾ [القلم: ٥١].

وغيرها الكثير من الآيات المباركات التي أكد فيها الله تعالى أسلوب المشركين في

الصد عن سبيل الله باتباع سبل الحرب النفسية وفي مقدمتها الافتراءات وإطلاق الإشاعات التي تغير وجه الحقيقة وتشوه الصورة الفعلية للإسلام ولدعوته، حتى إنهم كانوا يجتمعون في ناديمهم بمكة لاختيار أفضل الصور وأنجح الكلمات وأبلغ المعاني المؤثرة في التشويه والافتراء على الله، وكانوا ينتقلون بين الكلمات والصفات المذمومة المنفرة، حتى قال لهم الوليد بن المغيرة: قولوا إنه ساحر (جاء بسحر يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته..)^(١). وافترضوا على رسول الله ﷺ أنه رجل بسيط يتييم وأن أمر الرسالة عظيم، لا بد أن يختص به العظماء وقالوا: ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَنْشِئُ فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرٌ﴾ (٧) [الفرقان: ٧].

وحاول النضر بن الحارث تعميق هذه الافتراءات وإطلاق الإشاعة على القرآن بأنه من أساطير الأولين، وقد كان هذا الرجل قد تعلم من الفرس بعض حكاياتهم وأساطيرهم في الحيرة فأخذ يقصها على الناس موهماً السامع أنه بذلك ينافس الرسول ﷺ في كلامه، فرد عليه القرآن الكريم بطلان إشاعته، بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (٥) [الفرقان: ٥]. وخلاصة القول إن اتهام الرسول ﷺ من قبل مشركي مكة بالجنون أو السحر أو الشعر أو راوي أساطير أو الكذب، وغيرها من صفات وألفاظ إنما كان يراد بها تشويه سمعته وصورته ﷺ فلا يتبعه احد ويفارقه من اتبعه وقد حققت حرب الإشاعات هذه بعض النجاح في إبعاد الناس عن الإيمان بهذا الدين عن طريق تشويه صورة الداعي إليه ضمن حرب نفسية شرسة تجسد فيها الصراع على أشده بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر.

(١) ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، (١/ ٢٧١).

رابعاً : حرب الإيذاء والاضطهاد :

لم يكتف المشركون بأساليب التشويه والافتراء والإغراء مما يغلب فيها العقل أو التعامل غير المباشر للوصول إلى الهدف وهو إفشال مسيرة هذا الدين، فلجؤوا إلى أساليب القوة والإيذاء وإرهاب المسلمين وصولاً إلى تعذيب من تصل أيديهم إليه في إطار حملة منظمة من الحرب النفسية التي تستهدف عقل المسلم وعقيدته وعلى رأسهم رسول الله ﷺ يقول ابن هشام :

(ثم إنهم عدوا على من أسلم، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والعطش والجوع وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، من استضعفوا منهم، يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه ومنهم من يصلب لهم، ويعصمه الله منهم)^(١).

وقد مر بنا أنهم ألقوا على جسده الشريف وهو يصلي سلا جزور وفي أخرى أنهم اتفقوا على قتاله حتى أخذوا بمجاميع ثوبه وأبو بكر يصرخ فيهم : أقتلونا رجلاً أن يقول ربي الله، ومنها أن أبا جهل قال لجماعة من المشركين : (واللات والعزى لئن رايتَه يفعل ذلك لأطأن على رقبته أو لأعفرن وجهه في التراب) ثم ما هي إلا أن عاد إليهم خائفاً وهو يتقى بيديه، فسئل عن ذلك، فقال : (إن بيني وبينه لخندقاً من نار، وهولاً وأجنحة) فقال رسول الله ﷺ : (لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً)^(٢).

واتبعوا طريقة الإيذاء والتعذيب مع بقية المسلمين عسى أن يتركوا بذلك إسلامهم وينفضوا عن رسول الله ﷺ (وقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله ﷺ جالس

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٣٩)

(٢) مسلم، صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين، باب قوله : (إن الإنسان ليطغى) رقم ٢٧٩٧.

فكان أول خطيب دعا إلى الله تعالى، وإلى رسوله ﷺ وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين فضربوهم في نواحي المسجد ضرباً شديداً ووطئ أبو بكر، وضرب ضرباً شديداً، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة، فجعل يضربه بنعلين مخصفوتين ..^(١).

أما بلال بن رباح ؓ فلم يكن له أحد يحميه كعشيرة أو جماعة، فلقي من المشركين أشد العذاب، فكان يلقي في طرقات مكة على حصاها المحرق، ظهراً وهو نصف عار من ملابسه وتوضع على بطنه الأحجار الثقيلة حتى يكاد يفارق أنفاسه، فلا يقول سوى: أحد.. أحد، حتى اشتراه أبو بكر ؓ وأعتقه في سبيل الله^(٢).

ولقي عمار بن ياسر وأباه وأمه أشد العذاب والتنكيل فكانت أسرة أسلمت وصبرت وصمدت حتى نالت رضا الله تعالى، فقد مات ياسر تحت التعذيب، وطعن أبو جهل سمية أم عمار أسفل بطنها حتى ماتت ولقي عمار ما لقي من العذاب الشديد، فكان يمر رسول الله ﷺ وهم يعذبون، فيقول :

(صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة)^(٣). وهكذا سار الأمر مع بقية الصحابة ؓ خاصة من لا عشيرة له أو عائلة تحميه حتى أثبت مشركو قريش بذلك الأسلوب من الحرب النفسية أنهم من صف عارض الإيمان وعمل على وقف الدعوة الإسلامية بشتى الوسائل .

ويذكر رسول الله ﷺ ما لقيه من أذى قريش في مناسبات عدة، منها قوله : (لقد أخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أذويت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أتت علي ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط

(١) ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ٣٠).

(٢) ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢٩٤).

(٣) ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية ٦٨/ ٢.

بلال^(١) وكان من أذاهم لرسول الله ﷺ أنهم اجتمعوا على قتله في آخر ليلة له في مكة قبل هجرته إلى المدينة المنورة، في خطة خبيثة تشترك فيها سائر القبائل فلا تقوى بنو هاشم على الثأر له، فكان أن أنقذه الله تعالى من مكرهم بأمر الهجرة وإفشال خططهم في محاولة إيدائه ﷺ. ^(٢)

وكان علاج القرآن لحالة المسلمين هذه وتعرضهم للأذى والإرهاب والتعذيب هو بالصبر وكان رسول الله ﷺ قدوتهم في ذلك صابراً محتسباً، مؤمناً بنصر الله له مهما تكن التضحيات، وكذلك استخدم بعض المسلمين ما عرف بين القوم بالجوار فكان بعضهم يدخل في حماية أحد المشركين ويعلن ذلك حتى لا يتعرضوا له بالعذاب حتى إذا أخبر القرآن رسول الله ﷺ بعصمة الله وحايته من المستهزئين، ردوا جوار المشركين وتصدوا لأذى الكفار بكل شجاعة وصبر وتحمل^(٣).

وكان في أمر رسول الله ﷺ لصحابته في الهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة، حرباً نفسية مضادة أوهنت صف المشركين وأضعفت صفهم فكانت علاجاً لحالة التعذيب التي مارسها المشركون في مكة.

خامساً: طلب المعجزات والخوارق:

وهي وسيلة أخرى من وسائل الحرب النفسية المتبعة من قبل المشركين في قريش، والتي تدل على (أن المبطلين لا يستسلمون أمام أهل الحق بسهولة ويسر، فهم كلما أخفقت لهم وسيلة من وسائل المقاومة والقضاء على دعوة الحق، ابتكروا وسائل

(١) سنن الترمذي (٤/٦٤٥) ورقمه (٢٤٧٢). صححه الألباني، صحيح الجامع ٥٠٠١.

(٢) (ابن كثير، البداية والنهاية - ٣/١٧٦ -)

(٣) ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن (٢/١٨٠).

أخرى وهكذا حتى ينتصر الحق انتصاره النهائي ويلفظ الباطل أنفاسه الأخيرة^(١).

وهكذا لجأت قريش إلى طلب خوارق العادات والمعجزات من الرسول ﷺ في محاولة لإحراج وإظهاره أمام الناس مدعيًا وكاذبًا، وفي هذا الأسلوب ما فيه من عظيم فتنة وابتلاء مالا يخفى على أحد.

فطالبوا أن يزحزح الرسول بطلب من ربه الجبال التي تحيط بمكة والتي ضيقت عيشهم، وطلبوا أن يفجر عيون الماء ليحل مشكلة المياه، وأن يحول القفار إلى جنات من نخيل وأعناب، وطلبوا كتابًا ينزل من السماء يلمسونه بأيديهم ويرونه بأعينهم^(٢).

وقد سجل القرآن الكريم مطالبتهم هذه في سور عدة فاضحاً أساليبهم في التأثير على نفسية الرسول ﷺ قال تعالى :

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْسُ فِي الْأَشْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُورُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ٧-٩].

ورغم مطالبة المشركين للرسول ﷺ بتحقيق المعجزات من قبل ربه، فإن ذلك لم يتحقق إلا بما لا يترك القوم في معادلة بين الإيمان أو تلقي العذاب نتيجة إنكارهم وعنادهم رغم تحقق المعجزة، ومثال ذلك ما حدث في الإسراء والمعراج ومعجزة انشقاق القمر، إذ لم يخيروا بين الإيمان بها وبصانعها عز وجل وبين العذاب عقوبة عن عدم الإيمان بها .

كما أن (الحكمة في أنهم لم يجابوا لما طالبوا لأنهم لم يسألوا مسترشدين وجادين وإنما سألوا متعنتين ومستهزئين، وقد علم الحق سبحانه أنهم لو عاينوا وشاهدوا ما طلبوا

(١) الدكتور مصطفى السباعي، السيرة النبوية دروس وعبر، بغداد، مطبعة أنوار دجلة، ٢٠٠٣، ط١،

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٧٢) و(٤/ ٢٤٤).

لما آمنوا . ولظلوا في غيبيهم وضلالهم ..^(١) .

ولهذا قال تعالى مسجلاً مثل هذه الأهداف : ﴿ وَلَوْ أَنَّا زَلَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ ﴿١١١﴾
[الأنعام: ١١١].

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن لا يجاب هؤلاء إلى ما طلبوا من المعجزات وخوارق العادات لأن سنته تعالى انه إذا طلب قوم فأجيبوا، ثم لم يؤمنوا فقد حق عليهم العذاب عندئذ، كما حصل في الأمم السالفة وأخبر القرآن الكريم عنها.

وقد كان للأدب الرباني الذي تمتع به رسول الله ﷺ وحكمته البالغة في تقدير عواقب الأمور والأحداث ولأنه رحمة للعالمين فلا يريد إيقاع قومه في حرج كهذا، لم يسع أو يطلب من ربه الجليل تحقيق هذه المعجزات بل كان جوابه مشهوراً ومشهوداً له بالحكمة البالغة . (ما بهذا بعثت إليكم، إنما جئكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن قبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم)^(٢) .

لقد كان القرآن الكريم خصيم المشركين في أسلوبهم الضاغط هذا والمخرج لرسول الله ﷺ فكانت الآيات المباركات تنزل من السماء مسجلة هذه الطلبات المعجزة ومجيبة إياهم أنهم لن يؤمنوا مع تحقق أية آية أو معجزة يطلبون رغم ما في مطالبهم تلك من إحراج وفتنة وإلحاح في المحاولة. وما من شك أن لهذه الطلبات التعجيزية أثرها على نفس الداعية وهي معوق في نفوس المدعوين الذين لم يستبن لهم وجه الحق بعد، ولم تتحقق لهم المقاييس الصحيحة لمعرفة الوحي من الأساطير أو السحر^(٣) .

(١) د. علي محمد الصلابي، السيرة النبوية، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥، ط ٣، ص ١٧٩ .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٤٥٨) .

(٣) ينظر : المباركفوري، الرحيق المختوم، ص ٨٩ وما بعدها .

خاصة وقد استمر مشركو مكة في أسلوبهم الضاغظ والمراوغ في طلب المعجزات ولم يكتفوا بها لديهم من محاولات فاستعانوا باليهود في ذلك .

حيث أرسلت قريش (النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط) إلى المدينة لسؤال أحبار اليهود (فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفا لهم أمره) . فقال لهم اليهود : (سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم ؟ وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح، ما هو) وفعلوا ذلك لإحراج الرسول ﷺ فأجاب القرآن الكريم عن أسئلتهم في سورة الكهف ورغم أن أحبار اليهود قالوا لهم إنه إذا أجابكم آمنوا به، إلا أنهم لم يؤمنوا، ولم يؤمن اليهود أنفسهم بدعوته^(١).

لقد كان جواب وأسلوب رسول الله ﷺ عن مطالبهم تلك عقلياً ومنطقياً، فقد أحالهم إلى العقل لإدراك منطقية ما يطلبون وعدمها، وإن الإدراك العقلي والتفكير المنطقي هو الذي يدل على وجود الله تعالى، وإذا كانت المعجزات آنية وغير خالدة فإن معجزة العقل وثماره لا تنقطع ولا تنتهي، قال تعالى مفصلاً كلام الرسول ﷺ: ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّا نَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٥٠].

سادساً : أسلوب المقاطعة الاقتصادية :

وهو من أساليب الحرب النفسية المعروفة، ويتبع لإيقاع الضرر بالخصم عن طريق محاربته بمنع الطعام وحجب مصادر قوته وتجفيف منابع الخير لديه حتى يفقر وتضطره الحاجة إلى التنازل عن آرائه وعقائده التي يعتقدها ويترك أمر دعوته فيستسلم للخصم من غير شروط أو يتنازل لعدوه عن مبادئه . (كما لجأت قريش إلى

(١) ينظر :ابن هشام، السيرة النبوية ١/ ٢٩٩-٣٠١.

مقاطعة المؤمنين كسلاح من أسلحة المقاومة والتعذيب، ليحملوهم على ترك الإسلام ويصدوا غيرهم عن الدخول فيه وكانت مقاطعتهم عامة في التجارة والمعاملة والمصاهرة والنفقة وكانوا يقصدون إفقار المؤمنين وكساد تجارتهم وبوار بناتهم وتجويعهم، وهو إسفاف في الحرب وفجر في الخصومة^(١).

وقد لجأت قريش لهذه الطريقة حينما رأت فشل بقية الأساليب في ثني الرسول ﷺ عن الدعوة فعزموا على مقاطعة بني هاشم حين أصروا على حماية الرسول ﷺ وقد فعل بعضهم ذلك إيماناً وبعضهم لأوامر القبيلة والقراية، وتعاهدوا على ذلك في وثيقة: (على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم، ولا يدعوا سبباً من أسباب الرزق يصل إليهم، ولا يقبلوا منهم صلحاً ولا تأخذهم بهم رافة، ولا يخالطوهم ولا يجالسوهم ولا يكلموهم ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا إليهم رسول الله للقتل، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم)^(٢).

ولبث بنو هاشم والمسلمون من بينهم ثلاث سنين في هذا الحصار القاسي، واشتد عليهم البلاء والحاجة إلى الطعام مبلغاً عظيماً حتى أكلوا أوراق الشجر فلم يعطوا الدنية في دينهم أو يتنازل الرسول ﷺ عن دعوته أو يجامل المشركين على حساب الحق حتى انبرى قوم من المشركين على تمزيق أمر صحيفة الحصار خجلاً من أقوال العرب في ذلك وشفقة على بني جلدتهم من أن يهلكهم الجوع، وكانت معجزة الله تعالى حاضرة حين وجدوا الأرضة قد أكلت جلد الصحيفة إلا عبارة (باسمك اللهم) فانتهى الحصار والمقاطعة من دون أن يحقق هدفه في استسلام المسلمين أو تراجع الرسول ﷺ عن الدعوة^(٣).

(١) محمد شديد، الجهاد في الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، بلا سنة طبع، ص ٣٤.

(٢) ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية ١/ ٣٥٠، وابن القيم، زاد المعاد ٢/ ٤٦.

(٣) ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية ٢/ ٦٧ وابن كثير، السيرة النبوية ٢/ ٤٣.

سابعاً: أساليب أخرى مختلفة:

لم تتوقف ذهنية قريش مجتمعة عن اتباع أية طريقة أو أسلوب من أساليب الحرب النفسية دون أن يعملوا بها للتأثير في معنويات الرسول ﷺ وتفتيت وحدة الصف المسلم وتغيير الناس من الدعوة بهذا الدين وكان من أساليبهم المتبعة في بداية الجهر بالدعوة محاولتهم زرع بذور الفرقة والخلاف بين الرسول ﷺ وعمه أبي طالب لما في هذا الأمر من خطورة على الدعوة وإفراغها من قوتها، فلو نجحوا في ذلك لرفع عن الرسول ﷺ غطاء الحماية العشائرية الذي كان له ابلغ الأثر في صد المشركين عن إيذاء الرسول ﷺ وقد عمل المشركون بهذا الأسلوب مخاطبين أبا طالب، أن دعوة ابن أخيه فيها الكثير من سب دين الآباء والأجداد فأبعدوا بذلك أبي طالب عن الإيمان بالدعوة مع أنه وفر الحماية لرسول الله ﷺ.

وكان من أساليبهم كذلك النظر إلى المؤمنين بالإسلام نظرة احتقار وازدراء وتقليل مكانة، ويجادلون الرسول ﷺ في ذلك لينصرف عنهم فيكون قد وضع مصيره مع مصير سادة قريش من الذين رفضوا الإيمان بالله فتخسر الدعوة جوهرها باعتبارها رسالة للعالمين كافة، حتى إنهم طلبوا منه عزل هؤلاء الفقراء والمستضعفين في مجلس خاص فلا يقعدوا معهم، فكان القرآن الكريم لهم بالمرصاد حيث أرشد الرسول ﷺ إلى خطورة هذا الاتجاه وضرورة مقاطعة العمل به، قال تعالى: ﴿وَأَصِيرُ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَفَى يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

كما اتبع المشركون طريقة أخرى هي محاولتهم قطع علاقات المسلمين مع من يتحالف معهم والعمل على عدم السماح لهم بإقامة علاقات خارجية قد يستفيدون منها في حماية الدعوة، وقد برزت هذه الطريقة حين أرسلت قريش عمرو بن العاص، وقد كان مشركاً إلى النجاشي ملك الحبشة طالباً منه عدم استقبال المهاجرين المسلمين

في بلده، فباءت محاولته بالفشل وبقي المسلمون هناك حتى عودتهم بعد معركة خيبر^(١).

لقد اتبع المشركون في العهد المكي وسائل وأساليب مختلفة من الحرب النفسية لإضعاف معنويات المسلمين وخنق دعوة الرسول ﷺ إلا أنها باءت بالفشل الذريع بعد أن استمرت قلوب الناس تهفو للدخول في هذا الدين وتدافع عنه مهما تكن الضغوط الموجهة إليها.

المطلب الثاني : صور وأساليب الحرب النفسية في العهد المدني

إذا كانت الحرب النفسية في العهد المكي قد انحصرت بين المسلمين والمشركين فحسب، فإن العهد المدني شهد دخول أعداء جدد ضد المسلمين، فازدادت ضراوة الحرب النفسية وكثرت ألوانها وتشعبت أساليبها، بدخول أهل الكتاب - من اليهود خاصة - وفئة المنافقين لينضموا كقوة مساندة ورئيسة إلى مشركي مكة وبقية العرب، في المعركة بين الحق الذي يمثله الإسلام، وبين هؤلاء جميعاً من أهل الباطل.

لهذا يمكن القول إن الحرب النفسية بين المسلمين وأعدائهم بدأت ملامحها بالوضوح أكثر إذ تبلورت الكيانات الفكرية والسياسية والعقائدية لكل الأطراف بشكل أوضح من السابق وأصبحت كل جهة من هذه الجهات لها أدواتها الخاصة ومرتكزاتها التي تنطلق منها في هذه الحرب، فإذا كانت قريش في المرحلة المكية تتصور بدءاً أن أمر الدعوة الإسلامية لا يعدو أن يكون (نزعة) أو (سحابة صيف) سرعان ما تزول أو هي خلافات عشائرية لن تكون لها خطورة شديدة، فإن هجرة المسلمين وهجرة الرسول ﷺ إلى المدينة جعلت للمسلمين كياناً خاصاً له وجوده الفعلي على الأرض، رافعاً رأيته المستقلة ومعلنناً عقيدته المتفردة وله صفاته الأخرى من القوة

(١) ينظر: طبقات ابن سعد (٢٠٧/١).

والمنعة والتمكين في الأرض.

ولاتحاد الهدف بين جهات العداء الثلاثة (المشركين، اليهود، المنافقين) وهو القضاء على الإسلام، فكثيراً ما كانت تتحد جهودهم جميعاً في العمل على تحقيق هذا الهدف فيعملون كيد واحدة أو كفم واحد في توجيه الدعاية المعادية للإسلام، وبث الإشاعات حول الإسلام والمسلمين، ومهاجمة قيم المجتمع الإسلامي بالتزوير والكذب وإثارة الشقاق والخلافات وقطع الموارد الاقتصادية، وغيرها من أساليب الحرب النفسية المعروفة بقصد محاصرة الدعوة ودفنها في مهدها قبل أن تنطلق إلى العالم، وسنقف في هذا المطلب على أبرز صور وأساليب الحرب النفسية المتبعة من قبل هؤلاء ضد المسلمين وشخصية الرسول ﷺ محاولين إبراز أدوارهم ودوافعهم في هذه الحرب.

أولاً : المشركون :

لا يخفى أن أبرز قوة للمشركين في تلك الفترة هي قوة المشركين في قريش لاعتبارات كثيرة معروفة أهمها : كونها مهد الدعوة فقد ولد الإسلام فيها وترعرع وانتشر إلى المدينة وغيرها، والرسول ﷺ قرشي النسب، وقد حدث له مع قومه المشركين ما حدث من حرب نفسية شرسة انتهت بانتصار المسلمين بخلاصهم عن طريق الهجرة من أطواق الحصار والتعذيب والتشويه وبقية وسائل الحرب النفسية التي اتبعتها قريش معهم، وكذلك لوجود أسباب النزاع واستمرارها بين أهل الشرك من كفار مكة وبين المسلمين في المدينة لاختلاف العقيدة بينهما اختلافًا يوجب استمرار هذه الحرب، وقد استمرت قريش في حربها النفسية ضد المسلمين ما أمكنها ذلك بأساليبها القديمة ولابتعاد المسلمين عن قبضتها فقد أضاف المشركون أساليب جديدة في الحرب النفسية ضد المسلمين أهمها :

١ - أسلوب مصادرة الأموال :

استمر المشركون في حربهم النفسية على المسلمين فقد بدؤوها بمصادرة أملاكهم وبيوتهم وأراضيهم وأموالهم بهدف إفقار المسلمين وإيصال رسالة إليهم بأنهم لم يعودوا يملكون شيئاً في مكة، وكان لهذا الأسلوب كبير الأثر في نفوس المسلمين عندما أدركوا أن أملهم للعودة إلى مكة والعيش فيها لم يعد ممكناً. كما أنهم راقبوا من بقي من المسلمين في مكة لمحاولة منعه ولو بمصادرة أمواله، كما حدث مع (صهيب الرومي) ؓ فقد لحقوا به فساومهم على إعطائهم كل ما يملك مقابل هجرته مع ما صاحب كلامه من إصرار على قتالهم فرضوا بذلك، فقال رسول الله ﷺ في ذلك حين بلغه النبأ: (ربح صهيب، ربح صهيب) ^(١).

٢ - حبس المسلمين في مكة:

وذلك أن قريش كانت تحبس من تشك به في أمر الهجرة أو من تقبض عليه وهو ينوي ذلك، وقد وقع في قبضتهم منهم أفراد وخشي بعضهم مباشرة الهجرة لخوفهم من الحبس. أما في المدينة فكان رسول الله ﷺ يدعو بنجاة المسلمين جميعاً وربما خص منهم أفراداً، فكان يدعو : (اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة، اللهم أنج مسلمة بن هشام، اللهم أنج الوليد بن الوليد، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف) ^(٢).

٣ - استهداف الأسرة والمجتمع الإسلامي:

وذلك بالتفريق بين الرجل وزوجته والولد وأبيه، فلا يهاجر أحد منهم إلى المدينة حتى إن كانت أسرته هناك، وقد نوى أبو سلمة ؓ الهجرة بابنه وزوجته ففرق

(١) ابن هشام، السيرة النبوية ١/ ٤٧٧.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الاستسقاء (٢/ ٣٣ رقم ١٠٠٦).

المشركون بينهما واحتجزوا زوجته وابنه فهاجر لوحده حتى إذا انقضت سنة كاملة رقوا لحال أم سلمة (رضي الله عنها) لكثرة بكائها فسمحوا لها بالهجرة إلى المدينة^(١).

٤- إرجاع المهاجر بالاختطاف وغيره:

ومن ذلك ما حدث مع عياش بن أبي ربيعة وقد هاجر إلى المدينة قبل رسول الله ﷺ فذهب إليه أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام فقالا له: (إن أملك قد نذرت أن لا تمس رأسها حتى تراك وان لا تستظل من شمس حتى تراك) وحذره عمر بن الخطاب ؓ من الفتنة في الدين فأبى إلا الذهاب معها وفي الطريق قاما بتقييده وحبسه في مكة لفترة حتى أرسل إليه رسول الله ﷺ من ينقذه فأطلق سراحه ورجع به إلى المدينة^(٢).

٥- التعاون بين المشركين واليهود والمنافقين لأذى المسلمين :

فكانوا يرسلون إلى المدينة من ينشر الإشاعات ويبلغ سكان المدينة بعزم قريش على حريمهم وإبلاغ اليهود والمنافقين بضرورة الانقلاب على قيادة المسلمين في المدينة، فكان عبد الله بن أبي ابن سلول، رأس المنافقين في المدينة ينتهز كل فرصة للانقلاب على المسلمين، متواطئاً مع المشركين في مكة^(٣).

٦- محاربة سادة المدينة :

ومنها أن سعد بن معاذ ؓ وهو أنصاري جاء إلى مكة معتمراً فنزل على أمية بن خلف فلما نزل معه ليطوف ببيت الله الحرام، قابله أبو جهل، وقال له : (أما والله لولا أنك مع أبي صفوان - أمية بن خلف - ما رجعت إلى أهلك سالماً، فقال له سعد: أما

(١) ينظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣ / ٤٥).

(٢) ينظر: منير محمد الغضبان، التربية القيادية (٢ / ١٦٠).

(٣) البخاري، صحيح البخاري، ٢ / ٦٥٥ وما بعدها.

والله لئن منعني هذا لأمنعك ما هو اشد عليك منه : طريقك على أهل المدينة^(١) وكانت بواعث هذه الحرب إيواء أهل المدينة للإسلام والمسلمين.

٧- التهديد باغتيال الرسول ﷺ :

لم تتوقف مطامع قريش في القضاء على الإسلام. حتى إنهم كانوا يفكرون بأي طريقة لاغتيال الرسول ﷺ لإنهاء الدعوة وكان المسلمون يعلمون ذلك فكان الرسول ﷺ يحرس بيته ليلاً ويحرسه بعض الصحابة أحياناً كما كان في الليلة التي سمع فيها قعقعة سلاح، فقال : من هذا، فقال: سعد بن أبي وقاص : (وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه، فدعا له، ونام، وذلك قبل أن ينزل قوله تعالى: ﴿ يَأْتِيهِمُ الرُّسُولُ يَلْفُ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتُهُ وَاللَّهُ يَعِصُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧].

فخاطب رسول الله ﷺ الناس قائلاً : (يا أيها الناس، انصرفوا عني فقد عصمني الله عز وجل)^(٢).

فكانت هذه الأساليب وغيرها وقد استعملوها مع المسلمين قبل الهجرة وأخرى برزت في مراحل القتال الفعلي مع المسلمين لاحقاً تدل على أن الحرب النفسية المضادة للرسول ﷺ لم تكن توجه اعتباطاً وإنما كانت تعد بإحكام ودقة بين زعماء الكفار وحسب قواعد معينة هي أساس القواعد المعمول بها في تخطيط الحرب النفسية في العصر الحديث .

(١) ينظر: البخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي ٥٦٣/٢.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، وقال: حديث صحيح، ينظر: المستدرك (٢/ ٣٤٢).

ثانياً : اليهود :

احتل اليهود مرتبة متقدمة جداً في خوض الحرب النفسية ضد المسلمين وشخصية الرسول ﷺ لما امتازوا به من صفات وخصائص تهيأت لهم وفرت لهم جواً مناسباً لتبوؤ مكانة سامية في مجتمع الجزيرة العربية دينياً واقتصادياً واجتماعياً، فقد عرف عنهم أنهم أصحاب كتاب سماوي، ولهم الكثير من العلم بتاريخ الأديان والأمم والأنبياء، وكانوا يسكنون أخصب الأماكن، ويمتهنون مهناً زادت مواردهم الاقتصادية، مما أهّلهم اجتماعياً للاحتفاظ بأسرارهم ووحدتهم مجتمعهم، وحافظوا على حياتهم الخاصة بمعزل عن العرب في الجزيرة، وكان (اليهود يعلنون بين الحين والحين عن قرب ظهور النبي ﷺ ويهددون بالانتماء إليه ويتوعدون مخالفينهم من أجل المزيد من السيطرة والإذلال واحتكار المقدرات المادية والمعنوية لمئات الآلاف من العرب المحيطين بهم)^(١).

ولهذا فحين أعلن الرسول ﷺ دعوته في مكة وظهر أنه نبي عربي يحمل دعوته للعالمين جميعاً، وتبرز فيه صفات النبي الحق، أنكروا ذلك وبدؤوا ببث الإشاعات وخوض معركة الدعاية واستغلال كل طرق التشويه والغدر والكذب والتزوير لوقف مسيرة هذه الدعوة قبل أن تنتشر وتعلن نجاحها، خاصة أنهم كانوا ينشرون أخباراً عن مبعث نبي سيكون منهم، وقد سجل القرآن الكريم ذلك بقوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَقْنَاهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩].

ثم وصف حالتهم مع نبي الدعوة الجديدة وبقية الأنبياء : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا

(١) الدكتور سعد المرصيفي، الرسول ﷺ واليهود وجهاً لوجه، مكتبة ابن كثير، الكويت، مؤسسة الريان،

لبنان، ٢٠٠٢، ط ٢، الجزء الثاني، ص ٤٨٩.

لَا يَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ [البقرة: ٨٧].

لقد أمر الله تعالى اليهود بالإيمان برسالة النبي محمد ﷺ فأبوا ذلك علواً واستكباراً، قال تعالى: ﴿وَمَا آمَنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتِنُونِ﴾ ﴿٤١﴾ [البقرة: ٤١].

والتي يقول فيها المفسرون: (وينهى الله بني إسرائيل أن يكون كفرهم بما أنزله مصدقاً لما معهم، شراءاً للعالم بالآخر، وإيثاراً لما بين أيديهم من مصالح خاصة لهم - وبخاصة أحبارهم الذين يخشون أن يؤمنوا بالإسلام فيخسروا رياستهم وما تدره عليهم من منافع وإتاوات ويدعوهم إلى خشيته وحده وتقواه)^(١).

إلا أن ذلك كله لم يدفع اليهود لترك ما عرفوا به من معاداة الأنبياء ومخالفة منهج الله تعالى في التوحيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن لحظة دخول الإسلام في المدينة المنورة، بدؤوا حرباً نفسية قوية ضد الإسلام والرسول ﷺ عبر أساليب مختلفة منها:

أ- حرب الجدل والمراء:

والجدل من الصفات المشهورة لليهود، فقد مارسوه سابقاً مع النبي موسى عليه السلام وبقية من بعث إليهم من أنبياء حتى عرفوا بهذه الصفة الذميمة التي تدل على السعي خلف الباطل والتشكيك بالحق والبحث عن المتاعب التي لا تغني من الحق شيئاً.

فمن صور جدالهم للرسول ﷺ أنهم طلبوا منه إن كان نبياً حقاً أن يطلب من ربه أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، وهو طلب سابق لهم كما تخبر الآية الكريمة بذلك، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مجلد ١، ج ١، ص ٦٧.

فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٥٣﴾ [النساء: ١٥٣].

ثم تبادوا في جدالهم العقيم هذا حتى طلبوا من الرسول ﷺ لإثبات نبوته أن يكلمهم الله جهرة فيسمعوا كلامه، قال تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [البقرة: ١١٨].

كما أنهم جادلوا في سليمان ﷺ واتهموه بالسحر وأنكروا نبوته قاصدين بذلك مجادلة الرسول ﷺ فرد عليهم القرآن الكريم بأن أثبت كفر الشياطين بتعليمهم الناس السحر ونفى ذلك عن سليمان ﷺ^(١). وهدفهم من إنكار نبوات الأنبياء يريدون به إنكار نبوة محمد ﷺ.

وتطورت الصدامات الجدلية إلى مرحلة أولية من الصدام المادي حين لطم أبو بكر الصديق ؓ حبرهم (فخاص) في بيت المدارس حين قال : ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقر وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنّا عنه أغنياء.^(٢) وفضحهم الله تعالى وتوعدهم بقوله : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨١].

وهكذا كان ديدن اليهود مع الرسول ﷺ حيث طريقة التشكيك والاستفزاز والتحدي بتوجيه الأسئلة إليه، متصورين بذلك أنهم سيصلون به إلى مرحلة العجز التام عن الإجابة فينفض عنه من آمن به، لكن الله تعالى كان لهم بالمرصاد دائماً حيث كانت الآيات المباركات تنزل بالأجوبة عن أسئلتهم.

ومن جدالهم العقيم على حساب الحق ما روي في السيرة النبوية، في قصة إسلام

(١) سورة البقرة / آية ١٠٢.

(٢) ينظر: فتح الباري (٦ / ٤٤٣).

ابن سلام فقد أسلم وقال لرسول الله ﷺ: أسألكم عن منزلتي ومكانتي فيهم، ففعل رسول الله ذلك، فقالوا: هو سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا فخرج إليهم ابن سلام، ليقول لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به فو الله - إنكم لتعلمون - انه رسول الله. فغيروا رأيهم به واتهموه بالكذب، فقال ابن سلام لرسول الله ﷺ: ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت، أهل غدر وكذب وفجور^(١).

إن حرب الجدل خطيرة في موقعها من أساليب الحرب النفسية لأنها تثير الشك والظن والاتهام، وربما أخرجت المقصود في ذلك الجدل عن طريقه القويم وحكمته المعتادة فيحصل عند ذلك المراد من هذه الحرب النفسية.

ب- التشكيك بنبوة الرسول ﷺ:

وقد ذكر القرآن الكريم هذا الأسلوب بقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكَتَافِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَآكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٧٦﴾ [آل عمران: ٧٢].

والتي ذكر أهل التفسير في أن سبب نزولها: هو ما جرى بين اثني عشر حبراً من أحرار اليهود حين اتفقوا قائلين لبعضهم: ادخلوا في دين محمد أول النهار، باللسان دون الاعتقاد في القلب ثم اكفروا آخر النهار، وقولوا: إن ذلك بسبب أنا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا أن محمداً ليس هو الموصوف بالرسالة في هذا الزمان، وظهر لنا كذبه فتركناه، فإذا فعلتم هذا شك من آمن به في رسالته واتهموه قائلين: إن اليهود أهل كتاب وهم اعلم به منا، فيرجعون عن التصديق به، فأنزل الله تعالى بحقهم هذه الآية^(٢).

ولا شك أن طريقة اليهود تلك تمثل ارتداداً ظاهرياً وحرباً نفسيةً يقصد منها

(١) ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢ / ص ١٦٣.

(٢) ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن (٣ / ٤١٥).

تفتيت الصف المسلم وتمزيق وحدته ببث الإشاعات عن مصداقية الرسول ﷺ والاستمرار في حرب دعاية للترويج لترك المسلمين.

(فأما أن يكفر الضعفاء من المؤمنين بعد ذلك أو تخالجهم الشكوك فتجعلهم يتأرجحون بين الطرفين فيشكلوا طائفة المنافقين، ومكر اليهود هذا مبني على قاعدة ثابتة في العقل البشري وهي أن من علامة الحق أن لا يرجع عنه من عرفه ^(١)).

وشككوا في صدق نبوة الرسول ﷺ في حادث ضلت فيه ناقة الرسول ﷺ فقال زيد بن اللصيت، احد يهود قينقاع :انه يزعم معرفة خبر السماء وهو لا يدري أين ناقتة؟ فرد عليه الرسول ﷺ أنه لا يعلم إلا ما علمه الله، وقد دله عليها فهي محبوسة بشجرة في هذا الشعب، فذهب رجال من المسلمين فوجدوها ^(٢). فالمقصود من هذا القول تشكيك الناس بالرسالة وحاملها عن طريق بث هذه الإشاعة عنه، فتمزق أواصر الانتماء للإسلام وتفشل دعوته.

ج- اليهود ومحاولة تمزيق صف المسلمين:

وهو أسلوب من أساليب الحرب النفسية الفاعلة، حيث يترك أثره السيئ على نفسية المستهدف منها، فتتهتز عقيدته وتنقطع لديه مشاعر الانتماء إلى مجتمعه فيسهل اختراقه وتحقيق النصر عليه في الحرب. وقد عمل اليهود على ذلك لتحقيق هذه الغاية وذلك بما فعله أحد شيوخهم الدهاة وهو (شاس بن قيس) حيث تختزن ذاكرته صور الخلافات بين الأوس والخزرج، والتي انتهت بانتمائهم للإسلام، فأراد هذا إعادتها لتمزيق وحدة الصف المسلم، فقال لشاب من يهود: (اعمد إليهم فاجلس معهم ثم اذكر يوم بعث وما كان قبله وأنشدكم بعض ما كانوا تقولوا فيه من الأشعار).

(١) د.أحمد نوفل، الحرب النفسية من منظور إسلامي، مصدر سابق، ص ٦٠.

(٢) ينظر: فتح الباري (١٣ / ٣٦٤).

ففعل ذلك الشاب، حتى تنازع القوم وتفاخروا ثم ضربوا موعداً بينهم للقتال، فبلغ ذلك سمع رسول الله ﷺ فخرج إليهم في جماعة، فقال : (يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستتقذكم به من الكفر وألف بين قلوبكم). فأدرك القوم أنها نزغة شيطان كادت أن تشعل الحرب بينهم وكيد من عدوهم فندموا وعانق بعضهم بعضاً^(١).

ولم يترك القرآن الكريم هذا الحادث من دون تسجيل فنزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفَرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

ويتضح من القصة أن شخصية الرسول ﷺ وحكمته البالغة كانت العامل المباشر في صد هذه الحرب النفسية التي قصد منها اليهود تمزيق وحدة الجبهة الداخلية للمجتمع وافتعال النزاعات التي تقضي على أمن المسلمين واستقرارهم.

د- سوء أدبهم مع رسول الله ﷺ :

ومقصد اليهود من ذلك هو تقليل شأن الرسول ﷺ وجعله (حاشاه) موطناً للسخرية والاستهزاء فلا يؤمن به أحد وتقل درجة تصديق المسلمين به.

فعن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : (جاء ناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا : السام (الموت) عليك يا أبا القاسم، فقلت : السام عليكم، وفعل الله بكم، فقال رسول الله ﷺ (مَهْ يا عائشة فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش) فقلت : يا رسول الله ألم تسمع ما قالوا ؟ فقال : (أوليس قد رددت عليهم الذي قالوا؟ قلت :

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (١-٥٥٥/٥٥٧).

وعليكم). قالت : فنزلت هذه في ذلك ^(١)، وهي قوله تعالى : ﴿لَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَهَوْا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَؤُودُونَ لِمَا نَهَوْا عَنْهُ وَيَنْنَجِبُونَ بِالْأَيْمَنِ وَالْعُدُوِّنَ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْسُ الْمَصِيرُ ۝٨﴾ [المجادلة: ٨].

هـ- محاولة إيذاء المسلمين اقتصادياً:

ويوضح طريقة اليهود تلك قوله تعالى : ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ يَأْذَنُهُمُ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتَيْنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥﴾ [آل عمران: ٧٥].

حيث قام بعض اليهود بمحاولة إيذاء المسلمين اقتصادياً ذلك بامتناعهم عن دفع ما يجب عليهم دفعه من ديون وبيع وأمانات لمن اعتنق الإسلام وهم يدعون أنهم كانوا يستحقون ذلك أما وقد أسلموا فهم لا يستحقونه، وقد حدث هذا مع جماعة من أهل المدينة باعوا بضاعة لبعض اليهود فلما أسلموا امتنع اليهود عن أداء ثمن البيع قائلين: إن ذلك التصرف مكتوب عندهم، وما ذلك إلا لكونهم كانوا أقوياء اقتصادياً^(٢).

كما أنهم امتنعوا عن إقراض المسلمين مالا في بداية الدعوة عندما احتاج الرسول ﷺ لذلك في بعض أمور المسلمين^(٣).

فهم يعلمون تماماً أثر الاقتصاد في توجيه حرب نفسية ضد المسلمين.

(١) ينظر : صحيح مسلم (١٧٠٧/٤) برقم (٢١٦٥).

(٢) ينظر: الدكتور علي الصلابي، فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، بيروت، ٢٠٠٦، ص ٢٨٧ وما بعدها.

(٣) القرطبي، تفسير القرطبي (٢٩٥ / ٤).

و- بث الإشاعات المحطمة للمعنويات:

عمل اليهود في هذا الجانب لتحطيم قوة المسلمين المعنوية خاصة المهاجرين وهم يقبلون على بيئة جديدة عليهم، فأشاعوا أن قريشاً أتلقت وصادرت ممتلكاتهم في مكة وأنهم لم يعودوا يملكون شيئاً، وإن اليهود سحرتهم فلا يولد لهم ولد ذكر في المدينة، بمعنى أنهم لن يتكاثروا، وفي هذه الإشاعة آثار سلبية على معنويات المسلمين وهم يدخلون بيئة جديدة ومستقبلاً غامضاً. إلا أن الله تعالى اكذب إشاعتهم بولادة أسماء بنت أبي بكر لابنها عبد الله بن الزبير في قباء، فسقطت عند ذاك إشاعة اليهود تلك^(١).

ز- الدعاية اليهودية في حادث تحويل القبلة:

(تكاد تكون حادثة تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة هي الفاصل بين الحرب الكلامية وحرب المناوشات والتدخل الفعلي من جانب اليهود لزعزعة الدولة الإسلامية الناشئة)^(٢).

وذلك بما مثله هذا الحادث من كشف سافر عن العداء اليهودي للإسلام والمسلمين والرسول ﷺ، وقد اتضحت فيه الدعاية اليهودية على أشدها لما أحسوا به من علامات فارقة على رسوخ عقيدة الولاء بين المسلمين والبراءة من سواهم. وقد نبه الله تعالى لفحوى هذه الدعاية اليهودية التي كان يراد منها إبقاء أي خط من خطوط التبعية - كما يتصورون هم - لمنهجهم في الحياة، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عِبَادَهُ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَعَزِيزٌ ذُو ذُرِّيَّتٍ ذُو فَهْمٍ﴾ [البقرة: ١٤٣].

(١) ينظر: البخاري، صحيح البخاري، كتاب العقيدة، باب تسمية المولود، برقم / ٥٤٦٩.

(٢) د. علي الصلابي، السيرة النبوية، مصدر سابق، ص ٣٤٣.

وقال البيضاوي في معرض تفسيره لآيات تحويل القبلة: (وما جعلنا قبلك بيت المقدس إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه إلا لنتحن به الناس، ونعلم من يتبعك في الصلاة إليها ممن يرتد عن دينك إلهاً لقبلة آبائه، أو لنعلم من يتبع الرسول ممن لا يتبعه وما كان لعارض يزول بزواله، وعلى الأول معناه: ما رددناك إلى التي كنت عليها إلا لنعلم الثابت على الإسلام ممن ينكص على عقبيه لقلقه وضعف إيمانه^(١)).

لقد نظر اليهود إلى حادثة تحويل القبلة من القدس إلى بيت الله الحرام تحولاً خطيراً ضدهم بعد أن كانوا يشعرون أن صلاة المسلمين إلى ما يتجهون هم إليه فيه نوع من الموالاة أو الموافقة على بعض عقائدهم، لكن الله تعالى حسم الأمر في بيان هدف اليهود من هذا الحقد السافر والحرب المستمرة ضد المسلمين.

﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

والتي قال سيد قطب في تفسيرها: (فتلك هي العلة الأصلية ليس الذي ينقصهم هو البرهان وليس الذي ينقصهم هو الاقتناع بأنك على الحق وإن الذي جاءك من ربك الحق، ولو قدمت إليهم ما قدمت، ولو توددت إليهم ما توددت لن يرضيهم من هذا كله شيء إلا أن تتبع ملتهم وتترك ما معك من الحق^(٢)).

لقد قاوم الرسول ﷺ حرب اليهود النفسية بالصدق في الحوار والإخلاص في بيان الأدلة العقلية وغيرها كاشفاً حقيقة مجادلتهم بالسوء وأنهم ليسوا طلاب حق بل لمجرد إثارة الشكوك، كما كان القرآن الكريم لهم بالمرصاد، حيث كانت الآيات

(١) البيضاوي، تفسير البيضاوي (١/١٠١).

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، مجلد ١، ج ١، ص ١٠٨.

القرآنية تنزل مجيبة عن أسئلتهم التي يريدون بها إحراج الرسول ﷺ كما أرسل بعض الصحابة وأبطالهم لاغتيال بعض قادة اليهود ممن أصروا على مواصلة الدعاية ضد المسلمين ونشر الشائعات عنهم، حتى إن كعب بن الأشرف اليهودي بقي على ذلك فاضحاً أسرار المسلمين ومستهزئاً بهم ومشيباً بنسائهم حتى اغتاله بعض الصحابة لإيقاف اثر هذه الحرب ضد المسلمين^(١).

ثم تطورت حرب اليهود النفسية على المسلمين حتى برزت بصور أخرى مترافقة مع مرحلة القتال الحقيقي وقد بدؤوه هم بنقضهم للعهود والمواثيق فأجلاهم المسلمون من الجزيرة العربية.

ثالثاً: المنافقون:

وتتضح خطورة الحرب النفسية التي شنها المنافقون في مجتمع المسلمين في أنهم مسلمون في الظاهر، يعيشون بينهم ويعرفون أسرارهم ويتعاملون معهم، إلا أنهم في الحقيقة ليسوا بمسلمين، فإذا ارتدوا أو خالفوا الرسول ﷺ أو بثوا إشاعة ما فإنها تفعل فعلها على اعتبار النظر إليها ظاهرياً إنها مقبولة في سلوك المسلم ما دام من فعل ذلك مسلماً.

والمنافق يستر كفره ويظهر إيمانه، حيث يرى علماء اللغة أن هذا المفهوم لم تكن العرب تعرفه قبل ظهور الإسلام، وذكر ابن منظور أن النفاق اسم مشتق من كلمة النفق أو هو المخرج المستتر الذي يصنعه اليربوع للنفق تحت الأرض كي يهرب عن طريقه وقت الحاجة^(٢).

ورغم ضمور حرب المنافقين للإسلام بعد فترة من ظهورها حيث (اتسمت تحركات المنافقين بالتردد وعدم القدرة على التصرف بشجاعة ووضوح في اللحظات

(١) ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١٢/٣).

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج ١٠، ص ٣٥٩.

الحاسمة)^(١) إلا أنها كانت حرباً واسعة النطاق فقد خاض المنافقون حرباً نفسية مؤثرة في صفوف المسلمين متخذة لها من الصور والأساليب ما هو مشترك مع غير هذه الفئة وما هو جديد أفرزته طبيعة الدعاية والإشاعة وبقية أساليب الحرب النفسية الخاصة بهم . وهي :

١ - حادثة الإفك : ورغم أن هذه الإشاعة لم تكن الأولى زمنياً في تسلسل نشاط المنافقين في الحرب النفسية الموجهة ضد المسلمين إلا أنها تركت أثراً كبيراً في المجتمع المسلم وكادت أن تتسبب بفتنة كبيرة بين المسلمين، بل في بيت الرسول ﷺ لكون من استهدفت من هذه الإشاعة هي أم المؤمنين عائشة ؓ ليس في عقيدتها أو دينها وإنما في أخلاقها وعفتها وهو أمر جلل له خطورته الشديدة في مجتمع المسلمين، حتى نزل فيه قرآن وضع فيه الله تعالى أحكاماً وتشريعات فقهية واجتماعية وقانونية ما زالت سارية حتى اليوم.

وملخص القصة كما رويت في كتب الصحاح : أن رسول الله ﷺ اصطحب معه سيدتنا عائشة (رضي الله عنها) في غزوة بني المصطلق، فلما فرغوا من الغزوة وقفوا راجعين، حتى أذن ليلة بالرحيل، فخرجت أم المؤمنين لشأن لها تقضيه ثم أبطأت بالعودة حتى اقبل الجماعة الذين كانوا يحملون هودجها فوضعوه على البعير متصورين إنها في داخله، فلما رجعت وجدت أن الجيش سار إلى وجهته (المدينة المنورة) فجلست في مكانها ذاك عسى أن تفتقد فيرجعون إليها.

وكان صفوان بن المعطل متأخراً هو الآخر فرآها في موضعها، فاسترجع، أي: قال: (إنا لله وإنا إليه راجعون) فانتبهت إلى كلمته تلك ولم يقل غير هذه الجملة مطلقاً. وأناخ راحلته فركبت وانطلق يقودها الراحلة حتى وصلا موضع تجمع

(١) د. هاشم يحيى حسين الملاح، المنافقون في مدينة الرسول، مجلة كلية الدراسات الإسلامية، بغداد،

الجيش، فتكلم في سيرتها من تكلم واتهموها وإياه بأنها ما تأخرا عن بقية الناس إلا لغاية غير محمودة.

وكان في الجيش عبد الله بن أبي ابن سلول (رأس المنافقين) فقال (والله ما نجت منه ولا نجا منها) متهماً عائشة (رضي الله عنها) بالفاحشة، وقالت هي :

(فاشتكيت حين قدمنا شهراً والناس يفيضون في حديث أهل الإفك...) إلى نهاية القصة^(١).

وقد خاض قوم من المسلمين في سيرة أم المؤمنين (رضي الله عنها) مصدقين ومروجين للحدث وأوذي الرسول ﷺ أذى شديداً من الحادثة وأوكل أمره وأمرها إلى الله تعالى الذي أنزل في ذلك قرآناً، جاء فيه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١].

وامتدت الآيات تشرح هذه الحادثة إلى الآية (٢٦) من السورة نفسها واضعة دروساً وأحكاماً خاصة، منها : تهدئة أعصاب المؤمنين بعد أن تبين بوضوح معسكر المنافقين، وأن زوجات الرسول ﷺ لم يقلن في عائشة (رضي الله عنها) إلا خيراً وهن ضرائر، وزادت مجتمع المسلمين كرهاً للفاحشة وحديث الفحش^(٢). كما كان لهذه الحادثة أحكام ودروس عامة أهمها : التثبت من مصدر الإشاعة، وتقدير حسن الظن بالمسلم الذي تتعلق به الإشاعة، وكذلك طلب الدليل والبرهان على ما يشاع، ومنها

(١) البخاري - صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات

بأنفسهم خيراً (٩٥/٦) وينظر : القرطبي، تفسير القرطبي (١٢/١٩٨).

(٢) ينظر أبو الأعلى المودودي، تفسير سورة النور، دار الفكر، بيروت، بلا سنة طبع، ص ١٩.

تحري الصدق وعدم الخوض مع الناس في أحاديثهم^(١).

فكانت حادثة الإفك من أقوى صور الحرب النفسية التي شنها المنافقون ضد الرسول ﷺ ومجتمع المسلمين من بعده مستهدفين تشويه سمعة ومكانة البيت النبوي في أعز شيء لديه فينهار التفاف المسلمين حوله وتتفتت وحدة المجتمع المسلم.

٢- تعاون المنافقين مع اليهود وغيرهم :

وقد اتضح هذا الفعل في معركة أحد بشكل واضح حيث برزوا كجماعة لها أهدافها النفسية ضد المسلمين، ففي هذه المعركة رفض رسول الله ﷺ اشتراكهم في القتال مع المسلمين لوجود يهود بينهم لخطورة ذلك على معنويات الصف المسلم في حالة انسحابهم وهذا متوقع أو انحيازهم إلى جيش الكفار أو ترويعهم للجماعة المسلمين^(٢).

وفي معركة بني النضير حين أنذرهم رسول الله ﷺ بالجلاء عن المدينة لغدرهم بالمسلمين وخيانتهم للعهود والمواثيق أرسل إليهم المنافقون من يبلغهم بتضامنهم معهم ضد المسلمين واعددين إياهم بوجود قوة مسلحة تعاونهم في قتال المسلمين، فزادوا بذلك الأمور تعقيداً على المسلمين، وفي ذلك قال تعالى: ﴿لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

وهكذا جرى الأمر في مواضع أخرى حيث يمثل هذا التصرف حرباً نفسية كبيرة تعزز معنويات العدو وتحذل معنويات واندفاع المسلمين.

(١) ينظر: الدكتور الحسن بن خلوي بن حسن الموكل، الإشاعة والتعامل معها في ضوء القرآن الكريم،

مجلة الحكمة، عدد ٣١، ص ٣٧٥.

(٢) البداية والنهاية (٤ / ١٤).

٣-تخذيهم للمسلمين في جانب المعنويات:

وذلك أنهم دأبوا على الإساءة لصف المسلمين وتقليل شأنهم أمام قوة العدو، وأن جماعة المسلمين لا تقوى على الصمود أمام كثرة الأعداء ووهن العزيمة. ففي أعقاب بدر أشاعوا هم واليهود أنباء كاذبة عن هزيمة المسلمين، وصاروا يصفون الخسارة وكأنهم مباشروها^(١). وفي معركة أحد انسحبوا بعدد كبير من الجيش لشق عصا طاعة الجيش لرسول الله ﷺ وتقوية لمعنويات المشركين.

أما في غزوة الخندق فكانت لهم إشاعات متكررة خطيرة على صف المسلمين كقول بعضهم: يعدنا محمد فتح قصور الشام وفارس وأحدنا لا يستطيع أن يجاوز رحله^(٢). وكقول آخرين: يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا لكثرة العدو وغلبة الأحزاب، وقولهم على رسول الله ﷺ: دعوا الرجل فإنه هالك وتعالوا إلينا. وغيرها من الإشاعات التي قصدوا بها إفشال خطة المسلمين بحماية المدينة من هجوم المشركين^(٣).

وقد سجل القرآن الكريم أقوالهم المنافقة تلك في قوله تعالى: ﴿وَلِذَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (١٢) وَلِذَ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَبْأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَفْتِدُنَ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ (١٣) [الأحزاب: ١٢-١٣].

٤-تخذيهم للمنافقين لسرايا المسلمين:

وتمثل هذه الأفعال حرباً نفسية خبيثة تقلق أذهان المسلمين ممن ينتظرون أبناءهم وهم يخرجون في سرايا وغزوات لقتال أعداء الإسلام، ونشر مثل هذه الأكاذيب

(١) ينظر: السيوطي، الدر المنثور (٢/ ٣٨٥).

(٢) ينظر: الهيثمي، مجمع الزوائد (١/ ١١١).

(٣) ينظر: د. منير الغضبان، التربية الجهادية، عمان، ٢٠٠٦، ص ٣١٢ وما بعدها.

يمثل دعاية مهمة من دعائم حرب المنافقين الدعائية ضد المسلمين وكانت تحدث آثاراً مؤلمة في نفوس المسلمين، فحذر منها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُتَنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٦٠﴾ [الأحزاب: ٦٠].

فهؤلاء هم المنافقون والمرجفون، وهم قوم كانوا يوقعون الأخبار بما يكره المؤمنون يقولون قد أتاكم العدو ويقولون لسراياهم قد قتلوا أو هزموا^(١).

كما أن حرب المنافقين النفسية تجلت واضحة في أسلوب اتهام المسلمين بحب الطعام والكذب والجبن في المعارك حتى إذا قال رجل منهم ذلك في غزوة تبوك فغضب عوف بن مالك واتجه ليحذر رسول الله ﷺ بذلك فقال المنافق: إنما كنت أخوض وألعب، فوجد القرآن الكريم قد سبقه في ذلك في تشخيص فعل من أفعال المنافقين: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا فَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ تُعَذِّبْ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ ﴿٦٦﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

٥- استهزاء المنافقين برسول الله ﷺ:

وذلك أن جماعة منهم كانوا يؤذون النبي ﷺ في سمعه فيتكلمون أمامه بما لا ينبغي الكلام به ويظهرون عدم مبالاتهم بمكانته، وحذرهم آخرون أنهم لا يقولون مثل ذلك أمامه لخوفهم منه، فقالوا: بل نقول ما شئنا ثم نأتيه وقد صدقنا في أقوالنا، فإنما محمد أذن سامعة. وقصدهم بذلك الإساءة إلى شخصية الرسول ﷺ ومحاولة للإقلال من حكمته وفطنته (حاشاه) فأنزل الله تعالى فيهم قوله الكريم:

﴿وَمَنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ

(١) تفسير المراغي، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٤، هجرية (٤ / ١٥٣).

لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ [التوبة: ٦١].

وهكذا كان القرآن الكريم والرسول ﷺ في مراقبة المنافقين وفضح أساليبهم وكشفها للناس ليقفوا على دعاياتهم المغرضة ضد المسلمين ويقاوموا إشاعاتهم التي تبرز بين فترة وأخرى ففشلت حرب النفاق النفسية في تحقيق أغراضها بشق وحدة المسلمين وتمزيق صفوفهم، الأمر الذي زاد معنويات المسلمين صموداً وتماسكاً وقوة معنويات.

٦- اتخاذهم مسجد ضرار لإغواء الناس :

وقد شخّص الله تعالى فعلهم هذا بقوله الكريم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿١٠٧﴾ [التوبة: ١٠٧].

والتي يقول فيها الطبري: (والذين ابتنوا مسجداً ضراراً لمسجد رسول الله ﷺ وكفراً بالله لمحادثتهم بذلك رسول الله ﷺ ويفرقون به المؤمنين ليصلي فيه بعضهم دون مسجد رسول الله ﷺ فيختلفوا بسبب ذلك ويتفرقوا...).^(١)

فههدف المنافقين من ذلك استهدافهم وحدة المسلمين لتمزيقها بحيث تصبح صفوفهم متفرقة.

(١) الطبري، التفسير (١١ / ٢٣).

الفصل الرابع
الأحكام الفقهية للحرب النفسية

المبحث الأول: الأحكام الفقهية للدعاية والإشاعة

المطلب الأول: الأحكام الفقهية المتعلقة بالدعاية

وقفنا ضمن سياق كلامنا عن أساليب الحرب النفسية في الفصل الأول من هذه الدراسة على تعريفات مختلفة للدعاية، وقد استقرت على مفهوم كونها: (نشاط يهدف إلى محاولة التأثير في الأفراد والجمهير والسيطرة على سلوكهم وذلك في مجتمع معين و زمان معين ولهدف معين وقد عرفت منذ فجر التاريخ) .^(١)

ولمسنا في الفصل الثالث صوراً وأساليب مختلفة للدعاية في قصص الأنبياء وفي الصراع بين الإيمان والكفر، وقد وضع الفقه الإسلامي محددات وضوابط معينة انتظمت في سياق أحكام فقهية للتعامل مع الدعاية، نحاول في هذا المطلب بيان هذه الأحكام والتعرف على دلالاتها .

أولاً: أوجبت الشريعة الإسلامية مقاومة الدعاية المعادية التي يطلقها العدو للسيطرة على عقول الأفراد والمجتمع المسلم، وذلك بفضح الكفر والشرك والنوايا الخبيثة، وقد تولى القرآن الكريم صد دعاية المشركين في مكة ثم دعاية المنافقين واليهود في المدينة . ومن خلال :

أ - قال تعالى فاضحاً نوايا الكفار وأهدافهم في إطار دعاية مضادة منظمة : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَافِ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦] .

ب - و تولى القرآن رد الدعاية اليهودية في المدينة في مواضع عدة منها قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٥]

[١٣٥]

(١) الدكتور محمد منير حجاب، الدعاية السياسية وتطبيقها قديماً وحديثاً، دار الفجر، مصر، ١٩٩٨،

ج - فضح أخلاق المنافقين وطبائعهم الخبيثة في أكثر من موضع شائناً عليهم حملة دعائية كبيرة، قال تعالى : ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧] .

د - شملهم جميعاً بوصف جامع يحمل طابع حملتهم الدعائية على منهج الله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢] .

والتي قيل في تفسيرها : (أي دلالته وحججه على توحيده، جعل البراهين بمنزلة النور لما فيها من البيان، وقيل المعنى : نور الإسلام، أي أن يحمّدوا دين الله بتكذيبهم، والتقدير : يأبى الله كل شيء إلا أن يتم نوره) .^(١)

فدعاية الكفار هدفها طمس حقائق الإيمان و التوحيد و تشويه الدعوة إلى الله، ومن هنا وجب على أهل الإيمان أن يكونوا بالمرصاد لها و يفضحوا أساليبها و أهدافها بها استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

ثانياً : حكم المحرّض على حرب المسلمين بالدعاية و حث الكفار :

التحريض من أفعال الحرب النفسية يتضمن الحث على بذل الجهد في الحرب، سواء كان هذا التحريض كلاماً أو شعراً أو بأفعال أخرى، وقد أجازت الشريعة الإسلامية وقف عمل المحرّض بالقتل أو بغيره لخطورة عمله، وقد ورد التحريض في قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرِّضُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبَرُوا عَلَى مَا تَأْتِيهِمْ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٥] . والتي قال المفسرون في معناها : (هو في اللغة أن يحث الإنسان على

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤ / ٤٦٢).

شيء حتى يعلم منه إنه حارص، أي مقارب للهلاك وعلى هذا فهو للمبالغة في الحث،
والتحريض الحث على الشيء بكثرة التزيين وتسهيل الخطب فيه). (١)

وفي السنة : أن رسول الله ﷺ قد أمر بقتل ستة أنفار عام الفتح و لو تعلقوا بأستار
الكعبة لعظم تحريضهم الناس على حرب المسلمين، وهم : (عبد الله بن سعد بن أبي
سرح كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ فيقول له : اكتب غفور رحيم فيكتب عليم
حكيم ثم ارتد فلحق بقریش وقال : إني أحرف محمداً حيث شئت ؛ وعبد الله بن
خطل، كانت له قيتان تغنيان بسب رسول الله ﷺ ؛ و الحويرث بن نفيل كان يؤذي
رسول الله ﷺ ؛ ومقيس بن صبابه كان بعض الأنصار قتل أخاً له فأخذ ديتة ثم اغتال
القاتل فقتله وعاد إلى مكة مرتداً ؛ وسارة مولاة بني عبد المطلب كانت تسب وتؤذي ؛
وعكرمة بن أبي جهل كان يكثر التأليب على النبي ﷺ طلباً لثأر أبيه) (٢) ويتضح من
أفعالهم أنهم كانوا يخوضون حرباً دعائية قوية ضد المسلمين فأوصى الرسول -
صلى الله عليه وسلم - بقتلهم .

وإذ أقرت الشريعة عدم قتل النساء والشيخ وغير المقاتلين فإنها تعاملت مع
المحرض بجواز قتله إذا مارس فعلاً تحريضياً ضد المسلمين : (و أما قتل من أضعفه
الهرم أو أعجزته الزمانة أو كان ممن تحلى من الرهبان و أصحاب الصوامع، فإن كانوا
يمدون المقاتلة برأيهم و يحرضونهم على القتال جاز قتلهم عند الظفر بهم). (٣) واتفق
على ذلك فقهاؤنا الأقدمون والمعاصرون: و يكون قتل العدو جائزاً في الحرب إذا
شارك برأي أو تدبير أو قتال، ولا يجوز شرعاً قتل غير المقاتلة من نساء و أطفال
ورهبان وفلاحين وعلماء وغيرهم إلا إذا قاتلوا بالفعل أو ساعدوا على الإمداد

(١) الآلوسي، روح البيان، (١٠ / ٣١).

(٢) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٦٨ .

(٣) المصدر نفسه، ص ١٧٠ .

العسكري أو المادي أو بالرأي والمشورة والتخطيط^(١). (وهذا رأي أغلب الفقهاء)^(٢).

وعلل الماوردي قتل بعض كبار السن من المحرضين على حرب المسلمين وإن لم يقاتلوا (لأنهم ربما أشاروا برأي هو أنكى للمسلمين من القتال وقد قتل دريد بن الصمة في حرب هوازن وهو يوم حنين وقد جاوز مائة سنة من عمره ورسول الله ﷺ يراه فلم ينكر قتله).^(٣)

ثالثاً: حكم التعامل مع كتب الكفار وهي تقسم إلى نوعين :

أ- كتب الشرك والبدع والضلالات وحكمها الإتلاف لأنها دعاية للعدو وعلل الفقهاء ذلك بخشية الافتتان بها كما أوجبوا إتلاف كتب الإلحاد والفحش والفسق التي تدعوا إلى الرذيلة.^(٤)

وينظر الإمام إن كان لما هي مكتوبة فيه قيمة ومنفعة للمسلمين محا الكتابة و جعل ما كان مكتوباً فيه من الغنيمة وإلا أتلّف الجميع، لأن ترك هذه الكتب الضارة فتنة ولا يؤمن ضلال من في قلبه هوى أو شهوة، لوقوع الضرر على المسلمين بوجود هذه الكتب.^(٥)

ب- أما الكتب النافعة التي تقع في أيدي المسلمين من الكفار، فلا يجوز إتلاف ما وجد من كتبهم التي تتحقق فيها الاستفادة مثل كتب الطب والهندسة والحساب

(١) ينظر: ابن قدامة، المغني (٩/ ٣١٢).

(٢) الدكتور وهبة الزحيلي، أحكام الحرب والسلام في الشريعة الإسلامية، مجلة الشريعة والقانون، جامعة الإمارات العربية المتحدة، عدد ٣، ١٩٨٩، ص ٣٤.

(٣) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٥٠.

(٤) ينظر: الإمام البهوتي، كشف القناع (٢/ ٣٧٧).

(٥) ويدخل في هذا الحكم التوراة والإنجيل لأنها حرفا، ينظر: ابن قدامة، المغني (١٣/ ١٣٠).

والشعر و الأدب ونحو ذلك، فهي تعد غنيمة - ولأن فيها مصلحة ونفعاً للمسلمين وليس في بقائها ضرر أو مكروه، فحكمها حكم إتلاف المال وقد نهى الشارع الحكيم عن إتلاف المال، بل دعى الفقهاء إلى ترجمتها للاستفادة من علومها .^(١)

يقول الشافعي في ذلك ما نصه : (وما وجد من كتبهم فهو مغنم كله، وينبغي للإمام أن يدعو من يترجمه فإن كان عالماً من طب أو غيره لا مكروه فيه باعه كما يبيع ما سواه من المغانم، وإن كان كتاب شرك شقوا الكتاب و انتفعوا بأوعيته وأداته فباعها ولا وجه لتحريقه ولا دفنه قبل أن يعلم ما هو) .^(٢)

رابعاً : وجوب شن الدعاية التي تظهر قوة المسلمين و منعتهم بوجه أطباع العدو، بوسائل مختلفة كالفخر والتباهي والاستعراض والمبالغة وغيرها مما يدخل في باب تحشيد القوة وإظهارها أمام الخصم . ومن أدلة ذلك :

أ - قال تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠] .

والتي قال الرازي في تفسيرها : (ترهبون به عدو الله و عدوكم، و ذلك أن الكفار إذا علموا كون المسلمين متأهبين للجهاد ومستعدين له، مستكملين لجميع الأسلحة والآلات خافوهم) .^(٣)

ب- وفي السنة، عن ابن عباس ؓ أنه لما رجع رسول الله ﷺ أعطى فاطمة ابنته سيفه، فقال يا بُيْتَةَ، اغسلي عن هذا الدم، فأعطاهَا علي سيفه و قال: و هذا اغسلي

(١) ينظر : ابن قدامة، المغني (١٣/ ١٣٠) .

(٢) الشافعي، الأم (٤/ ٢٦٣) .

(٣) ينظر : الرازي، التفسير الكبير (٤/ ٤٧٧) .

عنه دمه، فوالله لقد صدقني اليوم القتال، فقال رسول الله ﷺ : لئن كنت صدقت القتال اليوم، لقد صدق معك القتال اليوم : سهل بن حنيف، و سماك بن خرشة - أبو دجانة .^(١)

و هذا بعد عودة المسلمين من معركة أحد .

وذكر غيره : إن رسول الله ﷺ ظاهر يوم أحد بين درعين وأخذ سيفاً فهزه وقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه أبو دجانة - سماك بن خرشة - فقال وما حقه يا رسول الله ؟ قال : أن تضرب في العدو حتى ينحني، فأخذه، وأعلم - رأسه - بعصاة حمراء كان إذا علم بها، علم الناس أنه سيقاتل و يجتهد في ذلك، ثم جعل يتبخر بين الصفين فقال النبي ﷺ : (إنها المشية يبغضها الله إلا في هذا الوطن) .^(٢)

واستخدم رسول الله ﷺ أسلوب استعراض القوة كنوع من الدعاية التي تصب في زعزعة معنويات الخصم، في فتح مكة، حين أمر عمه العباس بن عبد المطلب، بإيقاف أبي سفيان في مكان يرى فيه جيش المسلمين في كامل تنظيمه وقوته، قائلاً : (أحبس به بمضيق الوادي، حتى تمر به جنود الله فيراها) .^(٣)

ج- ذكر الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم جواز أن يقول الإنسان في الحرب: أنا فلان، وأنا ابن فلان، ومثله قول (سلمة) : أنا ابن الأكوع، وقال علي عليه السلام: أنا الذي سمتني أمي حيدرة، وأشبه ذلك .^(٤)

وجاء في فتح الباري، في التعليق على حديث: (أنا النبي لا كذب، أنا ابن

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢٤ / ٣)

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية (١٧ / ٤) .

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية (٥٢ / ٤) .

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (٧ / ٤٠٥-٤٠٦) .

عبدالمطلب^(١) قال : (وفيه الانتساب إلى الآباء ولو ماتوا في الجاهلية، والنهي عن ذلك محمول على ما هو خارج الحرب).^(٢) ويجوز تحدي الكفار ومبارزتهم لما في ذلك من إظهار لقوة المسلمين ونصرة الله ولرسوله ﷺ .^(٣)

و كل هذه الأصناف من التحدي و الفخر و التباهي و الإشادة بقوة المسلمين من الأمور المشروعة التي أوجب الفقهاء استخدامها للنكاية بالعدو و تغليب دعاية المسلمين لأنفسهم : (ومثل هذه الإشادة و هذا التنويه هو أمر جائز في الحرب لما فيه من إرهاب العدو، و هو نوع من الحرب النفسية و لاسيما إذا كان المقاتل الذي يُردد اسمه على مسامع العدو في حلبة المعارك قد اقترن في أذهانهم بسجل حافل بالبطولات والأجساد).^(٤)

و يفهم من هذا الكلام وجوب اتخاذ مواقع الأنترنت ووسائل الإعلام و المحطات الفضائية التي تعرض على العالم قوة المسلمين ومحاسن الإسلام والفخر بعقائد المسلمين وأحكام دينهم فتكون بذلك قادرة على شن أي حرب نفسية ضد الخصم وبإمكانها التصدي لأي حرب نفسية يشنها العدو .

خامساً- استخدام الخداع والتضليل والكذب في العمل الدعائي : أباحت الشريعة استخدام فنون الخداع والتضليل و الكذب للتأثير على معنويات العدو و تحقيق النصر عليه بأقل ما يمكن من الخسائر، و الأصل في سلوك المسلمين يقوم على عكس ذلك إلا أن وقت الحرب يعد ظرفاً استثنائياً يباح فيه ما لا يباح في غيره (فلا غرابة إذن، أن تصبح الأساليب المحرمة في التعامل مع العدو خارج الحرب من الكذب والتضليل

(١) صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب الفخر، برقم (١٧٧٦).

(٢) فتح الباري (١١٣/٦) .

(٣) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٤٩.

(٤) د. محمد خير هيكل، الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، ص ١١٤١.

والخداع، لا غرابة أن تصبح هذه الأساليب المحرمة مباحة إذا اشتعلت الحرب بين المسلمين وبين ذلك العدو^(١).

ففي أساليب التورية جاء في صحيح البخاري عن كعب بن مالك، قوله : (كان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة إلا ورى بغيرها ...)^(٢).

وجاء في فتح الباري : (ورى : ستر وتستعمل في إظهار شيء مع إرادة غيره ... وقيل : هو في الحرب أخذ العدو على غرة)^(٣)، وقيل في معناه أيضاً : إظهار أنه يريد أمراً فلا يظهره كأن يريد أن يغزو وجهة الشرق فيسأل عن جهة في الغرب فيظن السامع أنه يريد هذه الجهة^(٤).

وفي استخدام طرق الخداع مع العدو جاء في صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة ؓ قال : (قال النبي ﷺ : الحرب خدعة)^(٥).

وورد في شرح النووي على صحيح مسلم : (واتفق العلماء على جواز خداع الكفار في الحرب كيف ما أمكن الخداع إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يحل)^(٦).

و من أمثله ما ورد في قصة أبي بصير بعد صلح الحديبية : (فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر، فقال : أجل،

(١) د محمد خير هيكل، مصدر سابق، ص ١٢٩٣.

(٢) فتح الباري، (١١٣/٦)

(٣) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، فصل الواو، ص ١٧٢٩.

(٤) ينظر : الصنعاني، سبل السلام (٨٤/٤).

(٥) فتح الباري (١٥٨/٦) وصحيح مسلم، باب الجهاد والسير، برقم (١٧٤٠)

(٦) شرح النووي على مسلم (٣٢٠/٧)، والمغني لأبن قدامة (٣٩٦-٣٩٦/١٠).

والله قد جربت به، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى برد^(١)

أما إباحة استخدام الكذب مع العدو فقد استشهد الفقهاء بها ورد في صحيح البخاري ومسلم في قصة كعب بن الأشرف، عن جابر رضي الله عنه: (قال رسول الله ﷺ من لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله، فقال محمد بن مسلمة: يا رسول الله أتحب أن أقتله؟ قال: نعم، قال: ائذن لي فلا أقل، قال: قل).^(٢)

و يتضح المراد من الحديث أن أمر اغتياله يحتاج إلى نوع من الكذب والمكيدة حتى يتمكنوا منه. ومن هذه الأدلة يتبين أن استخدام هذه الأساليب تخدم دعاية المسلمين و تأتي لصالح قدرتهم في التأثير على العدو.

سادساً - الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان: وهو حكم تشريعي دعائي، منح المسلمين قوة لتجمعهم في مكان واحد، فأضعف أعداءهم وأنجز تخلصهم من سطوتهم وسيطرتهم، بل اعتبر الشارع الحكيم أمر الهجرة و ما جاء فيها من أحكام وحالات فيصلاً بين الكفر والإيمان... قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَآبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَبَاؤُكُمْ وَإِبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ آلِهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَكُمُ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ٢٤﴾ [التوبة: ٢٣-٢٤] والتي قال الطبري في تفسيرها: (لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم بطانة وأصدقاء تفشون إليهم أسراركم و تطلعونهم على عورة الإسلام وأهله، وتؤثرون المكث بين أظهرهم على الهجرة إلى دار الإسلام، ومن يتخذهم منكم بطانة من دون المؤمنين و يؤثر المقام

(١) سنن أبي داود (٣ / ١١٤) برقم (٢٧٧٥) وقال الألباني: صحيح (صحيح سنن أبي داود للألباني، رقم (٢٤٠٣) ج ٣ / ٥٣١.

(٢) فتح الباري (٦ / ١٦٠)، واللفظ هنا لمسلم (٣ / ١٤٢٥) برقم (١٨٠١).

معهم على الهجرة إلى رسول الله ودار الإسلام، فالذين يفعلون ذلك منكم هم الذين خالفوا أمر الله، فوضعوا الولاية في غير موضعها وعصوا الله في أمره. وقيل إن ذلك نزل نهياً من الله للمؤمنين عن موالة أقربائهم الذين لم يهاجروا من أرض الشرك إلى دار الإسلام)، ثم يقول: (والله لا يوفق للخير الخارجين عن طاعته وفي معصيته) ^(١).

وخرج الصحابة أرسالاً - جماعات - للحبشة ثم المدينة بعد أن تركوا مظاهر الجاهلية كلها وراء ظهورهم فكانت حملة دعائية قوية انتصر فيها الحق على الباطل نصراً تخلصوا فيه من سيطرة المشركين عليهم ^(٢). وقد نزلت في الهجرة تشريعات وأحكام كان لها أثر دعائي واضح في حياة المسلمين:

١ - حرمة إقامة المسلم في دار الكفر إذا كان ضعيفاً بينهم ولا يقدر على إظهار دينه، فهجرته في هذه الحالة واجبة، فإن لم يقدر على الهجرة فهو معذور إلى أن يقدر ^(٣). قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمُتَكِبِينَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝١٧﴾ [النساء: ٩٧]. ونزلت في قوم أسلموا وبقوا في مكة فلم يهاجروا فلما حدثت معركة بدر ألزمهم المشركون على القتال معهم فتوعدهم الله بالعذاب ^(٤).

٢ - كانت الهجرة سبباً في وجوب الإحسان والصفح عن المهاجرين، في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِلْ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْمُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٢٢﴾ [النور: ٢٢]. وقد نزلت في مسطح بن أثاثه الذي كان فقيراً، وابن خالة أبي بكر الصديق ؓ وقد شهد بدرًا،

(١) الطبري، تفسير الطبري (١٠ / ٩٨).

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (٢ / ٩٢ - ٩٥).

(٣) الإمام النووي، الروضة ١٠ / ٢٨٢.

(٤) الطبري، تفسير الطبري (٥ / ٢٣٣).

وكان أبو بكر ينفق عليه، فكان ممن تكلم في أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - في الإفك، فحلف أبو بكر ألا ينفق عليه أبداً عقوبة له، فنزلت هذه الآية في تفضيل الصفح والإحسان إلى المهاجرين، فقال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله لي وأرجع إلى مسطح نفقته، قائلاً: والله لا أنزعها منه أبداً.^(١)

وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ [المائدة: ٥٥-٥٦] .

ب- في السنة قول رسول الله ﷺ: (ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار) .^(١)

وقد عمل الرسول ﷺ لقطع كل الولاءات لمظاهر الجاهلية فدعا لنبد عاداتها وأعرافها وقيمها العشائرية وغيرها وذلك لقطع أي سبيل للعودة إليها، ومنها : أنه ﷺ كان يضع إيمان الصحابة في مواجهة الكفر والولاء للجاهلية لقطع أي احتمال للعودة إليها .

والتصديق بلا إله إلا الله يقتضي الإذعان والإقرار بحقوقها وهي شرائع الإسلام التي هي تفصيل هذه الكلمة، بالتصديق بجميع أخباره وامثال أوامره واجتناب نواهيه... فالمصدق بها على الحقيقة هو الذي يأتي بذلك كله .^(٢)

فأرسل أبو العوجاء السلمي لمقاتلة بني سليم فدعاهم للإسلام فرفضوا فقاتلهم، وقاتل عكاشة بن محصن الأسدي بني أسد حين رفضوا الإسلام، وقاد الضحّاك بن سفيان الكلابي سرية ليقاتل قومه بعد أن دعاهم للإيمان بالله فرفضوا، فقاتلهم على ذلك^(٣)

و من صور الولاء لله وحده ونبد بقية الولاءات التي تركت أثراً دعائياً هائلاً في نفوس المشركين، أن أبا عزيز بن عمير، أسر بأيدي المسلمين فمرَّ عليه أخوه مصعب ابن عمير ؓ فقال لآسره الأنصاري : شد يدك به فإن أمه ذات متاع، فقال أبو عزيز :

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان (١١/١) برقم ١٦ .

(٢) ينظر : ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢ / ٢٢٣) .

(٣) ينظر : طبقات ابن سعد (٢ / ١٢٣-١٦٢) .

يا أخي هذه وصيتك بي؟! فقال مصعب: إنه أخي دونك! ^(١).

وفي نفس المعركة قاتل أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة في صف المسلمين، بينما كان أبوه عتبة و عمه شيبة وأخوه الوليد في صف المشركين وقد قتلوا في أول مبارزة فلم يغير ذلك من حقيقة الولاء لله والبراء من أعدائه شيئاً يذكر ^(٢).

وبهذا يتضح أن دعاية الإسلام المشروعة كانت تتخذ من الولاء لله والبراءة من أعدائه ركناً مهماً من أركان الدعوة.

ثامناً - وجوب التصدي لوسائل الإعلام المعادية التي تبث دعايتها لتشويه حياة المسلمين، وبصور مختلفة كالصدي لها بالإعلام أو المقاطعة أو بعدم التعرض للدعاية المغرضة وغيرها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ۚ﴾ [الأنفال: ٣٠].

والتي قال القرطبي في تفسيرها: (ومعنى - ليثبتوك - ليجسوك، يقال: أثبتته إذا حبسته، وقال قتادة: - ليثبتوك - وثاقاً، وقال أبان بن تغلب: ليخنوك بالجراحات والضرب الشديد ... والمكر: التدبر في الأمر في خفية، (والله خير الماكرين) ابتداء وخبر، والمكر من الله هو جزاءهم بالعذاب على مكرهم من حيث لا يشعرون) ^(٣).

والمعنى أن دعاية الكفار تقوم على الإرهاب والحبس والكيد بالمقابل سراً، والمفروض رفض ومقاومة ما يفعلون بما يلي:

(١) ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ٣٠٧).

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٢٥٣).

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مجلد ٤، (٩/ ٣٤٠).

١- فمن أصناف التصدي ومنع ما يفعله المشركون، الامتناع عن ترديد دعايتهم وتقليدها، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً).^(١)

٢- ومن التصدي لدعاية الخصم إعلامياً النطق بما يستبشع من الألفاظ لإرادة زجر من بدا منه الدعاية للعدو ما لا يخفى فقد زجره أبو بكر الصديق ؓ عروة بن مسعود وقد أتى مفاوضاً المسلمين في الحديبية فاستهزأ بالمسلمين واتهمهم بعدم الثبات على الإسلام، فزجره أبو بكر. فقال الحافظ ابن حجر : إن العادة جرت أن الجيوش المجتمعة لا يؤمن عليها الفرار بخلاف من كان من قبيلة واحدة فإنهم يأنفون الفرار عادة. وما درى عروة أن مودة الإسلام أعظم من مودة القرابة).^(٢)

٣- يدخل في باب التصدي للدعاية المعادية استخدام الإمكانات الإعلامية لذلك، وقد حث رسول الله ﷺ حسان بن ثابت على هجاء المشركين بشعره لإفشال دعايتهم، فعن البراء بن عازب - رضي الله عنهما - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان بن ثابت : اهجهم أو هاجهم وجبريل معك.^(٣)

٤- منحت الشريعة لحكم نقض عقائد المشركين الباطلة وتسفيه عقولهم وأفكارهم وفضح عاداتهم السيئة، مشروعية في الاستخدام، قال تعالى: ﴿ قَدْ خَيْرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٠] . فإذا انتقضت عقائدهم وفضحت أفكارهم فلن تجدي دعايتهم شيئاً.

(١) أخرجه مسلم، باب من سن سنة حسنة (٤ / ٢٠٦٠) برقم (٢٦٧٤) .

(٢) السيرة النبوية من فتح الباري ٢٠٥-٢٠٦ .

(٣) ينظر : المنذري، مختصر صحيح مسلم، برقم ١٧١٤ .

٥- ومن أصناف التصدي لدعاية المشركين مقاطعة رسائلهم الإعلامية ومحطاتهم الفضائية ومحاربتها علناً ما دامت تصر على تشويه سمعة الإسلام والمسلمين، ولا بد من وضع البرامج الإعلامية الهادفة كبديل عنها .

تاسعاً: حكم الإسلام في الردة و موقعه في العمل الدعائي : يعرف أهل اللغة الردة بقولهم : ارتد فلان عن دينه إذا كفر بعد إسلامه ^(١) . وهو فعل له أثره الكبير في تمسك الناس بالإسلام وزعزعة قيم المجتمع ، إضافة إلى ما يحققه من فائدة في جانب أهل الكفر، بل إن منهم ليشجع على ذلك، وقد ذكر ذلك في القرآن والسنة :

أ- قال تعالى : ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَءَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٧٢) [آل عمران: ٧٢] . والتي قالوا في تفسيرها : (قال قتادة : قال بعضهم لبعض : أعطوهم الرضا بدينهم أول النهار واكفروا آخره ، فإنه أجدر أن يصدقوكم و يعلموا أنكم قد رأيتم فيهم ما تكرهون ، وهو أجدر أن يرجعوا عن دينهم . وقال السدي : كان أحبار قُرى عربية أثني عشر حبراً فقالوا لبعضهم : ادخلوا في دين محمد أول النهار وقولوا: نشهد أن محمداً حق صادق فإذا كان آخر النهار فاكفروا وقولوا: إنا رجعنا إلى علمائنا وأحبارنا فسألناهم ، فحدثونا أن محمداً كاذب ، وأنكم لستم على شيء ، وقد رجعنا إلى ديننا فهو أعجب إلينا من دينكم ، لعلهم يشكّون ، يقولون : هؤلاء كانوا معنا أول النهار ، فما بالهم؟) ^(٢)

ولا شك إن هذا الفعل من قبل طائفة من اليهود يصب في خدمة الدعاية المعادية التي تريد إلحاق الضرر بالإسلام والمسلمين ، فكانت عقوبة ذلك منصفة وعادلة في الحفاظ على وحدة الصف .

(١) ابن منظور، لسان العرب (٣/ ١٧٢) .

(٢) الطبري، تفسير الطبري (٥/ ٤٩٦) .

ب- وفي السنة : عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال : (من بدل دينه فاقتلوه)^(١).

و عن عبد الله بن مسعود ؓ قال : قال رسول الله ﷺ (لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة).^(٢)
و يعلل ابن تيمية هذه العقوبة بقوله : (أما المرتد فالمبيح عنده هو الكفر بعد الإيمان، وهو نوع خاص من الكفر فإنه لو لم يقتل لكان الداخل في الدين يخرج منه، فقتله حفظ لأهل الدين و الدنيا، فإن ذلك يمنع من النقص ويمنعهم من الخروج عنه، بخلاف من لم يدخل فيه ...)^(٣).

لهذا فالتساهل في إيقاع هذه العقوبة يؤدي إلى زعزعة النظام الاجتماعي القائم على الدين، فكان لابد من تشديد العقوبة لاستئصال المجرم من المجتمع منعاً للجريمة وزجراً عنها، فشدة العقوبة تولد في نفس الإنسان من العوامل الصارفة عن الجريمة ما يكبت العوامل الدافعة إليها، ويمنع من ارتكاب الجريمة في أغلب الأحوال.^(٤)

و من هنا يتضح أن نشاطات أعداء الإسلام للتشجيع على الردة تحت مختلف الذرائع أو الأطماع ما هي إلا حرب نفسية تحقق أهدافها في تمزيق وحدة الأمة، بهذا العمل الدعائي المؤثر.

عاشراً: معاقبة من سبَّ الدين و الرسول ﷺ تخدم الاتجاه الدعائي للمسلمين، وتمنع من تدفق سيل الدعاية المعادية. قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَثُرُوا أَتَيْنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي ﴾

(١) صحيح البخاري، كتاب الحدود، برقم (٢٥٣٥).

(٢) ينظر : ابن حجر، فتح الباري، باب الديات، برقم (٦٤٨٤).

(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (١٠٢/٢٠).

(٤) ينظر : عبد القادر عودة، التشريع الجنائي الإسلامي (١/٦٦٢).

دِينَكُمْ فَتَكِلُوا أَمْرَ الْكَافِرِ إِنَّهُمْ لَا يَأْتِنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ ﴿١٢﴾ [التوبة: ١٢] .

و التي قال القرطبي في تفسيرها : (استدل بعض العلماء بهذه الآية على وجوب قتل كل من طعن في الدين، إذ هو كافر، والطعن أن ينسب إليه ما لا يليق به أو يعترض بالاستخفاف على ما هو من الدين، لما ثبت من الدليل القطعي على صحة أصوله واستقامة فروعها، وقال ابن المنذر : أجمع عامة أهل العلم على أن من سبَّ النبي ﷺ عليه القتل، و ممن قال ذلك مالك والليث وأحمد وإسحاق وهو مذهب الشافعي) .^(١)

و يعلل ابن القيم هذه العقوبة بما يلي : وأيضاً فإن من سبَّ الله ورسوله، وكفر بهما فقد حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً، فجزاؤه القتل حدّاً، ولا ريب أن محاربة الزنديق لله ورسوله وإفساده في الأرض أعظم محاربة وإفساداً، فكيف تأتي الشريعة بقتل من صال على عشرة دراهم ولا تأتي بقتل من صال على كتاب الله وسنة نبيه بين أظهر المسلمين وهي من أعظم المفاسد؟!^(٢) ويرتبط بهذا أن من أجاز شريعة أخرى مبتدعة ومنحرفة عن شريعة الإسلام فقد خرج من الملة، لما في ذلك من أثر بالغ على نفسية المسلمين وتحريضاً لعقيدتهم و طعنأً بدينهم و يحقق نصراً دعائياً على الأمة لصالح أعدائها : (و معلوم من دين الإسلام أن من جوّز اتباع شريعة غير الإسلام فإنه كافر وبالجمله فما من نفاق و زندقه وإلحاد وفسوق وعصيان إلّا و هي داخله في ذلك) .^(٣)

حادي عشر: حرمة إظهار شعائر أهل الكفر في بلاد المسلمين من قبل المسلمين أو

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن، مجلد ٤ (١٠ / ٤٣١) .

(٢) ينظر : ابن القيم، إعلام الموقعين (٣ / ١٣٠) .

(٣) ابن تيمية، مختصر فتاوى ابن تيمية، أشرف عليه : الشيخ عبد المجيد سليم، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا سنة طبع، ص ٥٠٨ .

أهل الذمة^(١) أو المستأمنين^(٢)، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مِنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦]. والتي قال القرطبي في تفسيرها: (وإن تطع أكثر من في الأرض) أي: الكفار (يضلوك عن سبيل الله) أي: عن الطريق التي تؤدي إلى ثواب الله و (يخرصون) أي يحسدون ويقدرّون، وأصله القطع^(٣). وقد تضمنت مسألة إظهار شعائر غير المسلمين في ديار المسلمين ما يلي من أحكام:

أ- المدينة والقرية التي يسكنها المسلمون وفيها مساجد المسلمين لا يجوز أن يظهر فيها شيء من شعائر الكفر، لا كنائس ولا غيرها، إلا أن يكون لهم عهد فيوفى لهم بعهدهم.

ب- وإذا فعل المسلمون معهم أعيادهم، فقد نص طائفة من العلماء من أصحاب أبي حنيفة ومالك على كفر من يفعل ذلك^(٤). كما نص الفقهاء على ضرورة أن يحترم الذمي والمستأمن عقائد المسلمين، وتقاليدهم، والامتناع عن كل ما يشعر بإهانة المسلمين^(٥). ويمنع المستأمن حال الحرب من محاولة الدس والوقعة بين صفوف المواطنين، كما يمنع من الدعاية لقومه لرفع قواهم المعنوية وإضعاف الروح العامة

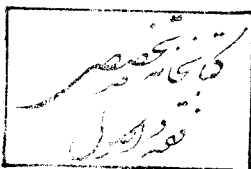
(١) أهل الذمة: هم الذين دخلوا في ذمة المسلمين وحمايتهم من أهل الكتاب بعد أن رفضوا الإسلام ووجب عليهم بموجب عقد الذمة دفع الجزية للمسلمين، مقابل تمتعهم بالعيش بسلام في ظل دولة المسلمين. ينظر: ابن قدامة، المغني (٥٠٥/٨).

(٢) المستأمن: هو الكافر من أهل الحرب الذي أعطاه المسلم أماناً ليطمئن على نفسه وماله وذريته، وصورته: ما لو حاصر المسلمون مدينة للكافرين أو حصناً فيستأمنهم الكفار ويؤمنهم المسلمون. ينظر: ابن قدامة، المغني: (٣٩٦/٨)، والكاساني، البدائع (١٠٧/٧).

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مجلد ٤ (ج ٨ / ص ٦٥).

(٤) ابن تيمية، مختصر فتاوى ابن تيمية، ص (٥١٢/٥١٤/٥١٧).

(٥) وهبة الزحيلي، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، ص ٣٧٨.



لدى خصومهم^(١) .

و بهذا تتضح مشروعية منع هؤلاء من إظهار كل ما يشير إلى قوتهم ومنعتهم لما في ذلك من أهداف دعائية تعد من مهام الحرب النفسية .

ثاني عشر: وجوب بث الجواسيس في مجتمع الخصم لمواصلة الدعاية للمسلمين، وتمزيق وحدة صفوفهم وإحداث الشقاق بينهم . لما يلي :

أ- التجسس على الكفار لمعرفة أخبارهم مشروع إذ إنه يصبح للمسلمين فرصة إعداد العدة التي تقذف الرعب في قلوب أعدائهم، وقذف الرعب في قلوب الأعداء أمر واجب لأن إعداد القوة التي ترهب الأعداء واجب ولا يتم ذلك إلا بالتجسس عليه لمعرفة قوته وسلاحه و مقدار استعداداته^(٢) .

ب- عمل رسول الله ﷺ بهذا العمل لتحقيق مصلحة للمسلمين في مواضع عدة، منها، أنه أرسل (عبد الله بن حذرر الأسلمي) ليرى خبر هوازن وثقيف، بعد أن أتت الأخبار أنهم يجمعون صفوفهم لحرب المسلمين في غزوة حنين ويتجسس عليهم، فذهب ثم رجع بعد أن أتم واجبه بأنهم تحشدوا لقتال المسلمين في أوطاس، وعلى ضوء هذا الخبر أمر الرسول ﷺ بقتالهم^(٣) . كما أرسل رسول الله ﷺ عيناً - أي جاسوساً - لينظر عير أبي سفيان، بما رواه أنس ؓ أنه ﷺ بعث (بسيسة) عيناً ينظر ما صنعت عير أبي سفيان، فجاء و ما في البيت أحد غيري وغير رسول الله ﷺ قال : فحدثه الحديث، قال فخرج رسول الله ﷺ فقال : (إن لنا طلبة فمن كان

(١) ينظر : الدردير، شرح السير الكبير (٤/٣٥٣)، والسرخسي، المبسوط (١٠/٩٢) .

(٢) ينظر: عبد الجبار الفهداوي، التجسس وأحكامه في الفقه الإسلامي، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، ٢٠٠٢، ص ١٨ وما بعدها .

(٣) انظر الرواية كاملة في المغازي للواقدي، (٣/٨٣٩)، وابن هشام، السيرة النبوية، (٢/٤٣٩) .

ظهره حاضراً فليركب معنا (١). كما كان هذا الفعل حاضراً في عملية التخذيل والتجسس على المشركين في معركة الأحزاب وقد أرسله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لهذا الغرض ففرق صف الأعداء وشتت شملهم بإحداث الفرقة والخلاف بينهم (٢).

بل أوجبت الشريعة على ولي أمر المسلمين العناية بهذا الجانب وعدته من الواجبات المتعلقة بعمله، إضافة إلى إجازته في الأنفاق على هذا الجانب من الأموال العامة كما يحصل في العصر الراهن (٣). ويجب أن يكون عيون المجاهدين، ممن عرفوا بتقوى الله وبالصدق والأمانة والقدرة على أداء واجبه دون أن يكشف العدو عملهم، وأن هذا يستوجب ذكاء وحكمة (٤).

ثالث عشر: جواز منح الأمان للكافر المحارب إذا أراد سماع القرآن، والتعرف على دعوة المسلمين، لما في هذا الجانب من دعاية مؤثرة لصالح المسلمين، ومن أدلة ذلك:

أ- قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّقِ اللَّهَ مَأْمَنَةً ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١) [التوبة: ٦].

و التي قال القرطبي في دلالتها : (ومن طلب الأمان ليسمع كلام الله ويعرف شرائع الإسلام وجب أن يعطاه ثم يرد إلى مأمنه، لا نعلم في هذا خلافاً وبه قال قتادة

(١) مسلم، صحيح مسلم، (٣/١٥٠٩/١٥١٠)، رقم ١٩٠١.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية (٤/١١٣).

(٣) ينظر: د. إبراهيم الصايل، كيف تساس الحروب بعد نشوبها، مجلة جامعة صدام للعلوم الإسلامية، ع ٧، ١٩٩٦، ص ١٥١.

(٤) ينظر: ابن تيمية، الفتاوى (٢٨/٢٤٦-٢٤٧).

ومكحول والأوزاعي و الشافعي، و كتب عمر بن عبد العزيز بذلك إلى الناس (...)^(١).

ب- من شواهد هذا الأمان قوله ﷺ: (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن)^(٢).

و يجزي من الألفاظ في هذا الأمان ما يفيد تحقق المعنى، كأن يقول : لا تخف أو لا تذهل أو لا تخشى، أو لا خوف عليك أو لا بأس عليك^(٣).

رابع عشر: وجوب الحذر من جواسيس العدو : و ذلك لما في هذا الفعل من إضفاء قوة إلى العدو و تعزيز لمعنوياته، و لما في ذلك من كشف عوراتهم التي يترتب عليها إعداد العدو عدته على ضوئها، فإذا بدا لهم اشتباه في بعض الأفراد من المسلمين أو من غيرهم فالواجب متابعتة والحيلولة بينه وبين نقل المعلومات العسكرية إلى العدو^(٤).

و قد أرسل رسول الله ﷺ جماعة من المسلمين لمنع وصول كتاب (حاطب بن أبي بلتعة) إلى قريش باعتباره عملاً في صلب ذلك يقوم به مسلم لصالح العدو^(٥).

وقد انقسمت آراء الفقهاء في حكم الجاسوس المسلم إلى رأيين :

الأول: لا يقتل ويعزره الإمام بما يرى من ضرب وحبس، قال به أبو حنيفة

(١) ابن قدامة، المغني (٤٤ / ٩).

(٢) أخرجه مسلم (٣ / ١٤٠٥)، برقم ١٧٨٠، وينظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٤٦ / ٤)

(٣) ابن قدامة، المغني (٨ / ٤٨٩)، والكاساني والبدائع (٧ / ١٠٦).

(٤) ينظر: الدكتور عبد الله بن أحمد القادري، الجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته، ج ١، ص ٢١٩.

(٥) البخاري: صحيح البخاري، كتاب المغازي، (٥ / ١٠٥)، برقم (٤٢٧٤).

والشافعي وأحمد و جماهير العلماء - رحمهم الله تعالى - ^(١)، ودليلهم قول رسول الله ﷺ : (لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة) ^(٢).

الثاني: قال الإمام مالك - رحمه الله - : يقتل، كما نقل أصحابه ذلك، وحجته : إضرار عمله بالمسلمين وسعيه بالفساد في الأرض . ^(٣)

وأما الجاسوس الكافر فقد وردت بعض شواهد في السنة بما روى البخاري عن - سلمة بن الأكوع - : أتى النبي ﷺ عين من المشركين وهو في سفر فجلس عند أصحابه، ثم انفتل، فقال النبي ﷺ : اطلبوه واقتلوه فقتله ونفل سلبه ^(٤).

وقال النووي تعليقاً على الحديث : (وفيه قتل الجاسوس الكافر الحربي وهو كذلك بإجماع المسلمين) . ^(٥) ويجب معاقبة الجاسوس من أهل الذمة إذا قام بهذا الفعل : (وليس لأهل الذمة أن يكتبوا أهل دينهم من أهل الحرب ولا يخبروهم بشيء من أخبار المسلمين و من فعل ذلك منهم وجبت عقوبته ونقض عهده) ^(٦).

خامس عشر: إظهار التجلد للعدو والغلظة في التعامل معه، حتى إذا خسر المسلمون المعركة فإن مثل هذا الفعل من شأنه أن يترك أثراً نفسياً و دعائياً كبيراً

(١) يراجع رأي الحنفية في كتاب الخراج لأبي يوسف (ص ١٨٩ - ١٩٠) وينظر : الدردير السير الكبير (٥/ ٢٤٠) وآراء الشافعي في كتابه الأم (٤/ ٢٤٩ - ٢٥٠). ورأي الإمام أحمد نقله ابن تيمية في : السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ص ١٢٣.

(٢) البخاري : صحيح البخاري (١٢ / ٢٠١) برقم (٦٨٧٨).

(٣) نقل رأي الإمام مالك ابن العربي في : أحكام القرآن (٤/ ٢٢٥).

(٤) فتح الباري (٦/ ١٦٨).

(٥) النووي، شرح صحيح مسلم (١٢/ ٦٧).

(٦) ابن تيمية، مختصر الفتاوى، ص ٥١٣.

لصالح مجتمع المسلمين و تقليلاً من شأن العدو، ومن أدلة ذلك :

أ- قال تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٤].

و التي قال الطبري في تفسيرها : (و هذا من الله تعالى ذكره تعزية لأصحاب رسول الله ﷺ على ما أصابهم من الجراح والقتل بأحد، قال : ولا تهنوا ولا تحزنوا يا أصحاب محمد، يعني ولا تضعفوا بما نالكم من عدوكم بأحد من القتل والقروح عن جهاد عدوكم و حربهم ... ولا تحزنوا ولا تأسوا فتجزعوا على ما أصابكم من المصيبة يومئذ فإنكم أنتم الأعلون، يعني الظاهرون عليهم ولكم العقبي في الظفر والنصرة عليهم إن كنتم مؤمنين)^(١).

ب) استجاب لذلك رسول الله ﷺ في معركة أحد بعد استشهاد (٧٠) من خيرة الصحابة وجراح معظم الجيش ما زالت تنزف فطارد المشركين و أنتظر ثلاثة أيام في (حمراء الأسد) مظهراً استعداد المسلمين للمواجهة فلا يتصور المشركون أنهم قد كسروا معنويات المسلمين في المعركة، فأنزل الله تعالى في هذا الموقف : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٧٢]. والتي يتضح من خلالها الحكم على إظهار التجلد للعدو ومعاملته بقسوة بالعمل الحسن والأجر العظيم، ومما ينبغي الإشارة إليه أن فعل العكس من ذلك يجلب الإساءة إلى الدين والأمة وغضب الله تعالى كونه يزعزع المعنويات و يرفع من شأن الدعاية للعدو .

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠٢/٤) .

المطلب الثاني : الأحكام الفقهية المتعلقة بالإشاعة

مرَّ بنا الفصل الأول من هذه الدراسة تعريف الإشاعة ضمن أساليب الحرب النفسية و دار حول مفهوم كونها عملية انتشار لأخبار لا تتسم بالثبوت أو الدقة وغالباً ما تحمل في طياتها أهدافاً ومقاصد خطيرة تزعزع أمن المجتمع واستقراره .

وقد حل القرآن الكريم من صورها وحالاتها الكثير محذراً المجتمع منها، وكذلك حفلت السنة النبوية المطهرة بطرق معالجتها وأساليب خوضها مع العدو، وقد جاء ذلك كله ضمن أحكام حددت طرق التعامل معها، نحاول في هذا المطلب التعرف عليها.

أولاً : وجوب الثبوت عند سماع الإشاعة وعدم الاستعجال في تصديقها و الأخذ بها حتى تتبين ماهيتها و حقيقتها، قال تعالى : ﴿ يٰۤأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَهْلَكِهِمْ فَتُصْحِرُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۝٦١ ﴾ [الحجرات: ٦١].

والتي قال عنها ابن عاشور في تفسيره : (دَلَّ قوله: ﴿ فَتُصْحِرُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ بأنه تحذير من الوقوع فيما يوجب الندم شرعاً، أي: ما يوجب التوبة من تلك الإصابة - فكان هذا كناية عن الإثم في تلك الإصابة - فحذر ولالة الأمور من أن يصيبوا أحداً بضرر أو غرم دون تبين، وتحقيق توجه ما يوجب تسليط تلك الإصابة عليه بوجه اليقين أو غلبة الظن، و ما دون ذلك فهو تقصير يؤاخذ عليه)^(١).

وقيل في سبب نزول هذه الآية : إن رسول الله ﷺ أرسل الوليد بن عقبة بن أبي معيط على صدقات بني المصطلق، فلما سمعوا بقدومه خرجوا إليه بأسلحتهم لاستقباله فظنَّ أنهم قاتلوه لشحناء كانت بينهم وبينه في الجاهلية، فرجع إلى النبي

(١) ابن عاشور، تفسير : التحرير والتنوير ، دار سحنون للنشر، بدون سنة طبع (٢٦ / ٢٣٤).

ﷺ و أبلغه أنهم منعوا الزكاة وأرادوا قتله، وأمرهم ألا يغزوهم حتى يتبينوا من أمرهم وما أخبر به الوليد، فكان ما كان، فنزل قوله تعالى في الآية السادسة من سورة الحجرات آنفه الذكر، كما قال غيره من المفسرين : إن عدم التثبت من أمر الخبر وحقيقة الإشاعة : (يفضي إلى الاقتتال بين طوائف المسلمين بسبب الإصغاء إلى كلام الفاسق والاعتماد عليه) .^(١)

وبذلك يثبت أن أمر التبين لمعرفة الحق من الافتراء ضرورة تجنب المجتمع المسلم الوقوع في شباك الإشاعة وخطرها الداهم في تمزيق وحدة الأمة .

ثانياً : رد كل خبر يستشف منه أمر من الخير أو الشر العام، إلى الله ورسوله ﷺ وإلى أولي الأمر من المسلمين ليكونوا على علم بما يجري وتدار شؤون الناس وفق ذلك، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهٖ وَلَوَّ رَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلَّهُمُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٨٣] .

وقد ربط القرآن الكريم في هذه الآية بين أولي الأمر وبين العلماء الذين يستنبطون العلم والحق ويبحثون عنها قبل إذاعتها، وعلى من يستنبط إذن أن يكون ذا عقلية علمية، إذ الاستنباط في اللغة - الاستخراج - يقال: استنبط الفقيه إذا استخراج الفقه باجتهاده وأصل ذلك من النبط وهو الماء الذي يخرج من البئر^(٢) .

وقيل في سبب نزول الآية: إن رسول الله ﷺ كان إذا بعث سرية من سرايا فانتصرت أو غير ذلك تحدثوا وأفسوه ولم يصبروا حتى يكون النبي ﷺ هو المتحدث به^(٣) .

(١) الرازي، تفسير الرازي (ج ٧ / ص ٤٠٦) .

(٢) ينظر : الرازي تفسير الرازي (ج ٣، ص ٢٧٠) .

(٣) ينظر : الطبري تفسير الطبري (ج ٥، ص ١١٤) .

وقال أهل العلم : إن الآية صريحة في وجوب رد الأخبار العامة المتعلقة بمصالح المسلمين إلى القرآن و السنة و إلى أولى الأمر يروا فيها ما يخدم المصلحة العامة، وهي تأكيد لقاعدة إعلامية مهمة هي أنه ليس لوسائل الإعلام أن تنشر كل شيء خاصة إذا اتصل بأمن المجتمع واستقراره ما لم يتم النظر فيه من قبل ولاية الأمر الذين يطلب منهم استشارة المختصين و الخبراء في تلك العلوم و المهارات ليتم اتخاذ القرار بشأنها وتجنب المجتمع ما يمكن أن يسيء إليها ^(١).

ثالثاً: وجوب شن الهجوم بالإشاعة وإطلاقها في صفوف العدو لتمزيق وحدته وتفتيت اجتماعه ضد المسلمين .وقد وردت في ذلك جملة من الآثار منها :

أ- إذن النبي ﷺ لمحمد بن مسلمة باستعمال الكذب مع كعب بن الأشرف للاحتيال عليه و قتله، بسبب إيذائه للمسلمين ببث الإشاعات ضدهم و شن الدعاية المضادة لهم، حتى تمكن منه و قتله ^(٢).

ب- إذن النبي ﷺ لنعيم بن مسعود بالعمل بالإشاعة لتخذيل صفوف الأحزاب في معركة الخندق، فقد أسلم دون علم قومه وأخبر النبي ﷺ بذلك، فقال له : (إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة) ^(٣) فذهب إلى بني قريظة من يهود فزرع فيهم الشك من هدف قريش و غطفان في حرب المسلمين ودفعهم لأخذ رهائن من مقاتليهم حتى يستمروا معهم في حلفهم ثم ذهب إلى قريش ليقول لهم: إن اليهود سيطلبون منكم رهناً لأنهم لا ينوون الاستمرار في القتال.

(١) ينظر: د . الحسن بن خلوي بن حسن الموكل، الإشاعة و التعامل معها في ضوء القرآن الكريم، مجلة الحكمة، ص ٣٨٠.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب الكذب في الحرب (٢٤/٢٥).

(٣) مر تخريج الحديث.

وما هي إلا أن طلبت بني قريظة منهم رهناً مجموعة من المقاتلين ليستمروا في حلفهم ضد المسلمين فرفضت قريش ذلك و تفككت وحدة القوم وتفرق الأحزاب كما اجتمعوا^(١).

ويتضح من ذلك أثر الإشاعة باعتبارها أسلوباً من أساليب الحرب النفسية في إرجاف العدو و خذلانه، و لهذا أباحت الشريعة استخدامها بحدود ما تؤدي إلى إضعاف قوة العدو المعنوية .

رابعاً: حكم تدمير مقرات الإشاعة المعادية: أباحت الشريعة الغراء تدمير وإتلاف و حرق أي مكان يجتمع فيه العدو لبث الإشاعات ضد المسلمين، قال تعالى :

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِصْرًا ذَا لِمَن حَارَبَ اللَّهُ رَسُولُهُ مِنْ قَبْلُ وَيَحْلِفُونَ إِنْ أُرْدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١١٧) [التوبة: ١٠٧].

وقال القرطبي في تفسيرها : (أي يفرقون به جماعتهم ليتخلف أقوام عن النبي ﷺ وهذا يدل على أن المقصد الأكبر والفرض الأظهر من وضع الجماعة تأليف القلوب والكلمة على الطاعة وعقد الذمام والحرمة بفعل الديانة حتى يقع الأُنس بالمخالطة وتصفو القلوب من وضر الأحقاد)^(٢). وقد جرت السنة المطهرة على ذلك عبر :

أ - أمر الرسول ﷺ بعد وصوله المدينة عائداً من تبوك جماعة من الصحابة بهدم وتحريق مسجد الضرار الذي اتخذ مقراً لأتباع (أبي عامر الراهب) و الذين بنووه لا لوجه الله بل نفاقاً ومنافسة لغيرهم و لبث الإشاعات ضد المسلمين^(٣).

ب- أمر النبي ﷺ طلحة بن عبيد الله مع جماعة بحرق (بيت سويلم) اليهودي

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، (٤/ ١١٣).

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج ١١، ص ١٠٧).

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية (ج ٢، ص ٣٢٢).

حيث كان المنافقون يجتمعون فيه مخططين لأذى المسلمين وعاملين على بث الإشاعات المفرقة لوحدة صفهم والمحبطة لمعنوياتهم^(١).

خامساً: تحريم الجلوس والاستماع إلى المنافقين و المرجفين والمخذلين الذين يثبون الإشاعات في صفوف المسلمين، وذلك منعاً لرواج أفكارهم وإشاعاتهم ومقاومتها بحصارها وعدم نشرها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُبْسِتْكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٦٨﴾ [الأنعام: ٦٨]. وهي آية مكية منعت المسلمين من الاستماع والجلوس مع الكفار وأمرتهم بمقاطعتهم وعدم سماع إشاعاتهم، وفي المدينة نزل قوله تعالى شاملاً المنافقين بالحكم نفسه: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ يَنْتَهَبُوا مِنْكُمْ وَإِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ۝١٦٠﴾ [النساء: ١٤٠].

قال القرطبي في بيان حالة المنافقين إنهم: (إذا حضروا الرسول ﷺ وهو يتلو قرآناً أنزل فيه فضيحتهم أو فضيحة أحد منهم جعل ينظر بعضهم إلى بعض نظر الرعب على جهة التقرير يقول: هل يراكم من أحد إذا تكلمتم بهذا فينقله إلى محمد ﷺ وذلك جهل منهم بنبوته عليه الصلاة والسلام وأن الله يطلعه على ما يشاء من غيبه)^(٢).

سادساً: معاقبة ناشر الإشاعة والمروج لها من قبل ولي الأمر، عقوبة دنيوية والتذكير بالعقوبة الأخروية التي حددها الله تعالى في مثل هذه الحالات، ويدخل ضمن مفهوم العقوبات لهذا الصنف من الناس، التهديد بالجلاء من المدينة التي ذكرها القرآن الكريم في حالة استمرار المنافقين والمرجفين ومطلقى الإشاعات ضد

(١) المصدر نفسه (ج ٢، ص ٣١٦).

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج ٨، ص ٢٩٩).

المسلمين في عملهم هذا، قال تعالى : ﴿ لَنْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۖ ﴾ (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا نَقِفُوا أَخِذُوا وَقُتِلُوا نَفْتِيلًا ۖ ﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦١].

وقال المفسرون في معنى هذه الآية : ليس المراد بقوله تعالى : ﴿ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ الإخراج من المدينة، بل هو كناية عن الإهانة و تجنب المسلمين مخالطتهم وابتعادهم عن المؤمنين إتقاء ووجلاً فتضمن ذلك أن يكونوا متوارين مختفين خوفاً من بطش المؤمنين بهم، حيث أغراهم النبي ﷺ بهم ^(١).

وقال ابن عاشور : (وبهذا الوعيد انكف المنافقون عن أذاة المسلمين وعن الإرجاف فلم يقع التقتيل فيهم، إذ لم يحفظ أن النبي ﷺ قتل منهم أحداً ولا أنه أخرج منهم أحداً) ^(٢).

وبهذا يتضح أن الإرجاف و ترويج الإشاعات جريمة حكمها التحريم وعلاجها بالتعزير والحدود دون القتل ^(٣).

و أما العقوبة الدنيوية لهذا الفعل المخلل بأمن المجتمع واستقراره عند ثبوت بطلان الإشاعة، فهي جلد ثمانين جلدة، وهي عقوبة حسية، وإسقاط شهادته مع الحكم عليه بالفسق وهما عقوبتان معنويتان، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۖ ﴾ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۖ ﴾ [النور: ٤-٥].

(١) ينظر : تفسير ابن كثير (٣/ ٥١٩).

(٢) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير (٢٢/ ١١٠).

(٣) ينظر : د. خالد رشيد الجميلي، أحكام الإشاعة والحرب النفسية في الشريعة الإسلامية، مجلة جامعة صدام للعلوم الإسلامية، العدد ١٢، ٢٠٠٢، ص ١١٨.

وعلق المودودي لبيان سبب هذا الحكم : إن المقصود به هو أن يقطع في المجتمع أحاديث الناس بالفحشاء والعلاقات المنكرة بين مختلف الأفراد وتناميهم أخبارها.^(١) و يدخل في أحكام معاقبة مطلقي الإشاعات وصانعيها و المروجين لها، توعده الله تعالى لهم بالعذاب في أكثر من موضع واحد في القرآن الكريم، قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩]. فقد جمع الله تعالى في هذه الآية الكريمة عقوبة لمن يحبون إشاعة الفاحشة في مجتمع المؤمنين دنيوية وأخروية، فعذاب الدنيا حد القذف وعذاب الآخرة العذاب في النار.^(٢)

سابعاً : وجوب تتبع الدليل لبيان كذب الإشاعة أو صدقها و مقدار التدخل في إطلاقها و ترويحها وكيفية معالجتها، وقد جاء ذلك في :

أ - في القرآن الكريم قال تعالى : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

و التي قال المفسرون عنها : (القفو : الاتباع، يقال : قفاه يقفوه إذا اتبعه وهو مشتق من القفا وهو ما وراء العنق واستعير هذا الفعل هنا للعمل، والمراد بما ليس لك به علم : الخاطر النفساني الذي لا دليل عليه ولا غلبة ظنٌّ به) .^(٣) و يتضح من هذا وجوب البحث عن البراهين والأدلة لكل من سمع بالإشاعة وتجنب تصديقها المباشر .

ومن قرائن البحث عن الأدلة والبراهين، استحضار الشهود ليؤيدوا أو ينفوا محتوى الإشاعة قال تعالى : ﴿لَوْ لَا جَاءُوا عَلَىٰ بِرَئِعَةٍ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ

(١) ينظر : المودودي، تفسير سورة النور، ص ٨٤ .

(٢) ينظر، تفسير ابن كثير (١٧/٣) .

(٣) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير (١٥/١٠٠ - ١٠١) .

اللَّهُ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ [النور: ١٣]. لأن عدم توفر هذا الشرط في الإشاعة يوهم مروجها بالكذب كما ذكرت الآية المباركة السابقة.

ب- عمل رسول الله ﷺ بمبدأ الأدلة والبراهين قبل الحكم على الإشاعة، خاصة في حادثة الإفك التي رمى بها المنافقون البيت النبوي بأقذع تهمة وهي نسبة الفاحشة إلى السيدة عائشة - رضي الله عنها - فقد سأل عن ذلك أسامة بن زيد وعلي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - فقال زيد فيها خيراً وأحال عليّ الأمر إلى جارتها بُريرة كنوع من الأدلة فما قالت إلا خيراً وأتى النبي ﷺ بدليل آخر هو أن صفوان بن المعطل المتهم بهذه الفاحشة، لم يعرف عنه إلا الخير ولا يدخل بيوت رسول الله ﷺ إلا بإذن وصحبة، ثم كان الدليل القاطع على براءة السيدة عائشة - رضي الله عنها - في القرآن الكريم.^(١)

ثامناً: تقديم حسن الظن بالمسلم الذي تطلق عليه الإشاعة من جهة، وحث بقية المسلمين على حفظ ألسنتهم من الخوض في المنكرات وفيما يجهلونه من جهة أخرى وكما يلي:

أ- في الحث على حسن الظن بالمسلم الذي تتناوله الإشاعات، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات: ١٢].

و التي قال ابن عاشور في تفسيرها : (ولما جاء الأمر في هذه الآية باجتناب كثير من الظن، علمنا أن الظنون الآثمة غير قليلة فوجب التمهيص لتمييز الظن الباطل من الظن الصادق، والمراد بالظن هنا الظن المتعلق بأحوال الناس وحذف المتعلق

(١) للاستزادة في حديث الإفك، ينظر القصة بطولها من حديث الزهري عن طائفة من الصحابة في

صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً

(٩-٥/٦).

لتذهب نفس السامع إلى كل ظن ممكن هو إثم^(١)، كما نهى رسول الله ﷺ عن الظن السيئ بقوله: (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث).^(٢)

ومن هنا يتبين أن الظن السيئ والشك بأقوال وأفعال المسلم من شأنه أن يروج لإشاعات لا حد لها، فإذا كان المسلم يظن بنفسه خيراً فليقدم هذا الظن بأخيه المسلم أيضاً، وهذا معنى قوله تعالى في حادثة الإفك: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

وقد روي أن أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه لما بلغه خبر الإفك قال لزوجته: ألا ترين ما يقال؟ فقالت: لو كنت أنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله ﷺ سوءاً؟ قال: لا، فقالت: و لو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول الله ﷺ فعائشة خير مني وصفوان خير منك، قال: نعم^(٣).

ويروى هذا الحديث في مجال حسن الظن بالمسلم لقطع دابر الإشاعة.

وقد أجمع العلماء قاطبة على أن من سب عائشة - رضي الله عنها - بعد براءتها براءة قطعية بنص القرآن، ورمائها بما اتهمت به فإنه كافر لأنه بذلك يعاند القرآن ويخالفه^(٤).

ب- حث المسلمين على حفظ ألسنتهم من الخوض في الإشاعات، قال تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٦/٢٥١).

(٢) جزء من حديث رواه البخاري في كتاب النكاح، باب لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع (١٣٦/٦).

و مسلم في كتاب البر والصلة، باب: تحريم الظن والتجسس والتنافس ونحوها (١٦/١١٨).

(٣) ابن عاشور (١٨/١٧٤).

(٤) ينظر: شرح صحيح مسلم للنووي، (٥/٦٤٣).

والتي قال المفسرون في تفسيرها : (وفي هذا من الأدب الأخلاقي أن المرء لا يقول بلسانه ما لا يعلمه ويتحققه، وإلاّ فهو أحد رجلين: آفن الرأي، يقول الشيء قبل أن يتبين له الأمر فيوشك أن يقول الكذب فيحسبه الناس كذاباً، أو رجل مموه يقوله ما يعتقد خلافه ...)^(١).

لذا يجب على المسلم أن يحسن الظن بأخوته المسلمين ولا يصدق الاتهامات والإشاعات التي تطلق بحقهم، وأن يعمل على حفظ لسانه من الخوض في سير الآخرين فيبوء المجتمع بالفساد ولا يكون تربة صالحة لزراع الإشاعات ونشر ثمرها الفاسد^(٢).

تاسعاً : وجوب منع المخذّل^(٣)، في صفوف المسلمين من المشاركة في الحرب النفسية ضد العدو، والمخذّل هو الذي يشيع الوهن والضعف في المجتمع بالإشاعات الكاذبة عن قوة العدو وبإشاعة الذعر في مجتمع المسلمين، فهم في عملهم هذا كالمنافقين الذين يحضرون مع المسلمين إلا أنهم يثيرون الفتنة بترويج إشاعاتهم الكاذبة، قال تعالى : ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا تُضْعَفُوا لَإِنَّكُمْ يَبْعُونَكُمْ إِلَى الْفِتْنَةِ وَفِيكُمْ سَمْعُونَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝١٧﴾ [التوبة: ٤٧] ، وقال الطبري فيها : (لقد التمس هؤلاء المنافقون الفتنة لأصحابك يا محمد التمسوا صدهم عن دينهم وحرصوا على ردهم إلى الكفر بالتخذيل)^(٤) . قال الخازن في تفسيرها : لو خرج هؤلاء معكم إلى الغزو ما زادوكم إلا فساداً وشرّاً، وأصل الخبال اضطراب ومرض

(١) ابن عاشور تفسير التحرير والتنوير (١٨/١٧٨).

(٢) للمزيد ينظر : عبد الجبار الفهداوي، أحكام التجسس في الفقه الإسلامي، ص ٢٤.

(٣) المخذّل بمعنى : خذله، إذا ترك عونه ونصرته، (ينظر : مختار الصحاح : ٤/١٦٨٤).

(٤) الطبري، تفسير الطبري (١٠/١٠٣).

يؤثر في العقل والجنون .^(١)

وفي معنى هؤلاء : المرجف : وهو الذي يكثر الأراجيف، بأن يقول : أقبلت سرية كذا أو لحقهم مدد العدو من جهة كذا أو لهم كمين في موضع كذا ونحو ذلك ...)^(٢)
وتعد مهمة منع هؤلاء من التأثير في صفوف المسلمين بأراجيفهم وإشاعاتهم بواجبات الأمير المسلم، فإذا حضروا فلا يستحقون شيئاً مما يستحقه البقية من منح وعطايا^(٣)

و قال الماوردي في بيانه لمهمات أمير الجيش : (أن يتصفح الجيش و من فيه ليخرج من كان فيه تخذيل للمجاهدين و إرجاف للمسلمين أو عيناً عليهم للمشركين)^(٤) .

كما أجازت الشريعة إذلال المرجف والمخذل للمسلمين وعدم معاملته بالاحترام والتقدير الذي يناله بقية الأفراد، وذلك لأن هؤلاء يريدون الإذلال للمؤمنين متصورين أن العزة لهم دون باقي الناس، قال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨].

و قد عاش ابن سلول هذه الذلة بنفسه أمام أنظار كل الناس حين منعه ابنه عبدالله من الدخول إلى المدينة حتى أذن له الرسول ﷺ بذلك لتجرئه على الله ورسوله واعتزازه بقيم الكفر^(٥).

(١) تفسير الخازن، (٢/ ٣٦٨-٣٦٩).

(٢) ابن قدامة المغني، (١٠/ ٣٧٢).

(٣) ابن النحاس، مشارع الأشواق مصدر سابق ص ١٠٢٥.

(٤) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٤٥.

(٥) الصلابي، السيرة النبوية، ص ٥٧٨.

عاشراً : أجازت الشريعة اتخاذ التدابير الاحترازية والفورية في مقاومة الإشاعة، خاصة حين تنشأ الإشاعة في ظرف مريب أو استثنائي تحتاج فيه إلى مقاومة مباشرة، ولذلك جملة من الأدلة منها :

أ- قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا ﴾ [النساء: ٧١].

ب- عمل رسول الله ﷺ بحكم هذا المبدأ في عمرة الحديبية حين أطلقت إشاعة مقتل عثمان بن عفان ؓ وقد أرسله - عليه الصلاة والسلام - لمفاوضة المشركين في مكة، واحترازاً من أن تحدث هذه الإشاعة أثرها السيئ في صفوف المسلمين دعا مباشرة إلى البيعة على مقاتلة المشركين، فأجتمع المسلمون جميعاً تحت الشجرة لأداء هذه البيعة التي صرفت أنظارهم عن آثار هذه الإشاعة المغرضة^(١).

ج- عمل الرسول بمبدأ مقاومة الإشاعة مباشرة في غزوة بني المصطلق وقد أحدثت إشاعات المنافقين شقاقاً بين صفوف المسلمين المهاجرين والأنصار . فأمر برحيل الجيش في ساعة لم يكن يرتحل فيها^(٢).

د- في معركة أحد، فقد أشاع أحد المشركين أنه قتل النبي ﷺ وارتبك المسلمون حتى أوشكوا على الافتتان، فصاح رسول الله - عليه الصلاة والسلام - لإعادة التوازن إلى صف المسلمين وتكذيب إشاعة الكفار: (إِلَيَّ عباد الله، إِلَيَّ عباد الله) فقبرت هذه الإشاعة في مهدها^(٣).

ويرتبط بهذا من بين أحكام التصدي للإشاعة المعادية، أوجبت الشريعة حكم سد

(١) ينظر: صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، برقم (٣٤٩٥).

(٢) يوسف علي بديوي، تهذيب السيرة النبوية، ص ٣٣٩.

(٣) انظر القصة في تفسير الطبري (٧٣/٤) وما بعدها.

المنافذ التي قد تنفذ منها الإشاعة إلى مجتمع المسلمين أي بمعنى وجوب درء المفسد التي يبيث من خلالها العدو إشاعته، ومن ذلك ما جرى في غزوة بني المصطلق حين أحدث المنافقون الشقاق بين صفوف المسلمين، فقال عمر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال النبي ﷺ (دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه) ^(١).

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، (٢/٢٩٢).

المبحث الثاني: أحكام الحرب الاقتصادية والمناورات السياسية وأحكام فقهية عامة

المطلب الأول : الأحكام الفقهية المتعلقة بالحرب الاقتصادية

يرتبط الاقتصاد ارتباطاً وثيقاً بحياة الإنسان لكونه مؤثراً مهماً في حياته اليومية هبوطاً وارتفاعاً و بقدر تعلق الأمر بقوته اليومي الذي إذا توفر فقد حل الرخاء والاستقرار وإذا لم يتم ذلك فقد حل الاضطراب والارتباك .

و قد عدَّ القرآن الكريم تضحية الإنسان بنفسه وبها يملك في سبيل الله مظهراً اقتصادياً بتشبيه الأمر بعملية (بيع وشراء) وذلك لعظم هذا النشاط في حياة الإنسان وقوة تأثيره على حياة الفرد والمجتمع .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمَوْهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقْنِلُونَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْنِلُونَ وَيُقْنِلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمَتِ اللَّهِ الَّذِي بَايَعَكُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ١١١ ﴾ .
[التوبة: ١١١].

والتي يقول فيها أهل التفسير : (فالمؤمنون هم الذين اشترى الله منهم فباعوا، ومن رحمة الله أن جعل للصفقة ثمناً، وإلا فهو واهب الأنفس والأموال وهو مالك الأنفس والأموال)^(١).

وأحتوى الفقه الإسلامي مجموعة من الأحكام المتعلقة بالصراع والحرب الاقتصادية التي هي من أساليب الحرب النفسية المؤثرة خصصنا هذا المطلب لتحديددها .

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن (ج ١١، ص ١٧١٦).

أولاً: وجوب استغلال الموارد الاقتصادية والثروات بالتي هي أحسن وتوظيفها في خدمة الإسلام والمسلمين، و تقوية الأمة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ بَصُرِهِ، وَرُسُلَهُ، بِالْقَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

وفيها: قوله: (فيه بأس شديد) إشارة إلى الصناعات الحربية وفي قوله: (منافع للناس) إشارة إلى الصناعات المدنية وبهذا تكتمل قوة الأمة في سلمها وحربها^(١).

وفي هذا الباب :

أ- أوجب الله تعالى اختصاص طائفة من المسلمين بالتجارة و العناية بالاقتصاد واستثمار الأموال وتوظيفها في خدمة الدعوة، لأن ذلك يصب في مجال قوة المجتمع وتعزيز معنوياته، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْنِفُوا كَأَفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

والتي يتبين من خلالها أن إعداد القوة الاقتصادية واجب كفائي كطلب العلم والتصدي للعدو والقيام بالدعوة وغيرها من الواجبات .

(وهذا من النفرة التي أمرنا الله - عز وجل - بإعدادها لمواجهة الأعداء ونشر الدين والاستغناء عن مد يد الاستجداء مما يوفر للدعوة والدعاة حرية التحرك واتخاذ القرار دون ضغوط كابحة للنشاط الإسلامي من أي جهة كانت) .^(٢)

ب- من واجبات الأمة في استثمار الطاقات و الموارد في خدمة الدين الاهتمام بالمال الحلال : (وعلى خطة الدعوة أن تتوب توبة نصوح من إسرافها القديم في تعليم

(١) ينظر: الدكتور علي محمد الصلابي، فقه النصر والتمكين، ص ٢٩٣ .

(٢) الدكتور علي محمد الصلابي، فقه النصر والتمكين، ص ٢٨٨ .

الدعاة كراهة المال وحب الوظائف الحكومية ...^(١).

ج - حرّم القرآن الكريم إضاعة المال فيما لا يغني، وعدّ ذلك باطلاً وإثمًا، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨]، ونهى الله تعالى عن الفساد في إهلاك الأموال: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

د - شجع عز وجل على استغلال الأموال والثروات بما ينفع الناس: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۚ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]. بمعنى إذا كانت هناك أكثر من طريقة للحفاظ على المال، وجب على المسلمين اتخاذ الطريقة الأفضل، بل يحرم استخدام الطرق التي لا يتحقق معها تنمية للمال ومال الأمة أولى بالتنمية والرعاية من أموال أي شخص آخر.^(٢)

ثانياً: وجوب الإنفاق في سبيل الله، ببذل الأموال في إعداد القوة التي تردع العدو عن التفكير في الاعتداء على المسلمين، والتي تسهم في توفير سبل النصر عليه، قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

والتي قال القرطبي في تفسيرها: (قال حذيفة بن اليمان وابن عباس وعطاء وعكرمة ومجاهد وجمهور الناس: المعنى: ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة بأن تتركوا النفقة في سبيل الله، وتخافوا العيلة، يعني: الفقر، فيقول الرجل: ليس عندي ما أنفقه)^(٣).

(١) محمد أحمد الراشد، صناعة الحياة، دار المنطلق، دار المجتمع السعودية، ط ٢، ١٩٩٢، ص ٤٦.

(٢) الدكتور علي الصلابي، فقه النصر والتمكين، ص ٢٩٢.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٣٦٢).

و توعده الله تعالى غير المنفقين في سبيل الله بالعذاب : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢٤) [التوبة: ٣٤].

وفيها من الأحكام :

أ - وجوب فضح الذين يسرقون أموال الناس لإنفاقها في الصد عن سبيل الله : (إن كثيراً من العلماء والقراء من بني إسرائيل من اليهود والنصارى، يأخذون الرشا في أحكامهم ويحرمون كتاب الله ويكتبون بأيديهم كتباً، ثم يقولون : هذه من عند الله ويأخذون بها ثمناً قليلاً من سفلتهم ويمنعون من أراد الدخول في الإسلام ...) (١).

ب - حرمة اكتناز المال وعدم إنفاقه في سبيل الله وتقوية الأمة : (أيما مال أديت زكاته فليس بكنز وإن كان مدفوناً في الأرض، وأيما مال لم تؤد زكاته فهو كنز، يكره به صاحبه وإن كان على وجه الأرض)، ثم يقول : (الكنز : ما كنز عن طاعة الله وفريضته) (٢).

وقيل في منزلة المنفق في سبيل الله : (وقد روي عن أفضل السابقين وأشرف هذه الأمة أجمعين سيدنا أبو بكر الصديق ؓ جاء إلى النبي ﷺ بجميع ماله، فقال له النبي ﷺ : ما تركت لأهلك ؟، قال : الله ورسوله) (٣).

ثالثاً: جواز استهداف مرافق العدو الاقتصادية كتهديم البنيان و المصانع وتحريق الزروع إذا كان ذلك يحقق مصلحة للمسلمين وإغاظة للعدو وردعاً له عن استمرارية

(١) الطبري، تفسير الطبري (جزء ١٠ / ص ١١٧).

(٢) المصدر السابق.

(٣) ابن النحاس، مشارع الأشواق المجلد الأول، ص ٢٩٨.

الحرب، قال تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَرَكْتُمْوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الحشر: ٥].

والتي قال القرطبي فيها: (وذلك أن النبي ﷺ لما نزل على حصون بني النضير وهي (البويرة) حين نقضوا العهد بمعونة قريش عليه يوم أحد، أمر بقطع نخيلهم وإحراقها، وكان ذلك عن إقرار رسول الله أو بأمره، إما لإضعافهم بها أو لسعة المكان بقطعها)^(١) والذي يدل على إن هذا الاستهداف الاقتصادي تمّ بأمر من الله تعالى، والهدف منه تحطيم معنويات اليهود وزعزعة عوامل صمودهم فيستسلموا قبل بدء القتال.

وقد أجاز ذلك جمهور الفقهاء من الحنفية والمالكية والشافعية وابن حزم فجوزوا ضرب المرافق الاقتصادية للعدو إذا كان يحقق هزيمة لهم.^(٢)

وقال الماوردي ضمن واجبات أمر الجيش:

(و يجوز أن يهدم عليهم منازلهم ويضع عليهم البيات والتحريق، وإذا رأى في قطع نخيلهم و شجرهم صلاحاً يستضعفهم به ليظفر بهم عنوة أو يدخلوا في السلم صلاحاً فعل، وقد قطع رسول الله ﷺ كروم أهل الطائف فكان سبباً في إسلامهم وأمر في حرب بني النضير بقطع نوع من النخل يقال له الأصفر...، فقطع به و حزنوا له...)^(٣).

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩/٥-٦).

(٢) ينظر: ابن عابدين، رد المحتار على الدر المختار، (٦/١٥٩)، والدسوقي، حاشية الدسوقي

(٢/٤٨٦)، والشربيني، مغني المحتاج (٤/٣٠٠)، وابن حزم، المحلى (٥/٣٤٥)

(٣) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٦٤.

ولم تخل المصادر الفقهية الحديثة من تكرار هذه الأحكام :

(وتقتضي طبيعة الحرب إحداث ظاهرة التخريب والتدمير للحصون والقلاع وقطع الأشجار للضرورات أو المصلحة العسكرية)^(١).

كما يجوز إتلاف شيء من أموال العدو من أبنية وزروع وأشجار ومنشآت مدنية كالجسور والطرق إذا دعت الضرورة أو الحاجة الحربية لذلك، أما ما لا حاجة إلى إتلافه كخزانات المياه فيكره إتلافه لما فيه من الأضرار أو احتمال المعاملة بالمثل بالنسبة للمسلمين^(٢).

رابعاً: حكم غنائم الحرب النفسية :

مرّ بنا في الفصل الأول من هذه الرسالة أن مفهوم الحرب النفسية يدور حول معنى تحقيق النصر على العدو من دون قتال حقيقي، وقد وجدنا أن القرآن الكريم ذكر أحكاماً للحالة نفسها وتكلم فيها الفقهاء لاحقاً في باب (الفيء)، مما يعني أن الأموال المتحصلة من الفيء هي غنائم الحرب النفسية وقد تحصلت للمسلمين من عدوهم من دون قتال حقيقي .

قال تعالى : ﴿ مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٧ ﴾ [الحشر: ٧] .

وقد عرّف أهل العلم الفيء بأنه : (ما يحصل من الكفار بغير قتال، وإيجاف خيل وركاب، كشيء جلا عنه الكفار وتركوه خوفاً من المسلمين إذا سمعوا خبرهم)^(٣).

(١) وهبة الزحيلي، أحكام الحرب والسلم في الفقه الإسلامي، ص ٢٦ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٥ .

(٣) النووي، المجموع شرح المذهب (١٨٤/١٨)

فهو إذن مال حصل عليه المسلمون بفتح الكفار ورعبهم منهم ومن دون الدخول معهم في قتال مباشر .

و قد فصل الفقهاء في مصارف غنائم هذه الحرب كما يلي :

يقسم الخمس منها على خمس أسهم متساوية : سهم كان لرسول الله ﷺ في حياته ينفق منه على نفسه و أزواجه ويصرفه في مصالحه ومصالح المسلمين ، أما بعد موته ﷺ فيصرف في مصالح المسلمين كأرزاق الجيش وإعداد السلاح وبناء الحصون والقناطر و أرزاق القضاة والأئمة ^(١) .

والسهم الثاني: سهم ذوي القربى، وهم قرابة رسول الله ﷺ وهو باق، كما كان عليه .

والسهم الثالث : لليتامى من ذوي الحاجات .

والسهم الرابع : للمساكين، وهم الذين لا يجدون ما يكفيهم .

والسهم الخامس: لبني السبيل، وهم المسافرون من أهل الفياء لا يجدون ما ينفقون ^(٢) .

(وأما أربعة أخماسه فهو للجيش خاصة لا يشاركهم فيه غيرهم ليكون معداً لأرزاقهم، و القول الثاني: أو إنه مصروف في المصالح التي منها أرزاق الجيش وما لا غنى للمسلمين عنه ^(٣) .

(١) ينظر: الشافعي، كتاب الأم (٤/ ١٤٠) .

(٢) ينظر: المقدسي، الشرح الكبير، (١٠/ ٥٤٧-٥٤٨) والشرييني، مغني المحتاج (٣/ ٩٤)

والشافعي، الأم (٤/ ١٤١) .

(٣) ينظر: الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٦٢-١٦٣ .

ورغم تعدد الآراء الفقهية في هذه المسألة فإن الجيش الإسلامي ظل هو القاسم المشترك في وجوب إعطائه ما يقوم بحاجاته وما يؤدي إلى تعزيز قدراته العسكرية^(١).

ولا شك أن تقوية هذه القدرات يعني تعزيز قدرته على خوض الحرب النفسية والتصدي للحرب النفسية المعادية .

بل حدد الماوردي هوية أهل الفبيء بقوله : (وأهل الفبيء هم ذوو الهجرة الذابون عن البيضة والمانعون عن الحريم والمجاهدون للعدو ...)^(٢).

خامساً: جواز فرض الحصار الاقتصادي على العدو، وندب استهداف موارده و كل ما يضيق عليه الخناق فيضعف ويستسلم، ومن أدلة هذا الجواز :

أ- في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُوا لَهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٥] .

والتي قال فيها القرطبي : (و قوله : - وخذوهم - يدل عليه، والأخذ هو الأسر، والأسر إنما يكون للقتل أو الفداء أو المنّ على ما يراه الإمام ومعنى - أحصروهم - يريد عن التصرف إلى بلادكم و الدخول إليكم، إلّا أن تأذنوا لهم فيدخلوا عليكم بأمان، وقوله تعالى : « وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ » المرصد : الموضع الذي يرقب فيه العدو، أي : اقعدوا لهم في مواضع الغرة حيث يرصدون)^(٣).

ب - في السنة أن رسول الله ﷺ لما بلغه خبر قافلة قريش العائدة إلى مكة محملة بالأموال، ندب المسلمين إلى الخروج إليها قائلاً : (هذه غير قريش فيها أموالهم

(١) الدكتور محمد خير هيكال الجهاد والقتال، مصدر سابق، ص ١٠٧٥ .

(٢) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٦٣ .

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠/٤٢٤) .

فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها) . (١)

ويتضح أن خروج المسلمين لم يكن للقتال بل للاستحواذ على القافلة لما في ذلك من إلحاق أذى بالمشركون، لا سيما وأن الحرب قائمة بين الطرفين، و حصّة كبيرة من أموال القافلة كانت أصلاً من أموال المهاجرين وقد استولى عليها المشركون، وقدّر الله فنجت القافلة وحدثت معركة بدر . (٢)

ج - ومن ضروب التهديد الاقتصادي للعدو في السنة ما فعله (أبو بصير)
وجماعة من المسلمين الذين اشترطت قريش عدم ضمهم للمسلمين في المدينة من بين شروط صلح الحديبية، فاتخذوا موضعاً على البحر يهددون به تجارة قريش حتى آذوهم فطلبوا ضمهم للمسلمين لعظم ما أحدثته هذه الحرب الاقتصادية من أذى فيهم . (٣) وهذا الحكم ما زال قائماً حتى اليوم : (ولا مانع من الحصار الحربي براً وبحراً لمنع الإمداد والإجلاء إلى التسليم و كذا الحصار الاقتصادي للتضييق على العدو وإرباك مخططاته وإضعافه، وكان التعرض لقافلة أبي سفيان زعيم المشركين في مكة قبل معركة بدر نوعاً من الحصار الاقتصادي). (٤)

سادساً: حكم توظيف المال في الحرب النفسية :

أجازت الشريعة الإسلامية إنفاق المال لتفريق الأعداء أو استمالة قاداتهم أو شراء المساندين أو القيام بخطوات مماثلة من شأنها تعزيز معنويات المسلمين وتخذيل العدو. وتغلب هذه المواقف في أوقات الأزمات والظروف الصعبة، وفي المسألة شواهد

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٦١) بسند صحيح عن ابن عباس - رضي الله عنهما .

(٢) الدكتور علي محمد الصلابي، السيرة النبوية، ص ٣٩٠ .

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/ ٣٤٧) .

(٤) د . وهبة الزحيلي، أحكام السلم والحرب في الفقه الإسلامي، ص ٢٦ .

وحالات منها :

أ- قال تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١ ﴾ [الأحزاب: ١٠-١١].

و تتحدث الآيات عن المواقف الصعبة والظرف العصيب الذي مر به المسلمون في غزوة الأحزاب وقد اجتمع عليهم مشركو قريش و غطفان واليهود في تجمع عسكري كبير لم تشهده الجزيرة العربية سابقاً، فأرسل رسول الله ﷺ إلى رؤساء غطفان لمفاوضتهم، قال الواقدي : (إن رسول الله ﷺ قال لقائدي غطفان : أريت إن جعلتُ لكم ثلث تمر المدينة ترجعان بمن معكم وتخذلان بين الأعراب ؟ قالوا : تعطينا نصف تمر المدينة، فأبى رسول الله ﷺ أن يزيدهما على الثلث، فرضيا بذلك وجاءا في عشرة من قومهما حين تقارب الأمر. ^(١)

ولم يتم الاتفاق لاحقاً بعد أن قرر المسلمون الصمود للأزمة ومجابهة أحزاب المشركين فدل ذلك على جواز توظيف المال العام في الحرب النفسية مع العدو .

ب - وذكر الماوردي ما يعزز هذه المسألة بقوله : (وإذا أراد الإمام أن يصل قوماً لعود صلاتهم بمصالح المسلمين كالرسل و المؤلفه قلوبهم أن يصلهم من مال الفيء، فقد أعطى رسول الله ﷺ المؤلفه يوم حنين فأعطى عيينة بن حصن الفزاري مائة بعير والأقرع بن حابس التميمي مائة بعير والعباس بن مرداس السلمي خمسين بعيراً، فتسخطها وعتب على رسول الله ﷺ وقال في ذلك شعراً، فقال رسول الله ﷺ لعلي ابن أبي طالب : - اذهب فأقطع عني لسانه - فأعطاه فكان ذلك قطع لسانه ...) . ^(٢)

(١) ينظر : الواقدي، المغازي (٢ / ٤٧٧) .

(٢) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٦٣ .

و في الشاهد دليل على جواز مقاومة الدعاية المعادية بالمال .

ج - في السنة - أيضاً - أن رسول الله ﷺ تألف قوماً من قريش كانوا قد أسلموا حديثاً بمنحهم عطايا و أموال، فعتب في ذلك جماعة من الأنصار، فجمعهم رسول الله ﷺ ليخطب فيهم قائلاً : (... أوجدتم عليّ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفتُ بها قوماً ليسلموا و وكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم ...)^(١).

د - يقول أهل الفقه : (ويجوز إيقاع العدو في كمين، واستخدام الألغام البرية والبحرية، وتفريق صفوف العدو، و لو ببذل المال، وحرب الأعصاب وإضعاف معنويات العدو بكل الوسائل الممكنة والتجسس، والاغتيال باستخدام بعض الحيل والخدع)^(٢).

هـ - عدّ أهل العلم صرف الأموال في ذلك توفيقاً وفلاحاً : (وإنفاق الأموال في الحيل و المكاييد أولى من إنفاق الأرواح في الحروب والشدائد، و من أنواع التأييد أن يلهم الله المكيدة من يقدر عليها ومن الحسرة أن يبصرها من لا يصل إليها)^(٣).

سابعاً: الجزية تشريع اقتصادي يراد به تخذيل العدو وكسر شوكرته، ما دام اختار لنفسه البقاء على الكفر، قال تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

والتي قال القرطبي في بيان بعض شروطها لبقائها على الكفر : (... وما صولحو

(١) ابن القيم، زاد المعاد، (٣/ ٤٧٤).

(٢) د. وهبة الزحيلي، أحكام الحرب والسلام في الفقه الإسلامي، ص ٢٧.

(٣) ابن النحاس، مشارع الأشواق، المجلد الثاني، ص ١٠٧٧.

عليه من الكنائس لم يزدوا عليها، ولم يمنعوا من إصلاح ما وهى منها ولا سبيل لهم لإحداث غيرها، ويأخذون من اللباس والهيئة بما يبينون به من المسلمين، ويمنعون من التشبه بأهل الإسلام، ولا بأس باشتراء أولاد العدو منهم إذا لم تكن لهم ذمة، ومن لدّ - خاصم - في أداء جزيته أدب على لده وأخذت منه صاغراً^(١). وذهب ابن القيم وطائفة من العلماء إلى جواز أخذ الجزية من كل إنسان يبذلها كتابياً أم غير كتابي :

(وقد قالت طائفة : في الأمم كلها إذا بذلوا الجزية، قبلت منهم، أهل الكتاين بالقرآن، والمجوس بالسنة، ومن عداهم ملحق بهم لأن المجوس أهل شرك لا كتاب لهم فأخذها منهم دليل على أخذها من جميع المشركين، وإنما لم يأخذها ﷺ من عبدة الأوثان من العرب لأنهم أسلموا قبل نزول آية الجزية فإنها نزلت بعد تبوك^(٢).

والجزية على نوعين: جزية تؤخذ بالتراضي والصلح فتقدر بحسب ما يتم به الاتفاق، وجزية: يتدئ الإمام بوضعها إذا غلب على الكفار، وأقرهم على أملاكهم^(٣).

ورغم سمة الجزية الغالبة في مجال الاقتصاد والاعتقاد فإنها (من أعظم مظاهر العدل الإسلامي، فهي في مقابل عدم تكليف غير المسلمين بالقتال، لأن القتال فريضة دينية، فمن العدل ألا تكلف بتكاليف ديننا غيرنا، وقد حدث خلال العصور أن من رضي أن يقاتل مع المسلمين أسقطت الجزية عنه، فتكون الجزية رمزاً على شيئين: أولها: هي بدل خدمة العسكرية، وثانيها: هي رمز على قبول الخضوع لسلطان المسلمين^(٤).

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠/٤٥٣).

(٢) ابن القيم، زاد المعاد (٥/١٩١).

(٣) ينظر: الخراج لأبي يوسف، ص ١٢٢ وما بعدها، وينظر: الآلوسي روح المعاني (١٠/٧٧).

(٤) سعيد حوى، الأساس في التفسير، المجلد الرابع، (٤/٢٢٤٥).

ثامناً : حكم مصالحة الكفار على مال يؤديه المسلمون في الحرب النفسية :

لم تجز الشريعة - ابتداءً - عقد المصالحة مع العدو على مال يدفعونه إلا للضرورة الملحة، لما في ذلك من هوان وخضوع للكفار، بل قدر الله تعالى العزة للمؤمنين به، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].^(١)

فإذا أحاطت بالمسلمين ظروف صعبة أو شكوا فيها على الفناء جاز لهم أن يعقدوا صلحاً مع العدو مقابل مال يدفعه المسلمون خلاصاً من هذه الحالة . وتفصيل ذلك ما يلي :

(أن يلتحم قوم من المسلمين فيخافون أن يصطلموا - يُسْتَأْصَلُوا - لكثرة العدو وقتلهم و خلة فيهم، فلا بأس أن يعطوا في تلك الحال شيئاً من أموالهم على أن يتخلصوا من المشركين، لأنه من معاني الضرورات يجوز فيها ما لا يجوز في غيرها ...) ^(٢).

و قال غيره : فلو كان في قوة المسلمين ضعف ونزل بهم قوة لا قبل لهم بها فعقدوا صلحاً على مال يبذلونه لأعدائهم كي يحفظوا أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ما كان في فعلهم ضرر^(٣).

و في السنة أن رسول الله ﷺ بعث إلى قائدي غطفان ليهادنهم على منحهم ثلث ثمار المدينة في معركة الخندق على إن ينسحبوا من معسكر المشركين، ورغم عدم حصول الاتفاق بين الطرفين، إلا إن في الحادثة جواز على إعطاء الكفار مالاً عند الضرورة، ولأن الخوف من اصطلام العدو وتعذيبه الأسرى لأكبر في الضرورة من بذل المال،

(١) جزء من قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ

وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨] .

(٢) الشافعي، الأم (٤/ ١٨٨)

(٣) علاء الدين الكاساني، بدائع الصنائع، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٦، ط ٨ (ج ٧، ص ١٠٩).

فجاز بذلك دفع أعظم الضررين بأخفهما، وذلك الذي عليه عامة أهل العلم^(١).

و كل ما تقدم في هذا الجواز في حالة الحرب المباشرة، التي قد يتعرض المسلمون فيها للإبادة وقد تقدم في مطلب : خطورة الحرب النفسية أنها أشد ضرراً وأعم دماراً على عقل الإنسان وعقيدته لأنه تستهدف ذلك دون جسده بالقتل، فإذا دمر عقل الإنسان وحُرف ولاؤه لغير الإسلام لم يبق لسلامة جسده تلك القيمة، بل ربما أصبح أشد خطراً على الأمة من الكافر نفسه^(٢).

فنقول والله أعلم قياساً على هذه الحالة من الضرورة، إنه إذا تعرض المسلمون في أي زمان إلى حرب نفسية شرسة، لجت فيها الإشاعات و كثرت فيها الدعاية وقويت فيها الحرب الفكرية وغسيل الدماغ والضغط الاقتصادي التي يراد من خلالها إخضاع المسلمين للكفار، جاز للمسلمين مصالحة أهل الكفر وموادعتهم لأجل مسمى على إيقاف هذه الحرب مقابل مال يؤدونه لهم إلى وقت انجلاء الأزمة، وتوفر القوة والقدرة المناسبة عند المسلمين للرد على هذه الحرب النفسية الشرسة التي يشنها العدو عليهم .

تاسعاً : جواز الانفاق من أموال الزكاة على خطط شن الحرب النفسية وعلى سبل التصدي لها لتحصين الأمة من خطرهما، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾

(١) النووي المذهب (٢/ ٢٦٠)، ابن الهمام، وشرح فتح القدير (٥/ ٤٥٩).

(٢) إن الحرب النفسية وإن كانت تبدو على أشدها في حالات الحرب ولكن في فترة السلم لا تقل عنها خطورة إن لم تكن أخطر منها وأصبحت الحرب النفسية الشغل الشاغل للدول الكبرى، بعد أن اتسع معناها ومداها بحيث أصبحت حرب الدعاية والإعلام والحرب الباردة والحرب العقيدية والسياسية والتي تستهدف كلها تحطيم المعنويات لغرض الهيمنة وفرض الإذعان)، ينظر : عيسى محمد عيسى، مصدر سابق، ص ١٢ .

فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ [التوبة: ٦٠].

فجعل الله تعالى الجهاد في سبيل الله من مصارف الزكاة، وقد مرَّ بنا أن الحرب النفسية التي يشنها المسلمون أو يتصدون لها نوع من أنواع الجهاد في سبيل الله^(١).

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية : (وفي سبيل الله وهم الغزاة و موضع الرباط يعطون ما ينفقون في غزوهم كانوا أغنياء أ وفقراء)^(٢).

وفي السنة قوله ﷺ : (لا تحل الصدقة لغنيٍّ إلاَّ لخمسة : غاز في سبيل الله، أو العامل عليها، أو الغارم، أو لرجلٍ اشتراها بماله، أو لرجلٍ كان له جار مسكين، فتصدق على المسكين، فأهداها المسكين للغني)^(٣).

وقال محمد بن الحكم : يُعطى - أي المجاهد في سبيل الله - من الصدقة (الزكاة) في الكراع^(٤)، والسلاح وما يحتاج إليه من آلات الحرب وكف العدو عن الحوزة لأنه كله في سبيل الله و منفعته .

وقال غيره من الفقهاء عن سهم (في سبيل الله) من الزكاة : (ويُعطى الغازي قدر حاجته في غزوه، نفقة، و كسوة لنفسه ولعياله ...) ثم قال : (وله - يعني الإمام - أن يشتري من هذا السهم خيلاً و سلاحاً و يوقفهما في سبيل الله تعالى ...)^(٥).

ومن مجموع الآراء الفقهية في هذه المسألة نقف على أن الجهاد داخل في سبيل الله قطعاً، وأن الإنفاق على المجاهدين مشروع، مما يعني أن جمهور الفقهاء جعلوا سهم

(١) ينظر : مطلب (مشروعية الحرب النفسية) في هذه الرسالة، ص ١١٣ .

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مجلد ٤، (١٠/٥١٤) .

(٣) ينظر : الصنعاني، نيل الأوطار (٤/١٩٠-١٩٢) .

(٤) الكُراع - بالضم - اسم جميع الخيل، (راجع النهاية ٤/١٦٥) .

(٥) الشربيني، مغني المحتاج (٣/١١٥) .

(في سبيل الله) مفتوحاً أمام الجيش لسد بعض متطلباته من الأسلحة والمعدات والنفقات المشروعة الأخرى... (١)

ونقول وبالله التوفيق :

بما أن الأدلة أوجبت الإنفاق على كل ما يكون الجيش من خلاله مستعداً لمقاتلة الأعداء، فإن هذا الوجوب يدخل فيه بلا شك الإنفاق على تهيئة كل الوسائل والآلات اللازمة للتمكن من الحرب النفسية كونها جزءاً من صور جهاد الأعداء، وكل ما تحتاج إليه من طاقات بشرية مختصة ومن خبرات علمية أو مهنية ومن أدوات العمل في أساليب الاتصال الحديث، والله أعلم .

عاشراً: معالجة الأزمات الاقتصادية التي تعصف بالامة وتشجيع العمل والاستثمار والتكافل الاقتصادي بين أفراد المجتمع بما يجنب الأمة تعرضها للحرب النفسية المعادية ويحقق مبدأ الخيرية المنصوص عليها في كتاب الله .

قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠] .

وفي السنة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قالت الأنصار للنبي ﷺ : اقسم بيننا وبين أخواننا النخيل، قال : (لا)، فقالوا : تكفونا المؤونة ونشركم في الثمرة، فقالوا : سمعنا وأطعنا (٢) .

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ رأى في إشراك المهاجرين بأموال الأنصار إجحافاً لهم ولأموالهم فوافق على كفاية المؤونة، أي : أن يعملوا ويسقوا ويصلحوا شأن

(١) ينظر : الدكتور محمد خير هيكال، الجهاد والقتال، مصدر سابق، ص ١٠٧٧ .

(٢) ينظر : البخاري، صحيح البخاري، كتاب المزارعة، برقم (٢٣٢٥) .

النخيل مقابل المشاركة في ثمرها، كما يحمل معنى تشجيع العمل وعدم الاستهانة بما يملك الإنسان والتوكل على الله في ذلك^(١).

وقد أدت هجرة المسلمين إلى المدينة إلى زيادة الأعباء الاقتصادية الملقة على عاتق الدولة الناشئة وشرع القائد الأعلى ﷺ بحلّ هذه الأزمة بطرق عدة أهمها:

١- نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار .

٢- بناء الصفة التابعة للمسجد النبوي لاستيعاب الفقراء والعناية بهم .

٣- رأى رسول الله ﷺ القوة الاقتصادية في يد اليهود بالمدينة، فكان لابد من بناء سوق للمسلمين ينافسهم فيه على التجارة ويكسروا احتكارهم للأسعار .

٤- الاهتمام بإبراز أخلاق المسلمين في التجارة والتعامل بالمال الحلال البعيد عن الربا والشبهات .

٥- تشريع العبادات التي تنظم النظرة إلى الأموال وتحقق التقوى كتشريع الصيام وصدقة الفطر وفريضة الزكاة التي هي حق الفقراء في أموال الأغنياء^(٢).

فكانت هذه الخطوات سبلاً عملية لمعالجة الأزمة الاقتصادية التي مر بها المسلمون في بداية عهدهم، كما أوجب القرآن الكريم الصبر على الفاقة والفقر حتى انتهاء الأزمات، في قوله تعالى: ﴿وَلَبَلُّوْكُمْ بَشَىءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦].

(١) ينظر: المباركفوري، الرحيق المختوم، ص ١٧٤ وما بعدها .

(٢) ينظر الدكتور علي محمد الصلابي، السيرة النبوية، ص ٣٨٨ .

و قد عمل المسلمون بذلك في مكة حين صبروا على إيذاء المشركين لهم في الحصار الاقتصادي الذي دام ثلاث سنوات .

المطلب الثاني: الأحكام الفقهية المتعلقة بالمناورات السياسية

لازمت السياسة حياة الإنسان منذ بداية إدراكه لفحوى العلاقات بينه وبين غيره من البشر وأنه لابد من قواعد و قوانين لإدارة هذه العلاقة، وقد ارتبطت كلمة (السياسة) في النظام الإسلامي بمفهوم كلمة (ساس) أي أدار و نظم الأمور وفق قواعد معينة، هي في الشريعة الإسلامية تقوم على ثوابت من السياسة الشرعية^(١) أهمها : وجوب تطبيق أحكام الله في الأرض .^(٢)

وهي قاعدة مستندة إلى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَنْتُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤١] .

وهي توضح نظرية الإسلام السياسية التي يجب أن تسعى لتمكين دين الله تعالى . وقد استخدمت المناورات السياسية كأداة أو أسلوب من أساليب الحرب النفسية وقفنا على ماهيتها في الفصل الأول من هذه الرسالة ثم لمسنا بعض صورها وأساليبها في حياة الأنبياء - عليهم السلام - في الفصل الثالث .

و قد تحددت بعض معالم هذا الإطار في الفقه الإسلامي ضمن أحكام مستقاة من

(١) تعرف السياسة الشرعية بأنها : تدبير الشؤون العامة للدولة الإسلامية بما يكفل تحقيق المصالح ودفع المضار مما لا يتعدى حدود الشريعة وأصولها الكلية وإن لم يتفق مع أقوال الأئمة المجتهدين . (ينظر : د . وهبة الزحيلي، آثار الحرب في الفقه الإسلامي ، ص ١٤٨)

(٢) ينظر : الدكتور إبراهيم عبد الكريم الغازي، الدولة والنظم السياسية مع أسس نظام الحكم في الإسلام، دار المتنبي، أبو ظبي، ١٩٨٩، ص ٢٠٤ وما بعدها .

القرآن والسنة النبوية، نحاول في هذا المطلب الوقوف عندها إن شاء الله تعالى .

أولاً : وجوب تجنب المجتمع المسلم كل ما يؤثر على وحدته السياسية، وإبعاده عن مخاطر الاستهداف السياسي المعادي .

قال تعالى : ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣] .

و التي يقول فيها العلماء : (وهذا الأصل العظيم : وهو الاعتصام، مما عظمت به وصية الله تعالى في كتابه، ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم، ربما عظمت به وصية النبي ﷺ في مواطن عامة وخاصة) .^(١)

و هذا يعني وجوب تذليل كل العقبات والخلافات التي قد تقف حائلاً بين وحدة المسلمين لأن حاصل هذه الوحدة نوع مهم من أنواع الجهاد و الحرب النفسية الموجهة إلى العدو، يقول الشيخ السعدي - رحمه الله - : (الجهاد نوعان : جهاد يقصد به صلاح المسلمين و إصلاحهم في عقائدهم وأخلاقهم وآدابهم، وجميع شؤونهم الدينية والدنيوية، وفي تربيتهم العلمية، وهذا النوع هو الجهاد و قوامه، وعليه يتأسس النوع الثاني، وهو يقصد به دفع المعتدين على الإسلام و المسلمين من الكفار والمنافقين والملحدين و جميع أعداء الدين ومقاومتهم، وهذا نوعان: جهاد بالحجة والبرهان واللسان، و جهاد بالسلاح المناسب في كل وقت وزمان) .^(٢)

وبهذا يتقرر أن تجنب المجتمع مخاطر الاستهداف السياسي الوارد ضمن الحرب النفسية المعادية من واجبات الجهاد في كل زمان .

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٣٥٩/٢٢) .

(٢) عبد الرحمن السعدي، وجوب التعاون بين المسلمين، دار المعارف، الرياض، ١٤٠٢هـ، ص ٥ .

ثانياً: التزام ولاية الأمر بكل ما يقوي علاقة الثقة المتبادلة بينهم وبين أفراد المجتمع وبذل جناح الرحمة للناس لتحقيق هذا الهدف، فيتأسس بدوره جداراً مانعاً ضد العدو وحر به النفسية، قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِدَلِيلٍ لَأَنْفَضُنَا مِنْ حَوْلِكَ فَقَاعَفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمْ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩].

و يتم هذا الأمر من خلال نقاط كفيلة بصد الاستهداف السياسي المعادي، وهي:

أ- دوام مباشرة أحوال الرعية ومتابعة حاجاتهم .

ب- وضع القوانين التي تكفل النظام وإحقاق العدالة فيحسن للمحسن ويعاقب المسيء.

ج- وجوب استمرار الدعوة وبذل الجهد فيها لوجه الله تعالى يوحد المجتمع ويحقق له قوة سياسية واضحة .

د- اهتمام ولي الأمر بتحركات العدو واستطلاع أخباره وتحركاته وتوطيد أمن المجتمع .

هـ - الاهتمام بالقرار المؤثر في سياسة الدولة الداخلية و الخارجية، وتغليب الحكمة والمصلحة في ذلك .

و- توظيف المهارات و الطاقات التي يتحقق من خلالها أعلى مرتبة من مراتب خدمة الأمة .^(١)

فتقوية أواصر العلاقة بين الراعي والرعية هي سياسة بحد ذاتها تكفل للمجتمع الكثير من الاستقرار النفسي .

ثالثاً: افتعال الأزمات السياسية في صفوف العدو لتفريق صفه وتشتيت وحدته واجتماعه، قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ

(١) ينظر لتفصيل أكثر: الدكتور علي محمد الصلابي، فقه النصر والتمكين، ص ١٣٤ .

وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ [الأعراف: ١٦٨].

والتي قال القرطبي في تفسيرها : (وقطّعناهم في الأرض أُمماً) أي فرقناهم في البلاد، أراد به تشتيت أمرهم، فلم تجمع لهم كلمة - منهم الصالحون - رفع على الابتداء، و المراد من آمن بمحمد ﷺ و من لم يبدّل منهم ومات قبل نسخ شرع موسى - و بلوناهم - أي اختبرناهم - بالחסنات - أي بالخصب والعافية والسيئات - أي الجذب والشدائد - لعلهم يرجعون - ليرجعوا عن كفرهم) .^(١)

ويقول العلماء في تفرقة العدو سياسياً من بين واجبات الأمير : (أن يث الجواسيس الثقات عنده في عسكر عدوه ليعرف أخبارهم مع الساعات، و ما عندهم من العدد والآلات ويجزر أعدادهم و يتنسم ما دبروه من المكاييد ويبحث عن أسماء رؤسائهم وشجعانهم، ويسأل عن أحوالهم عند ملكهم و منزلتهم منه ويدس إليهم و يعدهم ويخدعهم بما تميل إليه طباعهم، إن أمكنه ذلك، ليغدروا بصاحبهم أو يعتزلوه وقت القتال، ويخذلوه، وينشئ على ألسنة كبرائهم و بطارقتهم وقسوسهم كتباً مزورة إليه ويظهرها في عسكره لتقوى بها القلوب - وتنطق بمضمونها الألسنة و يتسع فيها الكلام فلا بد و أن يبلغ العدو ذلك، فيوغر قلبه على أصحابه و جنده ...) .^(٢)

فقوله : (ويدس إليهم) و (ليغدروا بصاحبهم أو يعتزلوه وقت القتال) و (يتسع الكلام بالكتب المزورة) وغيرها، تشير إلى بوادر إحداث أزمة سياسية يتفرق على أثرها العدو ويخسر قوته .

رابعاً : حكم المعاهدات السياسية و العسكرية مع العدو : يعرف العلماء المعاهدة بأنها: مصالحة أهل الحرب على ترك القتال مدة معينة بعوض أو غيره، وتأخذ عند

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مجلد ٤ (ج ٩، ص ٢٦٨) .

(٢) ابن النحاس، مصدر سابق، مجلد ٢، ص ١٠٧٥ .

الفقهاء أسماء عدة : الهدنة، المهادنة، المودعة، الصلح، العهد، الأمان^(١).

وقد أجازت أحكام الشريعة عقد هذه المعاهدات السياسية مع العدو، وفي حالات عدة، منها:

أ - قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ...﴾ [النساء: ٩٢].

و يقول ابن العربي في معرض تفسيره للآية : (الميثاق : هو العهد المؤكد الذي قد ارتبط وانتظم ... قال ابن عباس : هذا هو الكافر الذي له و لقومه العهد، فعلى قاتله الدية لأهله، والكفارة لله سبحانه، وبه قال جماعة من التابعين والشافعي)^(٢).

و في الآية الكريمة إقرار بوجود المعاهدات أو المواثيق ابتداءً بين المسلمين و بين أهل الحرب، وأشار بعض العلماء إلى حتمية وجود المصلحة للمسلمين في عقد هذه المعاهدات، يقول القرطبي تعليقاً على الآية الكريمة : (في هذه الآية دليل على إثبات المودعة بين أهل الحرب، و أهل السلام، إذا كان في المودعة مصلحة للمسلمين)^(٣).

ب - في مشروعية المعاهدة و جوازها ما جاء في حالة نصرمة المسلمين من رعايا أهل الحرب إذا وقع عليهم ظلم في تلك الدولة، واستجدوا بالمسلمين لنصرتهم^(٤).

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَسْتَضْرُّوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٧٢) [الأنفال: ٧٢].

(١) ابن قدامة، المغني (٥١٧/١٠)، والكاساني وبدائع الصنائع (١٠٨/٧).

(٢) ابن العربي، أحكام القرآن (٤٧٧/١).

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣٠٩/٥).

(٤) ينظر: د. محمد خير هيكل، الجهاد والقتال، مصدر سابق، ص ١٤٧٤.

والتي يقول القرطبي في تفسيرها : (إلا أن يستنصروكم على قوم كفار بينكم وبينهم ميثاق، فلا تنصروهم عليهم، ولا تنقضوا العهد حتى تتم مدته)^(١).

وفي السنة النبوية ما عقده رسول الله ﷺ من معاهدة مع كفار قريش في صلح الحديبية على أن تضع الحرب أوزارها بين الطرفين لعشر سنين^(٢).

ج - كل ما ذكر أعلاه من أعمال سياسية تؤدي عملها ضمن نطاق الحرب النفسية، لاحتماؤها لإضعاف العدو أو تحييده أو حرقه عن مقصد محاربة المسلمين .

خامساً : جواز السلم مع العدو إذا جنح لها مع ضرورة النظر إلى قوة المسلمين في ظرف السلم، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنِحْ لَهُ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّيِّعُ الْغَلِيمُ ﴾^(١١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٢].

و يعلق ابن حجر على هذه الآية بقوله : (إن هذه الآية دالة على مشروعية المصالحة مع المشركين ... قال أبو عبيد : السِّلْم والسَّلْم واحد، وهو الصلح) ثم يقرر : (إن الأمر بالصلح مقيد بما إذا كان الأحظ للإسلام - المصالحة - ، أما إذا كان الإسلام ظاهراً على الكفر ولم تظهر المصلحة في المصالحة فلا)^(٣).

ويقول ابن كثير في تفسير هذه الآية : ((وإن جنحوا) أي : مالوا، (للسلم) أي فمل إليها وأقبل منهم ذلك، و لهذا لما طلب المشركون عام الحديبية - الصلح -، ووضع الحرب، أجابهم الرسول ﷺ إلى ذلك ما اشترطوا من الشروط الأخرى، ثم

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٥٧).

(٢) ينظر : ابن القيم، وزاد المعاد (٣/ ٢٩١)، وابن هشام، السيرة النبوية (٣/ ٣٤٦).

(٣) ابن حجر، فتح الباري (٦/ ٢٧٥).

يقول : (فأما إذا كان العدو كثيفاً فإنه يجوز مهادنتهم كما دلت عليه الآية الكريمة) (١).

ولا يجوز جنوح المسلمين للسلم وهم في حالة قوة ويكره ميلهم للمعاهدات السلمية مع العدو إذا كان المسلمون هم الأقوى لأن ذلك ارتقاء في أحضان الضعف والوهن (٢).

وارتباطاً مع هذه الحالة يجوز عقد السلم مع العدو في الحرب النفسية أو غيرها إذا كان في ذلك احتمال المفسدة اليسيرة لدفع ضرر أكبر أو لتحصيل مصلحة أعظم منها، حيث يعلق الإمام النووي على حديث صلح الحديبية قائلاً : (وفيه : أن للإمام أن يعقد الصلح على ما رآه مصلحة للمسلمين وإن كان لا يظهر ذلك لبعض الناس في بادئ الرأي، وفيه : احتمال المفسدة اليسيرة لدفع أعظم منها، إذا لم يمكن ذلك إلا بذلك) (٣).

و يعلق ابن القيم على هذه الحالة : إن مصالحة المشركين ببعض ما فيه من ضيم على المسلمين جائزة للمصلحة الراجحة و دفع ما هو شر منه، ففيه دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما (٤).

سادساً: جوزت الأدلة الشرعية عودة المسلمين إلى حالة الحرب مع الكفار الذين كانت لهم معهم معاهدة أو صلح سياسي، في حالات تلتقي معظمها في شن هؤلاء حرباً نفسية أو فعلية على المسلمين، وهذه الأدلة هي :

أ- انتهاء مدة المعاهدة مع العدو، لقوله تعالى : ﴿فَأَمَّا إِلَىٰ اللَّهِ عَهْدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ

(١) ابن كثير، التفسير (٣٢٢/٢ - ٣٢٣).

(٢) ينظر : د. محمد خير هيكل، الجهاد والقتال، ص ١٤٧٥.

(٣) النووي، شرح صحيح مسلم (٤١٩/٧).

(٤) ابن القيم، زاد المعاد (٣٠٦/٣).

إذ المفهوم من الآية الكريمة إمكانية عودة حالة الحرب مع العدو المعاهد بعد انتهاء مدتها، وتسبق الحرب النفسية حالة الحرب الفعلية في كثير من الأحيان .

ب- إذا نقض العدو المعاهدة مع المسلمين، ولو كان شرطاً واحداً منها، يجوز للمسلمين شن الحرب عليهم، نفسية أو غيرها بهدف إظهار الرفض لفعله و معاقبته على ذلك، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ [التوبة: ٤].

ج- وقوله تعالى في نفس الآية: (ولم يظاهروا عليكم أحداً) حالة أخرى تميز محاربة العدو المعاهد، وذلك بمظاهرة هذا المعاهد لدولة أخرى كافرة في حربها ضد المسلمين وهذه (المظاهرة) أبرزها أعمال دعائية أو إشاعات يقصد منها تعزيز قوة العدو .

د- ويشرع قتال المعاهدين، ولكن بعد النبذ إليهم، أي: إنذارهم باعتبار المعاهدة لاغية بعد ظهور دلائل على أن هؤلاء المعاهدين يدبرون المؤامرات ويخططون للخيانة وهي حرب نفسية تزعزع المعنويات، قال تعالى: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَائِضِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

والتي يقول فيها القرطبي: (النبذ : الرمي والرفض ... والمعنى : وإما تخافنَّ من قوم بينك وبينهم عهد - خيانة - فانبذ إليهم العهد، أي قل لهم : قد نبذت إليكم عهدكم وأنا مقاتلكم ليعلموا ذلك فيكونوا معك في العلم سواء ...)^(١).

ويتضح من مجمل الأدلة في الحالات الأربعة المذكورة أن العلاقات مع العدو المعاهد تتابها الكثير من المناورات السياسية التي تدخل في إطار حرب نفسية مع الخصم .

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣٢ / ٨) .

سابعاً: حرمة استهداف دولة العدو ما دامت ملتزمة بأداء شرط الجزية للمسلمين:

قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُم وَلَا تَعْسَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْسَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠).

والتي قال المفسرون في تفسيرها: (والعدوان يكون بتجاوز المحاربين المعتدين إلى غير المحاربين من الأمنين المسلمين الذين لا يشكلون خطراً على الدعوة الإسلامية ولا على الجماعة المسلمة، كالنساء والأطفال والشيوخ والعباد المنقطعين للعبادة من أهل كل ملة ودين، كما يكون بتجاوز آداب القتال التي شرعها الإسلام، ووضع بها حداً للشناعات التي عرفتها الحروب الجاهلية الغابرة والحاضرة على السواء، تلك الشناعات التي ينفر منها حس الإسلام، وتأبأها تقوى الإسلام) (١).

وإن نقض العهود والمواثيق حتى إذا كانت مع العدو هو عدوان ما دام هو ملتزماً بالشروط وهذا مما يعد خرقاً في سياسة البلد وتشويهاً للاتفاقيات بين الدول.

وقال أهل العلم: (ولا يجوز أن يعاد جهادهم ما كانوا مقيمين على بذل المال لاستقرار المودعة عليه، وإذا دخل أحدهم إلى دار الإسلام كان له بعقد المودعة الأمان على نفسه وماله، فإن منعوا المال زالت المودعة، وارتفع الأمان، ولزم جهادهم كغيرهم من أهل الحرب) (٢).

وبهذا يتضح عدم جواز محاربة العدو الملتزم بهذا العقد السياسي ما دام لم يخرج عن الوفاء به، وقد رجح بعض العلماء الرأي القائل: إن الجزية (تنظيم حربي سياسي) ولهذا فعدم الالتزام به من جانب المسلمين يعد مناورة سياسية غير محمودة (٣).

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن (٢/ ١٨٨).

(٢) الفراء، الأحكام السلطانية، ص ٣٢. وينظر: الماوردي الأحكام السلطانية، ص ٥١.

(٣) ينظر: د. وهبة الزحيلي، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، ص ١٧٥.

ثامناً: حكم الإسلام في المعارضة السياسية :

أجاز الإسلام التعامل بمفهوم المعارضة السياسية لسلطة الدولة أو سياسة الحاكم ما دامت تصب في الصالح العام للمجتمع، وكفل للمعارضين لسياسة الدولة حرية الاعتراض ونقد قرارات السلطة ومناقشتها علناً حتى يتبين الحق من الباطل والصواب من الخطأ

و قد أتضح هذا المنهج على أشده في معارضة بعض الصحابة - رضي الله عنهم - لبعض بنود صلح الحديبية وعلى رأسهم : عمر بن الخطاب وأُسيد بن حضير - سيد الأوس - وسعد بن عباد - سيد الخزرج - رضي الله عنهم ...، فقد قال عمر بن الخطاب ﷺ لرسول الله ﷺ : أأنت رسول الله؟ قال : (بلى)، قال : أولسنا بالمسلمين؟ قال : (بلى)، قال : أوليسوا بالمشركين؟ قال : (بلى)، قال : فعلام نعطي الدين في ديننا؟ قال : (أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يضيعني) ... قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال : (بلى، فأخبرتكم أنا نأتيه العام؟)، قلت : لا، قال : (فإنك آتية و مطوف به).^(١)

ثم تجددت هذه المعارضة السياسية في الصلح نفسه عندما أعاد رسول الله ﷺ أبا جندل إلى المشركين عملاً ببنود الاتفاق، فناقش رسول الله ﷺ المعارضين بحكمة حتى أقنعهم^(٢). (وبهذا يتبين أن رسول الله ﷺ وضع قاعدة احترام المعارضة النزوية حيث قرر ذلك بقوله وفعله وهو - والله أعلم - إنما أراد بهذا الفعل إرشاد القادة من بعده إلى إحترام المعارضة النزوية التي تصدر من أتباعهم، وذلك بتشجيع الأتباع إبداء الآراء السليمة التي تخدم المصلحة العامة)^(٣).

(١) الطبري، تاريخ الطبري (٢ / ٦٣٤).

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (٣ / ٣٤٦).

(٣) الدكتور علي محمد الصلاحي، السيرة النبوية، ص ٦٧٩.

ويستنتج العلماء من هذه الحادثة أموراً هي :

أ- إن حرية الرأي مكفولة في المجتمع الإسلامي .

ب- حق المسلم في نقد السياسة العامة وسياسة ولي الأمر .

ج- شيوع جو الأمن والأمان في ظل التفاهم مع المعارضة السياسية .

د- حرمة معاقبة المعارضين وإرهابهم .

هـ- إن المعارضة السياسية المراعية لمصلحة الأمة ليست جريمة تدفع بأصحابها إلى السجن .^(١) ولا شك أن في إبقاء الأبواب مفتوحة بين السلطة والمعارضة السياسية تقوية لتماسك المجتمع و معنوياته مما يشكل درعاً واقياً أمام أي حرب نفسية محتملة قد يوجهها العدو فتمنع استهدافهم أو استمالتهم أو تأثرهم بسياسة العدو وأفكاره .

تاسعاً: جواز أن يطلب المسلمون ابتداءً عقد الهدنة مع العدو وأن يدخل فيها أطراف أخرى كمؤيدين (معاهدة مفتوحة) أو كوسطاء بين المسلمين وعدوهم ومن الصور الفقهية في هذه المسألة :

أ - جواز بدء المسلمين بطلب الصلح في الحديبية إذا تحققت مصلحة لهم بذلك ولا يتوقف ذلك على ابتداء المشركين بطلب الصلح^(٢) .

ب- أجازت الشريعة حكم كون المعاهدة مفتوحة لمن أحب أن يدخل فيها في طرف المسلمين أو في طرف العدو من الدول الأخرى، وقد دخلت خزاعة مع المسلمين و قبيلة بني بكر مع المشركين^(٣) .

(١) ينظر للمزيد : الصلابي، السيرة النبوية، مصدر السابق، ص ٦٨٠ .

(٢) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٣٠٦) .

(٣) د . علي الصلابي، السيرة النبوية، ص ٦٧٦ .

ج - أباحت الشريعة أن تكون المعاهدة بين المسلمين و خصمهم بحضور طرف وسيط محايد ليس له علاقة بالنزاع القائم وقد حدث هذا في صلح الحديبية - أيضاً - حين أرسلت قريش (الحُليّس بن علقمة أو ابن زبان) سيد الأحابيش وقد امتاز بهذه الصفات^(١).

وموقع ذلك في الحرب النفسية من زاوية النظر السياسية يتجلى في أن كسب الأطراف المؤيدة أو المفاوضة في المعاهدة أمر مهم يخضع لتطورات الصراع مع العدو فكسب طرف مؤيد يزعزع معنويات العدو وطلب عقد الصلح مع العدو بتحقيق مصلحة راجحة يصيب العدو بالإحراج ويقلل لديه الاندفاع والمعنويات .

د - أجازت الشريعة الإسلامية حكم عقد المعاهدات الحديثة مع غير المسلمين إذا كان فيها مصلحة للمسلمين و عدم مخالفة ثوابتهم الشرعية، ولو تم ذلك بتحقيق مصلحة جزئية لهم، قال تعالى : ﴿ لَا يَتَّهَكُوهُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨].

والتي قال فيها الفقهاء : (فمفهوم الآية الكريمة أن أساس العلاقة بين الدولة الإسلامية وغيرها يقوم على ركنين : الركن الأول : عدم المحاربة للإسلام ودولته وهذا مستنبط من قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ ﴾ . الركن الثاني : إطلاق الحرية الدينية وعدم فتنة من أسلم فيها وهذا مستنبط من قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾)^(٢).

عاشراً: المناورات السياسية في صلح الحديبية و جواز التأثير في وفود العدو ورساله:

ظهرت براعة الرسول ﷺ السياسية في عرضه الصلح بينه وبين المشركين في الحديبية فحقق فوائد سياسية أخرى هي :

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/ ٣٤٤) .

(٢) الدكتور عمار عبد الله ناصح علوان، مقصدية الدعوة في الجهاد وأحكامه، ص ٥٢ .

أ- ضمان حياد قريش و عزلها عن صراعه مع اليهود أو غيرهم في الجزيرة العربية، فخسرت جهة العدو بذلك طرفاً قوياً .

ب- عدم إغلاق باب الاتصال مع قريش إذ يسمعون الإسلام و أحكامه عن طريق الرسل والسفارات والتجارة وغيرها .

ج- تقوية علاقات المسلمين بحلفائهم من خزاعة و زيادة ثقتهم بقوة المسلمين، حيث كان أول مفاوضات بين الطرفين : (بُذيل بن ورقاء الخزاعي) الذي عكس قوة المسلمين لقريش^(١) .

و يلاحظ في مجموعها أحكاماً فقهية تخدم المسلمين في حربهم النفسية ضد العدو وتجعل لهم حنكة سياسية بناءة .

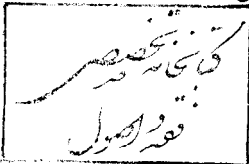
و كان المفاوضات الآخر (عروة بن مسعود) الذي استخدم الإشاعة في عكس قوة قريش للمسلمين ففشلت حربه النفسية حين رأى التفاف المسلمين حول الرسول ﷺ فقال لقريش حين عاد إليهم : (والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط أطوع فيمن هو بين ظهرائه من محمد وأصحابه، والله ما يشدون إليه النظر، وما يرفعون عنده الصوت وما يكفيه إلا أن يشير إلى أمر فيفعل ...)^(٢) .

ويتضح من كلامه أن تلاحم المسلمين و وحدة صفهم أوقعت فيه تأثيراً نفسياً كبيراً .

فبعثت قريش مفاوضاً ثالثاً هو (الحُليّس بن علقمة أو ابن زيان) فأمر رسول الله ﷺ بأن يرسل الهدي في وجهه لأنه كان من قوم يعظمون الشعائر فعرف أن المسلمين

(١) ينظر : محمد أحمد باشميل، صلح الحديبية، دار الفكر، ١٩٧٣، ط ٣، ص ٤٥ .

(٢) الواقدي، المغازي (٢/ ٥٩٨) .



جاؤوا لتعظيم بيت الله لا للحرب، فرجع محتجاً على قريش ومؤيداً للمسلمين فعارضته قريش حتى أوشك الحلف السياسي بينهما أن ينهار^(١).

كما اتضحت المناورة السياسية في إرسال رسول الله ﷺ لعثمان بن عفان ؓ مفاوضاً لقريش وهو أبعد ما يكون من وقوع أذاهم عليه لوجود رجال من عشيرته يحمونه، فأجاره أحدهم حتى بلغ رسالته إليهم، وعرض المشركون على عثمان الطواف بالبيت فرفض أن يفعل ذلك و رسول الله ﷺ محروم منه، وبذلك تتجلى حكمة رسول الله السياسية في اختيار أكفأ رسله لمخاطبة العدو^(٢).

حادي عشر: حكم أخذ الرهائن من العدو أو تسليم بعض المسلمين رهناً إلى العدو :

يعرف الرهن في الفقه الإسلامي بأنه : أشخاص تُسلّمهم دولتهم إلى من يعقدون معهم معاهدة من المعاهدات، من الطرفين أو أحدهما، والمقصود رهائن بشرية ضماناً للوفاء بالمعاهدة، على أن يعادوا إلى دولتهم بعد انتهاء مدة المعاهدة^(٣).

وفي هذا الموضوع حالات وأحكام هي :

١- كراهة أن تسلم دولة المسلمين رهناً بشرياً إلى العدو، لقول الفقهاء : (وإذا طلب المشركون في المودعة أن نعطيهم رهناً من رجال المسلمين على أن يعطوا من رجالهم رهناً مثل ذلك، فهذا مكروه، لا ينبغي للمسلمين أن يجيبوهم إليه بدون تحقق الضرورة، لأنهم غير مأمونين على رجال المسلمين، و الظاهر أن مخالفتهم في الاعتقاد تحملهم على قتلهم ...)^(٤).

(١) الواقدي، المغازي (٢/ ٦٠٠).

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/ ٣٤٤).

(٣) ينظر : د. محمد خير هيكل، الجهاد والقتال، مصدر سابق، ص ١٥٩١.

(٤) السرخسي، شرح السير الكبير (٥/ ١٧٥٠).

٢- يجوز ذلك إذا كانت للكفار شوكة شديدة وفي فعل ذلك إنقاذ لباقي المسلمين :
(لا بأس بإكراه الرهن على ذلك، لما فيه من المنفعة لعامة المسلمين وفي الامتناع من
هذا الصلح خوف الهلاك لجماعة المسلمين، وفي الإقدام عليه دفع هذا الخوف عن
جماعة المسلمين ...)^(١).

٣- يجوز لدولة المسلمين أن تشترط على العدو أخذ رهائن بشرية من أجل حملهم
على الوفاء بالمعاهدة لقوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظُ عَلَيْهِمْ
وَمَا أُوتِهُمُ جَهَنَّمُ وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ ﴾ [التوبة: ٧٣]. والتي قال فيها القرطبي : (قوله تعالى :
- و اغلظ عليهم - الغلظ : نقيض الرأفة، وهي شدة القلب على إحلال الأمر
بصاحبه وليس ذلك باللسان، ومعنى الغلظ : خشونة الجانب ...)^(٢). ولا شك أن
اشتراط أخذ رهائن من العدو يحمل الكثير من الصفات أعلاه، إضافة إلى أنه مناوره
سياسية تحقق غرضها في أعمال الحرب النفسية .

٤- يحرم قتل رهائن العدو إذا لم تلتزم دولتهم بالمعاهدة، قال أبو عبيد: (وقال
الأوزاعي في مثل ذلك: لا تقتل الرهن بغدرهم) أي إذا غدر قومهم من أهل
الحرب.^(٣) واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِمْلِهَا لَا يَحْمِلْ
مِنْهُ سَوِيًّا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَرَكَنَّ فَاِنَّمَّا
يَعَزَّزْكَ لِنَفْسِكَ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [فاطر: ١٨].

ويقول الفقهاء: (إن غدر المشركون وقتلوا الرهن فليس يحل للمسلمين أن يقتلوا
ما في أيديهم من رهن ولا أن يسترقوهم، لأنهم كانوا آمنين عندنا فلا يبطل حكم

(١) السرخسي، شرح السير الكبير (٤/ ١٦٦٣).

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مجلد ٤، (١٠/ ٥٣٠).

(٣) أبو عبيد، الأموال، ص ٧٦.

أمانهم بغدر المشركين ...) .^(١)

ثاني عشر: يجوز استمالة رؤوساء الخصوم بالمناصب السياسية :

جوزت الشريعة حكم استمالة المؤثرين من الخصوم وقادتهم بمنحهم مناصب سياسية أو بإبقائهم على مناصبهم التي كانوا عليها أو بمنحهم العطايا.
وفي السنة نجد شواهد لذلك :

أ - إن رسول الله ﷺ اتخذ طرقاً عدة لترغيب قادة المشركين للدخول في الإسلام، وفي مقدمتها تعهده بإبقاء رؤساء البلاد المحاربة في السلطة إذا دخلوا في الإسلام، كما في كتابه ﷺ إلى ملك عمان وأخيه، وفيه : (... أسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً، و يحق القول على الكافرين، فإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقرّا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما، وخيلي تحلُّ بساحتكما وتظهر نبؤتي على ملككما).^(٢)

ب - ومن طرقه ﷺ لاستمالة الخصوم تعهده بحفظ المكانة لمن يتمتع بالقدرات والإمكانات والمواهب، كما حدث ذلك في إسلام خالد بن الوليد ؓ وقد كتب أخوه إليه رسالة يقول له فيها : (بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام، وقلة عقلك، أو مثل الإسلام يجهله أحد ؟ قد سألتني عنك رسول الله ﷺ فقال : أين خالد ؟ فقلت : يأتي الله به ! فقال : ما مثله يجهل الإسلام، و لو كان يجعل نكايته مع المسلمين على المشركين كان خيراً له، ولقد مناه على غيره ! فاستدرك يا أخي ما فاتك فقد فاتتك مواطن صالحة) ... ويقول خالد معلّقاً : فلما جاءني كتابه نشطت للخروج وزادني رغبة في الإسلام، وسرّرتني مقالة

(١) السرخسي، شرح السير الكبير (٤/ ١٦٦٤).

(٢) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٦٩٣).

رسول الله ﷺ. (١)

ج - كما إن رسول الله ﷺ سعى في سياسته لاستمالة أهل الحرب للدخول في الإسلام ببذل الأموال، باعتبار ذلك أسلوباً مؤثراً في الحرب النفسية : فقد جاء في صحيح مسلم:

(عن أنس بن مالك قال : ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، قال : فجاء رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم، أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء لا يخشى الفاقة ... فقال أنس : إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها) . (٢)

ثالث عشر: حكم التلويح السياسي باستخدام أسلحة الدمار الشامل :

يجوز التلويح سياسياً باستخدام أسلحة الدمار الشامل، لجواز استخدامها الفعلي عند كثير من الفقهاء، فالتلويح بها أولى .

قال تعالى : ﴿ وَنَبِّئُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٣].

يقول صاحب الظلال: (والجهاد ماض إلى يوم القيامة، ففي كل يوم تقوم قوة ظالمة تصد الناس عن الدين، و تحول بينهم وبين سماع الدعوة إلى الله والاستجابة لها عند الاقتناع، والاحتفاظ بها في أمان، والجماعة المسلمة مكلفة في كل حين أن تحطم هذه القوة الظالمة وتطلق الناس أحراراً من قهرها، يستمعون ويختارون ويبتدون إلى الله). (٣)

(١) ابن حجر، الإصابة، ج ٣/ ٦٠٣، رقم ٩١٥٣ .

(٢) صحيح مسلم، (٤/ ١٨٠٦) برقم ٢٣١٢ .

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، مجلد ١، (٢/ ١٩٠) .

وقد جوز الفقهاء استخدام كل الأسلحة و الوسائل الحربية لكسب الصراع مع العدو مادام أنه لم يستسلم سواء كانت هذه الأسلحة معتادة كالسيف والرمح أو غير معتادة كالمنجنيق والإغراق بالماء أو التحريق أو قطع المزروعات أو إفساد المياه وغيرها من وسائل يقصد بها تحطيم معنويات العدو وهزيمته، ولا خلاف عند الجمهور في جواز استخدامها كلها^(١).

فيقول الإمام النووي: (يجوز حصار الكفار في البلاد والقلاع وإرسال الماء عليهم ورميهم بنار ومنجنيق وتبيتهم في غفلة)^(٢).

وقاس الفقهاء المعاصرون على تلك الحالة مسألة استخدام أسلحة الدمار الشامل، فقالوا: (الأصل هو جواز قتال العدو وقتله بكل سلاح مادام ذلك في حالة الحرب قبل استسلامه أو إلقاء القبض عليه، وذلك لأن النصوص الشرعية لم تحدد آلة أو وسيلة حربية معينة لاستخدامها ضد العدو فيما نحن فيه ...)^(٣).

ثم يقول: (يجوز استخدام الأسلحة الحديثة كالقنبلة الذرية ونحوها وأن كانت تحتوي على طاقات تدميرية تختلف في طبيعتها وفي مداها عن الأسلحة والوسائل الحربية القديمة نظراً لعموم النصوص الشرعية وإطلاقها، ولا سيما أن الدول اليوم تضع هذه الأسلحة الحديثة قيد الخدمة الحربية كلما اقتضى الأمر، مهما تبجحت في إنكار ذلك ومهما ارتبطت بمعاهدات تحرم عليها استخدامها وذلك حين ترى أن من مصلحتها اللجوء إليها لحسم الموقف مع العدو إلى جانبها)^(٤).

(١) ينظر: الأم، للشافعي (٢/٤٤٣)، الشريبي ومغني المحتاج (٤/٢٢٣)، ابن قدامة المغني (١٠/٥٠٢).

(٢) الشريبي، مغني المحتاج (٤/٢٢٣).

(٣) د. محمد خير هيكل، الجهاد والقتال، مصدر سابق، ص ١٣٤٩.

(٤) المصدر السابق، ص ١٣٥٣.

ويتضح مما تقدم أن استخدام هذه الأسلحة مشروع عند توفر المصلحة في ذلك، ولهذا فالتلويح سياسياً أو تهديد العدو باستخدامها يجوز من باب أولى، لما له من أثر بالغ في إرهاب العدو وزعزعة معنوياته أو في التصدي لحربه النفسية .

رابع عشر: رسل الطرفين وحكم التعامل معهم :

ذهب أكثر أهل العلم إلى أن الرسل القادمين يحملون رسائل من الكفار إلى المسلمين لا يجوز قتلهم، لأنهم إنما يأتون بأخبار الكفار وما يتعلق بذلك من أمور الحرب فيتم معرفة مقاصد العدو ثم اتخاذ القرار المناسب بناءً على وفادة هؤلاء ولهذا لا يجوز قتلهم^(١).

واستدلوا بذلك من السنة بما يلي :

أ- أخرج أبو داود و البيهقي عن سلمة بن نعيم بن مسعود عن أبيه، قال : سمعتُ رسول الله ﷺ حين جاءه رسولا مسيلمة الكذاب بكتابه، ورسول الله ﷺ يقول لهما : (وأنتما تقولان مثلما يقول ؟)، فقالا : نعم، فقال : (أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما)^(٢).

ب- وفي السنة-أيضاً- أخرج البيهقي عن عبد الله بن مسعود ؓ قال : (مضت السنة أن لا تقتل الرسل)^(٣).

وذكر أهل العلم : (و يجوز عقد الأمان للرسول لأن النبي ﷺ كان يؤمن رسل المشركين ولما جاء رسولا مسيلمة قال لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكما، ولأن الحاجة

(١) ينظر : ابن حزم، المحلى (٣٠٦/٧) والنووي المذهب (٢/٢٣٤).

(٢) أبو داود (٣/٨٣)، والبيهقي (٩/٢١١).

(٣) البيهقي (٩/٢١٢).

تدعو إلى ذلك، فإننا لو قتلنا رسلهم لقتلوا رسلنا فتفوت مصلحة المراسلة^(١).

وكان رسول الله ﷺ يشتد غيظه إذا قتل الأعداء أحد رسله فقد بعث الحارث بن عمير الأزدي إلى ملك بصرى بكتاب، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فقتله فاشتد ذلك عليه وكان ذلك هو السبب في غزوة مؤتة^(٢).

ولا شك أن في طرق وصور التعامل مع هؤلاء الكثير من معاني الحرب النفسية في مجالات التأثير والتأثر ولهذا ندبت أحكام الفقه الإسلامي في مجال السياسة أن يكون رسول المسلمين إلى الكفار متمتعاً بالشجاعة والأمانة والذكاء وغيرها من الصفات الإيجابية التي تدفعه لتأدية مهمته بنجاح وليكون بذاته حرباً على العدو وفي تعامله معهم بما يتمتع من صفات، قال تعالى على لسان ابنة الرجل الصالح: ﴿قَالَتْ إِحْدَهُمَا يَخَافُ أَنْ أَتَجَرَّهٖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرَ الْفَوَّ الْآمِنُ﴾ [الفصص: ٢٦].

ويقول الفقهاء: (واعلم أن الرسول يكشف حالة مرسله لأنه نموذج شجاعته وإقدامه و ترجمان عقله و فهمه و امرأة صفات كماله مطلقاً، فرب رسول أزال هيبة مرسله من قلب عدوه بما شاهد من خوره وجبهه ودمامة منظره ولكنة لسانه)^(٣).

و ندب أهل العلم في هذا إلى سُنَّة تغيير الرسل والسفراء إلى العدو بين فترة وأخرى لاحتمال غواية هذا الرسول من قبل العدو أو اندفاعه إلى مجاملة العدو في بعض آرائه ومعتقداته، فقالوا: (وينبغي أن لا يرسل رسولاً إلى عدو مراراً متوالية فربما حصل للرسول من المرسل إليه مؤانسة وإحسان، فكم من دولة كان سبب زوالها خيانة رسولها واستمالة قلبه ... اللهم إلا أن يكون الرسول ممن يثق به ثقة لا

(١) ابن قدامة، المغني (٩/ ٢٤٤).

(٢) ينظر: ابن حجر فتح الباري (٧/ ٥١١)، وطبقات ابن سعد (٢/ ١٢٨).

(٣) ابن النحاس، مصارع العشاق، ص ١٠٧٢.

يدخلها شك ولا ارتياب).^(١)

وبهذا نقف على أن حالات التعامل مع الرسل والسفراء فيها الكثير من صور الحرب النفسية المتبادلة .

خامس عشر: حكم التمثيل الدبلوماسي والعلاقات الدبلوماسية بين المسلمين وغيرهم^(٢):

أجازت الشريعة الإسلامية حكم التعامل السياسي مع غير المسلمين سواء كان عدواً أم معاهداً وفي حالات الحرب أو السلم، بما يعرف اليوم بالعلاقات الدبلوماسية، يقول العلماء : (فكل ما نعرفه عن سيرة الرسول - عليه الصلاة والسلام - وخلفائه من بعده هو أنهم كانوا يقرون بوجود العلاقات مع غير المسلمين من أجل أغراض القتال كالمفاوضات وعقود الصلح ونحو ذلك عن طريق تبادل الرسل والسفراء الذين قرر الإسلام حمايتهم المطلقة، بل أجاز الفقهاء دخولهم إلى وطن الإسلام بدون عقد أمان هم وصحبهم وأمتعتهم)^(٣).

ويفهم من مجموع ما طرحه الفقهاء في هذه المسألة : أن التمثيل والعلاقات الدبلوماسية تحقق فائدة للمسلمين في :

أ- بأنها تمكن من خدمة المقاصد الدينية الإسلامية بإمداد الشعوب ما تحتاجه من

(١) ابن النحاس، مصارع العشاق، ١٠٧٢ .

(٢) الدبلوماسية : هي أداة تنظيم العلاقات الدولية حيث تعمل على حفظ التوازن الدولي وتوطيد السلام والأمن بين الدول والتمثيل الدبلوماسي : هو نظام إحلال السفارات المستحكمة بين الدول محل نظام السفارات المؤقتة الذي كان متبعاً إلى ذلك الحين . (ينظر : د . وهبة الزحيلي، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، مصدر سابق، ص ٣٢٧ وما بعدها)

(٣) د . وهبة الزحيلي، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، ص ٣٢٨ .

المعلومات عن الإسلام .

ب- تدعيم العلاقات السلمية بين مختلف الشعوب لتسهيل عملية تبادل المنافع الاقتصادية والاجتماعية وانتفاع كل أمة بما لدى الأخرى من معلومات وثقافات .

ج- إبقاء خطوط الاتصال مستمرة مع العدو والمؤدية إلى إعلان المعاهدات أو الهدنة أو تبادل الأسرى و التحقق من معاملة الأسرى أو القيام بالتجسس وغير ذلك^(١).

وتنشط أثناء العمل الدبلوماسي بعض الأعمال من المناورات السياسية وغيرها التي تخدم المسلمين : (فلا يمكن - مثلاً - أن نساوي العلاقة الدبلوماسية بين الدول التي تضطهد فيها الحرية فتغلق فيها المساجد والكنائس بباقي الدول التي تعطي الحرية الدينية في علاقاتها مع الدولة الإسلامية بذريعة عدم الاعتداء علينا)^(٢). وبهذا يتبين ما في المجال الدبلوماسي من طرق تخفيف وطأة الحرب النفسية المعادية وما يمكن أن تستغل فيها دعاية المسلمين وحرهم النفسية مع العدو .

سادس عشر: إباحة الاستفادة من أعراف الجاهلية في العمل السياسي إذا لم يكن في ذلك مفسدة للمسلمين :

قال تعالى : ﴿ خُذِ الْعَقْلَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

والتي قال القرطبي في تفسيرها : (قوله : « وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ » أي المعروف، والعُرْف والمعروف والعارفة : كل خصلة حسنة ترتضيها العقول وتطمئن إليها النفوس)^(٣).

(١) ينظر: د. وهبة الزحيلي، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، ص ٣٢٩ - ٣٣٠.

(٢) د. عمار عبد الله ناصح علوان، مقصدية الدعوة إلى الجهاد، ص ٥٣.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مجلد ٤ (٩ / ٢٩٨).

ومن هذه الأعراف ما شاع في أمر طلب الجوار من المشرك القوي لتحقيق مصلحة أعلى أهمها : حفظ النفس وحرية الدعوة ، (فإذا دخل الضعيف في جوار القوي يتمتع بحمايته التامة ويمنع أي اعتداء عليه ويعطيه حرية التحرك والتفكير ولا يستطيع العدو أن ينال من هذا المستجير ولو تم ذلك فإن هذا يعني أن حرباً تقع بين الفريقين ...)^(١)

وفي السنة أن وفود المشركين سارت إلى أبي طالب عم النبي ﷺ طالبة منه رفع حمايته وإجارته له مرات عدة فقوانين وأعراف القبيلة آنذاك كانت تمنع محاربة المستجير، فلما سمع أبو طالب رد رسول الله ﷺ : (يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته ...)، قال له : (اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً...)^(٢) . فتأكد بهذا الفعل توجيه نوع من الحرب النفسية إلى صدور المشركين .

ومنها أن أبا بكر الصديق ؓ قال لأبن الدغنة - وهو مشرك - : أخرجني قومي ، فأريد أن أسبح في الأرض وأعبد ربي ، فقال ابن الدغنة : إن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يُخرج ، إنك تكسب المعدوم وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فأنا لك جار ...^(٣)

وقد اتخذ رسول الله ﷺ من أعراف الجاهلية في إجارة الضعيف سبيلاً للتأثير في المشركين ودعوتهم للإسلام .

ومنها : أن أم هانيء بنت أبي طالب أجارت اثنين من المشركين ، في فتح مكة وقد

(١) منير محمد الغضبان، المنهج الحركي للسيرة النبوية، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٤، ط١، ص ٦٩ .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢٨٤ - ٢٨٥) .

(٣) ينظر : ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ٩٥) .

طلباً منها ذلك، فأجارتها من القتل و أغلقت عليهما الباب حتى ذهبت لرسول الله ﷺ فحكّت له الخبر، فقال لها رسول الله - عليه الصلاة والسلام - : قد أجرنا من أجرٍ و أماناً من أمانتٍ ...^(١)

وبهذا يتضح إن عُرف إجارة الضعيف خصلة تؤدي إلى خير ومعروف وهي غيرها من الصفات يجوز العمل بها لتحقيق غرض دعوي أو سياسي أو غير ذلك ...

المطلب الثالث : أحكام فقهية عامة في الحرب النفسية

أوضحنا في المطالب السابقة من هذا الفصل الأحكام الفقهية المتعلقة بأساليب الحرب النفسية : الدعاية، الإشاعة، الحرب الاقتصادية، المناورات السياسية كونها تمثل أبرز الأساليب التي تعمل من خلالها هذه الحرب .

إلا أننا لمسنا في أدلتنا الشرعية : الكتاب والسنة، ثم آراء الفقهاء الكثير من الأحكام المتعلقة بحالات هذه الحرب، مما لا يمكن إخضاعها لأي أسلوب من هذه الأساليب التي تكلمنا عنها، فهي أحكام عامة يمكن استخدامها في عموم وسائل وأساليب الحرب النفسية في حالتي الهجوم والدفاع، ولهذا أردنا لها هذا المطلب لتحديدتها ضمن إطارها العام في محاولة لتقديم صورة كاملة عن كل ما يتعلق بالحرب النفسية من أحكام فقهية، ومنها :

أولاً: حكم النية في الحرب النفسية :

النية واجبة في كل عبادات المسلم، والجهاد منها، فما كان منه لوجه الله تعالى قبل وما كان لغير هذه الوجهة رُدَّ ورفض^(٢). وقد تبين لنا أن الحرب النفسية في حالة شنها

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٤/ ٥٩ - ٦٠).

(٢) ينظر : ابن النحاس، مشارع الأشواق، مصدر سابق، ص ٥٩٢ وما بعدها.

على العدو أو في حالة التصدي لها جزء من الجهاد، فالنية واجبة فيها كوجوبها في عموم الجهاد. ^(١) ومن أدلة ذلك:

أ - في القرآن: قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ٥﴾ [البينة: ٥].

ب - في السنة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنها الأعمال بالنيات وإنها لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) ^(٢).

ج - قال بعض أهل العلم: (ومنهم من يحمله على الجهاد غير الإسلام والحرص على إعلاء كلمة الله تعالى وإعزازها، وإذلال كلمة الكفر وأهلها، وهاتان النيتان لا شك في صحتهما ولا ريب في الفوز عند الله بهما ...). ^(٣)

ثانياً: وجوب كون الحرب النفسية لإعلاء كلمة الله تعالى، ومن أدلة ذلك:

أ - قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَجْرَرٍ تُجْرِكُونَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ١٠ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَيَسْكِنُونَ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ١٢﴾ [الصف: ١٠-١٢].

ب - وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل ليذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) ^(٤).

(١) راجع: مشروعية الحرب النفسية من هذه الرسالة

(٢) أخرجه البخاري (٢/١) برقم ١، ومسلم (٤٨/٦) برقم ١٩٠٧.

(٣) ابن النحاس، مشارع الأشواق، مصدر سابق، ص ٦١٣.

(٤) أخرجه مسلم، في باب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله،

(٣/١٥١٢)، رقم ١٩٠٤، بلفظه.

ج- وجاء في كلام الفقهاء: (وإذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد، ومقصوده أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، فمن منع هذا قوتل باتفاق المسلمين)^(١).

و نقول : إذا كانت الحرب النفسية تدخل في معاني الجهاد كما ثبت ذلك في القرآن والسنة، فقد وجب فيها صلاح النية و خلوصها لوجه الله تعالى لا لمقصد سواه، وهنا ينبغي تنبيه جميع من يعمل من المسلمين لكسب الصراع مع أعداء الإسلام عن طريق أساليب الحرب النفسية أن لا يفعل ذلك من أجل شهوة أو مال أو هواية وغيرها لاحتمال فقدان الأجر والثواب على ذلك .

ثالثاً : حرمة الاعتداء على النساء للتأثير على معنويات العدو :

و قد يحدث ذلك حين يتخاذل أحد المقاتلين فيعمد إلى نساء الدولة الخصم في النزاع العسكري، فيقوم بالزنا بها، تحت تأثير الإكراه مما يسمى بجريمة: الاغتصاب^(٢).

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢].

و استدل منها الفقهاء على حكم حد الرجل المحصن بالرجم وغير المحصن بالجلد مائة جلدة، أما المرأة فليس عليها شيء في هذه الحالة كونها مستكرهة على هذا الفعل، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ الْفَوَاحِشُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْإِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِنَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النور: ٣٣].

(١) ابن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ص ١٠٦ .

(٢) ينظر : الدكتور خالد رمزي البزايعة، جرائم الحرب في الفقه الإسلامي والقانون الدولي، ص ١٧٣ .

وقوله ﷺ : «إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» ^(١). هذا إذا كان الرجل من المقاتلين مختاراً لما أقدم عليه من فعل .

أما الرجل المستكره من قبل غيره على الزنا فقد رأوا رفع الحد عنه كما يرى : الإمام أبو يوسف ومحمد بن الحسن من الحنفية ^(٢). وقال به بعض الشافعية ^(٣). ورأى فقهاء المالكية رفع الحد عن الرجل المستكره ^(٤). ومما استدلووا به قولهم عن عدم إقامة الحد على الرجل المستكره على الزنا، و لأن انتشار آلة الرجل لا يدل على الرضا والقبول دائماً على رأيهم ^(٥). ولا خلاف في أن الاعتداء على النساء يأتي في إطار الحرب النفسية وفيه الكثير من الأذى الذي تأباه النفوس وقد حرّمه الإسلام لذلك.

رابعاً: حكم (الفرار من العدو) في الحرب النفسية :

و نعني بذلك تعرض المسلمين إلى ضغط قوي من دعاية أو حصار اقتصادي أو حرب إشاعات من قبل العدو، فهل تبرر هذه الحالة انسحاب المسلم من المواجهة أو التصدي لهذه الحرب الشرسة ؟ وقد ورد أصل هذه المسألة في أدلة منها :

أ - ذكر القرآن الكريم حالة التولي يوم الزحف، في قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ ءَدْبَارًا ۝١٥ وَمَنْ يُولِهِمْ ءَوْبًا فَمَا لَهُمْ ءَلًا مَتَحَرِّفًا لِّقِنَالٍ أَوْ مُتَحَرِّفًا إِلَيْنَا فَبَشِّرْهُ فَقَدْ بَاءَ بِعَضِيبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَهُ جَهَنَّمُ وَيَتَنَبَّأُ ۝١٦﴾ [الأنفال: ١٥-١٦]. ويقول القرطبي في تفسير هذه الآية : (التحرف : الزوال عن جهة

(١) أخرجه ابن ماجة، السنن، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ج ١، ص ٦٥٩، كتاب

الطلاق، باب طلاق المكره وصححه الألباني في إرواء الغليل، ج ١، ص ١٢٣ .

(٢) السرخسي، المبسوط، (٩/ ٥٨- ٥٩) .

(٣) الشيرازي، المهذب (ج ٢، ص ٢٦٧) .

(٤) ابن العربي، أحكام القرآن (٣/ ١٦٥) .

(٥) تراجع المصادر الثلاثة آنفة الذكر .

الاستواء، فالمنحرف من جانب إلى جانب لمكايد الحرب غير منهزم، وكذلك التحيز إذا نوى التحيز إلى فئة من المسلمين ليستعين بهم فيرجع إلى القتال غير منهزم أيضاً...^(١).

ب - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (اجتنبوا السبع الموبقات، قيل: يا رسول الله وما هن؟ قال : الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)^(٢). والملاحظ أن الآية الكريمة والحديث الشريف، يشخص كلُّ منهما حالة المواجهة مع العدو في الحرب المباشرة، وإن الآية القرآنية جوزت التولي من العدو بنية خداعه أو بنية الاستعانة بغيرهم على العدو، فنرى والله أعلم جواز هذا الانسحاب أو الفرار من العدو حين تصل حربه النفسية ضد المسلمين إلى مرحلة التدمير أو هلاك العقل في المفاصل أو تمكنه من إبادة المسلمين، ولنا في سحب خالد بن الوليد رضي الله عنه جيش المسلمين من العدو الروماني في معركة مؤتة، بعد أن كادوا بالمسلمين و أوشكوا على القضاء عليهم لتفوقهم بالعدد والعدة، ومدحه رسول الله ﷺ وبقية المسلمين على ذلك^(٣).

وقد سبق الحدث تهويل قوة الكفار وتفوقهم وقد كانوا كذلك فعلاً مما يؤثر في معنويات المسلمين ارتفاعاً وانخفاضاً.

خامساً: حرمة الاعتداء على دور العبادة والمستشفيات لزعة معنويات العدو :

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَلَدَّتْ صَرْعُهُمْ وَبُيعَ وَصَلَوْتُ وَمَسْجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مجلد ٤، (٣٢٩/٩).

(٢) ابن حجر، فتح الباري، رقم ٦٨٥٧، كتاب الحدود، باب رمي المحصنات (١٢/١٨١).

(٣) ينظر : ابن كثير، البداية والنهاية (٤/٢٤٧)، والواقدي المغازي (٢/٧٦٤).

مَنْ يَصْرِفْهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ [الحج: ٤٠].

والتي قال القرطبي في تفسيرها: (أي لولا هذا الدفع لهدم في زمن موسى ﷺ الكنائس وفي زمن عيسى ﷺ الصوامع والبيع أو في زمن محمد ﷺ لهدمت المساجد).^(١)

و نقل ابن جرير الطبري في تاريخه أن عمر بن الخطاب ؓ ذكر أمر المحافظة على دور العبادة لغير المسلمين في كتابه لأهل اللد، بقوله: (.... أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم و لكنائسهم و صلبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم، وأن لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ...).^(٢)

و يتضح مما ذكرنا أعلاه: أن الشريعة الإسلامية تحرم الاعتداء على دور العبادة لأي ملة كانت، سواء كان ذلك في أوقات السلم أو في أوقات الحرب. كما حرمت الشريعة الاعتداء على المستشفيات و منعه منعاً باتاً، لعله أن خطر المقاتلين قد زال فلا بأس بتركهم يعالجون ولكن لا بأس بأسر هؤلاء إذا ما نالهم الشفاء.^(٣)

و قد أورد أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه (الأموال) بسنده لرسول الله ﷺ أنه قال: (ألا لا يجهزَنَّ على جريح ولا يتبعنَّ مدبر ولا يقتلنَّ أسير)^(٤).

ورغم ما في ذلك من حصول أذى نفسي في صفوف الأعداء فقد حرّمه الإسلام لإصابته من هم خارج نطاق الحرب .

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (١٢ / ٧٠).

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧، (٢ / ٤٤٩).

(٣) ينظر: الدكتور خالد رمزي البزايعة، مصدر سابق، ص ٢٠٤.

(٤) أبو عبيد القاسم بن سلام، الأموال، ص ١١٧، طبعة الكتب العلمية، ط الأولى، ١٩٨٦، حديث

رقم ٢٠٥، باب الحكم في رقاب أهل العنوة، من الأسارى والسبي.

سادساً : حكم وجود إمام للمسلمين أو عدم وجوده في الحرب النفسية :

ولخصّ أهل العلم هذه المسألة في قولهم : يقوم الإمام بتعيين إمام أو قائد ينوب عنه في أمر الحرب وإدارة شأن الجهاد، بشرط أن يكون بصيراً بتدبير الخطط ومطلعاً على مكائد العدو ووسائله في الخديعة والعدوان، وأن يكون من أهل التقوى والصلاح والعلم، فإن كان كذلك وجب على المسلمين طاعته، فالإمام طاعته واجبة على المسلمين ما التزم الشرع^(١) .

ونرى - والله أعلم - أن الحرب النفسية التي يشنها المسلمون ضد العدو لا تخرج عن أحكام هذه الحالة لكي يكون جهاد العدو قولاً وفعلاً وحقاً لأهدافه، وهذا في حالة وجود إمام للمسلمين ينهض بأمرهم .

أما في حالة جور الإمام فقالوا : جور الإمام لا يبيح ترك مجاهدة العدو على رأي جمهور العلماء، وقال الإمام أحمد لا يعجبني الخروج مع الإمام أو القائد إذا عُرف بالهزيمة وتضييع المسلمين^(٢) .

وفي حالة عدم وجود إمام للأمة فلا يؤخر الجهاد بحال لما يجره هذا من وبال وضياح أرض المسلمين^(٣) .

وفي حالة الحرب النفسية إذا سكّت المسلمون وتلقوا ويلاتها فقد ضاعت عقيدتهم واندرست معالم أمتهم .

(١) ينظر : ابن قدامة، المغني (٨/٣٥٢)، والكاساني، البدائع (٧/٩٩)، والشافعي، الأم (٤/١٦٨).

(٢) ينظر : ابن قدامة، المغني، (١٠/٣٧١) .

(٣) ينظر : ابن قدامة المغني، (١٠/٣٧٤) .

سابعاً : حكم أصحاب الأعدار في الحرب النفسية :

عذر الله تعالى في القرآن الكريم بعض الناس ممن تعيقهم عاهاتهم أو ظروفهم عن جهاد العدو في حالة القتال المباشر، فقال تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُوثُ مَا يَنْفَقُونَ حَرْجٌ إِذَا نَصَحُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَحْدُوثَ مَا يَنْفَقُونَ ٩٢﴾ [التوبة: ٩١-٩٢].

والتي قال الطبري في تفسيرها : (ليس على الزمانة و أهل العجز عن السفر والغزو ولا على المرضى ولا على من لا يجد نفقة يتبلغ بها إلى مغزاه حرج، وهو الإثم، يقول: ليس عليهم إثم إذا نصحوا الله ولرسوله في مغيبهم عن الجهاد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (ما على المحسنين من سبيل) يقول : ليس على من أحسن، فنصح الله ورسوله في تخلفه عن رسول الله ﷺ عن الجهاد معه، لعذر يعذر به طريق يتطرق عليه ...) .^(١)

ومن الآية الكريمة وتفسيرها نتبين أن الجهاد يفترض على القادر عليه لأنه يعني بذل الجهد والطاقة و المبالغة في القتال فمن لا يملك ذلك ليس عليه أن يضطلع به، إلا أن حالات كثيرة تتم من خلال الحرب النفسية لا تقف هذه الأعذار حائلاً دون تنفيذ واجب الجهاد من خلالها، وذلك بمقاومة وبث الإشاعات و الدعاية و بقية أساليب وصور هذه الحرب . وقد ورد في ذلك شواهد في السنة النبوية منها :

أ - إن عمير بن عدي الخطمي كان زوجاً لعصماء بنت مروان التي كانت تقول شعراً في هجاء المسلمين والرسول ﷺ ومنعت دعايتها الشعرية تلك بني خطمة من اعتناق الإسلام، وكان عمير أعمى نهاها عن ذلك فلم تنته فأسرها في نفسه، فلما عاد

(١) الطبري، تفسير الطبري (١٠/ ٢١١) .

رسول الله ﷺ منتصراً من بدر جاءها عمير فوضع سيفه في صدرها حتى أخرجه من ظهرها وحضر صلاة الفجر مع المسلمين، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (إذا أحببتهم أن تنظروا إلى رجل نصر الله ورسوله بالغيب فانظروا إلى عمير بن عدي) وظهر الإسلام في بني خطمة بعد مقتلها^(١).

ويشير الحادث إلى أن هذا الرجل كان أعمى إلا أنه لم يتنازل عن دوره ليجاهد في سبيل الله .

ب - وكان عمرو بن الجموح من نقباء الأنصار وكان أعرج لم يمنعه قوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَْعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٧] ، من الخروج للجهاد فقال رسول الله ﷺ (إن الله قد عذرك) فقال : والله لأحفرن بعرجتي هذه في الجنة^(٢).

ج - أما عبد الله بن أم مكتوم فقد كان أعمى - أيضاً - فأصبح مؤذناً، وقد عذره الله من الجهاد، ولكنه خرج مع المسلمين للغزو، فقتل في القادسية^(٣).

ويتضح من هذه الشواهد ومن مفهوم الحرب النفسية أن الأعداء المذكورة كالعرج أو العمى أو الفقر أو الضعف أو غيرها قد تمتنع من القتال المباشر، أما مساهمة هؤلاء في الحرب النفسية فممكنة و لن تقف حائلاً أمام أي منهم في مقاومة هذه الحرب أو المساهمة مع بقية المسلمين في شنها .

(١) المقرئزي، إمتاع الأسماع (١/١٠١ - ١٠٢)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مجلد ٤ (١٠/٥٤٩).

(٣) للمزيد : ينظر : ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة (٥٧٦٤)، وابن سعد الطبقات الكبرى

(٤/٢٠٥)، وابن الجوزي صفة الصفوة (١/٢٣٧).

الخاتمة

خلاصة الرسالة ونتائجها

بعد توفيق الله تعالى في الانتهاء من هذه الرسالة يتوجب علينا الوقوف عند أبرز نتائجها وخلاصة ما توصل اليه الباحث فيها عبر هذه النقاط :

١- يحتل مفهوم الحرب النفسية مساحة واسعة ضمن باب الجهاد أو أحكام الحرب والسلم من دون أن تكون له نفس التسمية الحديثة .

٢- تعددت تعريفات الحرب النفسية تبعاً لتعدد زوايا النظر إليها والمقاصد التي يراد عكسها من خلالها .

٣- الحرب النفسية حرب شاملة تعتمد الاجراءات النفسية والعسكرية والسياسية والاقتصادية والإعلامية وكل ما تمتلكه الدول اليوم . وتوجه الحرب النفسية مستهدفة فكر وعقيدة الإنسان لتحطيم رغبته في المواجهة، وصولاً إلى إخضاع مجتمع العدو إلى إدارة من يشن هذه الحرب . وإن وسائل الحرب النفسية وأساليبها متعددة ومازال الباب مفتوحاً لاستحداث وسائل جديدة .

٤- استخدمت الحرب النفسية منذ أقدم الأزمنة لاجداث الرعب وإرهاب المجتمع المقابل وبوسائل بدائية مختلفة، فبرع سكان وادي الرافدين بتحطيم معنويات العدو ببناء الأسوار وبث الإشاعات والاستعراض العسكري، وبرع المصريون القدماء في أسلوب الدعاية وبث العيون والرقباء، وأشتهر أهالي الصين والهند باستخدام التشهير وشم العدو وخداعه، وعرف المغول بإثارة الرعب والمباغلة والجاسوسية .

٥- لا ينبغي الخلط بين الحرب النفسية وبين الدعاية على الرغم من استخدام الدعاية في هذا الحرب كأداة تابعة أحياناً، فالدعاية فن مستقل تهدف إلى

الإقناع والاقتناع وقد يخاطب بها الصديق والمحايد أما الحرب النفسية فهي تريد إفقاد الآخر توازنه ولا توجه إلا إلى العدو . وتهدف الحرب النفسية إلى : زعزعة قناعة العدو بقضيته، وتشكيك القاعدة الجماهيرية بقادتها، وتشجيع العدو على الاستسلام وإضعاف معنويات الخصم، وإحداث الفرقة والانقسام في صفوفه ومحاولة كسبه فكرياً وعقائدياً .

٦- إن أساليب الحرب النفسية قديمة بقدم الظاهرة إلا ما أستجد منها لتطور وسائل الإعلام، وأهمها الدعاية، الإشاعة، الحرب الاقتصادية، المناورات السياسية، غسيل الدماغ، إثارة الرعب

٧- ازدادت خطورة الحرب النفسية على مجتمعات اليوم بشكل كبير نتيجة لتقدم وسائل الاتصال وتنوع الأسلحة الحديثة المدمرة التي دفعت الإنسان للتفكير بتحقيق النصر على العدو من دون قتال مباشر . كما أن اندلاع الحرب الباردة بين الأطراف الدولية وظهور الأحلاف والتكتلات العسكرية والسياسية زاد أهمية وخطورة الحرب النفسية المعاصرة .

٨- مقاومة الحرب النفسية المعادية ضرورة أجازها الشرع الشريف والعقل وفقه الواقع لما في ذلك من حماية للأمة ومجتمع المسلمين لقوله تعالى : ﴿ وَفَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠] . وإن سبل مقاومة الحرب النفسية متعددة أهمها : التعامل بصدق مع المجتمع وعدم خداعه، والإقناع بعدالة القضية، وتوظيف وسائل الإعلام في تحقيق ذلك، كما يمكن وضع التشريعات القانونية لتحقيق هذه الغاية .

٩- ثبتت مشروعية الحرب النفسية في القرآن والسنة، ولدى أهل العلم فمن أدلة القرآن قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠] ، ومجابهة الحرب النفسية للعدو جزء من هذا

الأعداد، ومن السنة قوله - صلى الله عليه وسلم - : (... الحرب خدعة ...) البخاري (٣٠٣٠)، ويدل على استحباب خداع العدو وتعمد إرباكه وفي ذلك حرب نفسية، أما الفقهاء فقد استفاض الحديث لديهم عن تحقيق النصر على العدو من دون قتال مباشر وأكدوا على منع المخذل من حضور جيش المسلمين وحثوا على معاقبة المحرضين على المسلمين وغير ذلك من الأدلة .

١٠- إن حكم الحرب النفسية هو فرض عين على جميع الأمة في مجال التصدي لها وفرض كفاية في مجال شنّها على العدو، وتنطبق على صورها كل أحكام التكليف في الفقه الإسلامي : الوجوب، الحرمة، الكراهة، الإباحة .

١١- تجلّت الحرب النفسية ضد المسلمين في مكة بالدعاية ضد الإسلام وتشويه صورة النبي ﷺ باتهامه بالسحر والكذب والجنون وغيرها وبتعذيب المؤمنين وتهجيرهم . وجاءت آيات كثيرة من القرآن الكريم في مكة مفندة وفاضحة لحرب المشركين النفسية ضد المسلمين واتباع النبي ﷺ والمسلمون الأوائل أساليب الصبر وتحمل الأذى والإعراض والمحاججة وغيرها لمقاومة هذه الحرب . وفي المدينة ازدادت الحرب النفسية ضد المسلمين وانضم إليها اليهود والمنافقون متخذة من الإشاعات والتشكيك وإحراج الداعية بالأسئلة ثم بإثارة الأحقاد والضغائن بين المسلمين وغيرها من أساليب لمحاربة المسلمين . ورافقت الحرب النفسية في المدينة المنورة القتال المباشر واتضح فيها مهارة المسلمين بالمناورات وتحذيل معنويات العدو وبث الرعب في صفوفه وفي التورية والمباغطة وغيرها مما أثبت قدرة كبيرة لهم على خوض هذه الحرب .

١٢- من الأحكام الفقهية المتعلقة بالدعاية : وجوب صد الدعاية المعادية، وجواز استخدام التضليل والخداع معه ومعاقبة كل من يشوه سمعة الإسلام والمسلمين أو يسيء للرسول - صلى الله عليه وسلم - ومعاقبة جواسيس العدو

ووجوب إظهار التجلد والصلابة في مواجهة الخصوم .

١٣- من الأحكام الفقهية المتعلقة بالإشاعة: التثبت من مصدرها وتكذيبها على الفور، ووجوب معاقبة ناشر الإشاعة، ووجوب منع المخذل من حضور الحرب وجواز اتخاذ التدابير الوقائية لمقاومة الإشاعة .

١٤- من الأحكام الفقهية المتعلقة بالحرب الاقتصادية: وجوب الانفاق في سبيل الله وتقوية الجيش وجواز استهداف مرافق العدو الاقتصادية، وفرض الحصار الاقتصادي، وصرف أموال الزكاة على خطط الحرب النفسية ووجوب معالجة الأزمات الاقتصادية التي تعصف بالامة .

١٥- من الأحكام الفقهية المتعلقة بالمناورات السياسية : وجوب تجنب المجتمع المسلم الاستهداف السياسي المعادي وجواز افتعال الأزمات في صفوف العدو والموافقة على السلم في حالة جنوح العدو لذلك وإجازة المعارضة السياسية ما لم تضر بوحدة المجتمع، وجواز التلويح السياسي باستخدام الدمار الشامل .

المصادر

بعد القرآن الكريم

الكتب:

- ١- آثار الحرب في الفقه الإسلامي، الدكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط٤، ١٩٩٢.
- ٢- الاتصال بالجهامير والدعاية الدولية، الدكتور أحمد بدر، دار القلم، الكويت، ط١، ١٩٧٤.
- ٣- الأحكام في أصول الفقه، للإمام علي بن محمد الآمدي، تحقيق الدكتور سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٤ هجرية.
- ٤- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، الإمام علي بن محمد بن حبيب الماوردي، ضبطه وصححه: أحمد عبد السلام، بيروت، ط٣، ٢٠٠٦.
- ٥- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، للإمام محمد بن الحسين الفراء، تعليق محمد حامد الفقهي، القاهرة، ط١، ١٩٨٣.
- ٦- أحكام القرآن، للإمام أحمد بن علي الرازي الجصاص، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٦.
- ٧- أحكام القرآن، للإمام أحمد بن عبد الله المعروف بابن العربي المالكي، بعناية محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٨.
- ٨- إحياء علوم الدين، الإمام محمد بن محمد الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٦.
- ٩- الأساس في التفسير، سعيد حوى، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨٥.
- ١٠- الإسلام والتنمية الاجتماعية، الدكتور محسن عبد الحميد، دار الأنبار، بغداد، ط١، ١٩٨٩.
- ١١- الإسلام وقضايا العصر، الدكتور عائض القرني، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ٢٠٠١.
- ١٢- الإشاعة، الدكتور أحمد نوفل، دار الفرقان، الأردن، ط٤، ١٩٩٨.
- ١٣- الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار النهضة، مصر.
- ١٤- الأم، للإمام محمد بن إدريس الشافعي، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٩٧٣.
- ١٥- البداية والنهاية، عماد الدين إسماعيل بن كثير، خرّج أحاديثه: أحمد بن شعبان ومحمد بن عبيادي، مكتبة الصفا، مصر، ط١، ٢٠٠٢.

- ١٦- أبجد العلوم، صديق بن محمد القنوجي (ت ١٣٠٧)، تحقيق: عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨.
- ١٧- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، الشيخ محمد بن علي الشوكاني، تحقيق محمد سعيد البدري، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٢.
- ١٨- أساليب الحرب النفسية للكيان الصهيوني تجاه فلسطين في الضفة الغربية وقطاع غزة للفترة ١٩٦٧-١٩٧٣، عيسى محمد عيسى، رسالة ماجستير، قسم الإعلام، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٩.
- ١٩- أصول الفقه في نسيجه الجديد، الدكتور مصطفى الزلمي، شركة الخنساء للطباعة، بغداد، ط١١، ٢٠٠٠.
- ٢٠- أضواء على الحرب النفسية، جمال السيد، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢.
- ٢١- إعلام الموقعين عن رب العالمين، للإمام ابن القيم الجوزية، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٧٧.
- ٢٢- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين بن عبد الله البضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢.
- ٢٣- بين العقيدة والقيادة، اللواء الركن محمود شيت خطاب، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٧٢.
- ٢٤- تاريخ اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن جعفر اليعقوبي، تعليق: خليل المنصور، ١٤٢٥ هجرية، بلا مكان طبع.
- ٢٥- تاريخ الأمم والملوك، الإمام الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٦.
- ٢٦- تاريخ الأنبياء، الخطيب البغدادي، دراسة وتحقيق: آسيا كلبان علي البارح، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٤.
- ٢٧- التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية، محمد راكان الدغمي، دار السلام، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٦.
- ٢٨- التجسس وأحكامه في الفقه الإسلامي، عبد الجبار زين العابدين الفهداوي، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، بغداد، ٢٠٠٢.
- ٢٩- التفسير الكبير، الإمام فخر الدين محمد الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠.

- ٣٠- تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، دار الجليل، بيروت، ط٢، ١٩٩٠ .
- ٣١- تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، دار الفكر، بيروت، ط٣، ١٣٩٤ هجرية .
- ٣٢- تفسير ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق وتعليق: الرحالي الفاروق وعبدالله إبراهيم الأنصاري، الدوحة، ط١، ١٩٧٧ .
- ٣٣- تفسير التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، دار الكتب الشرقية، تونس .
- ٣٤- التربية الجهادية، الدكتور منير محمد الغضبان، الأردن، ط٧، ٢٠٠٦ .
- ٣٥- تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك، الإمام جلال الدين السيوطي، القاهرة، بلا تاريخ .
- ٣٦- تهذيب السيرة النبوية، يوسف علي بديوي، دمشق-بيروت، ط٢، ٢٠٠٥ .
- ٣٧- الجامع لأحكام القرآن، للإمام محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٨ .
- ٣٨- جامع البيان عن تأويل القرآن، المسمى: تفسير الطبري، القاهرة، ط٣، ١٩٦٨ .
- ٣٩- جرائم الحرب في الفقه الإسلامي والقانون الدولي، الدكتور خالد رمزي البزايعة، دار النفائس، عمان، ط١، ٢٠٠٧ .
- ٤٠- الجيش والسلاح في العهد الآشوري الحديث (٩١١-٦١٢ ق.م)، الدار العربية للطباعة، بغداد، ١٩٧٧ .
- ٤١- الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، الدكتور محمد خير هيكل، دار البيارق - دار ابن حزم، ط٢، ١٩٩٦ .
- ٤٢- الجهاد فكرياً وممارسة، مجموعة باحثين، بيت الحكمة، بغداد، ٢٠٠٢ .
- ٤٣- الجهاد في الإسلام، محمد شديد، مؤسسة الرسالة، بيروت، بلا سنة طبع .
- ٤٤- الجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته، عبد الله بن أحمد القادري، دار المنارة، جدة، ط٢، ١٩٩٢ .
- ٤٥- الحرب النفسية معركة الكلمة والمعتقد، صلاح نصر، ج١، القاهرة، ط٢، ١٩٦٧ .
- ٤٦- الحرب النفسية في الوطن العربي، الدكتور حامد ربيع، دار واسط للدراسات، العراق، ط١، ١٩٨٩ .
- ٤٧- الحرب النفسية، الدكتور فخري الدباغ، الموسوعة الصغيرة - رقم ٣٨ -، بغداد، ١٩٧٩ .

- ٤٨- الحرب النفسية في المنظور الإسلامي (١-٢)، الدكتور أحمد نوفل، الأردن، ط٣، ١٩٨٩.
- ٤٩- الحرب النفسية، موسى زناد، مكتبة الفكر العربي، بغداد، ط١، ١٩٨٤.
- ٥٠- الحرب النفسية للكيان الصهيوني في تشرين الأول ١٩٧٣، لقاء مكّي شفيق، رسالة ماجستير، قسم الإعلام، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٨.
- ٥١- الحرب النفسية في العراق القديم، الدكتورة حميدة سميسم، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩٦.
- ٥٢- الحرب النفسية في العراق، محمد أحمد النابلسي، مركز الدراسات النفسية، لبنان، ط١، ٢٠٠٣.
- ٥٣- الحرب الخفية فلسفة الجاسوسية ومقاومتها، صلاح نصر، بيروت، ط٢، ١٩٨٢.
- ٥٤- حرب الإشاعة، رياض أحمد يحيى، المعهد العالي لضباط قوى الأمن الداخلي، بغداد، ١٩٨٤.
- ٥٥- حرب الأفكار، العقيد عزيز قادر، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٨.
- ٥٦- حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعير، بيروت، ١٩٧٩.
- ٥٧- الخراج، الإمام أبو يوسف-يعقوب بن إبراهيم-، المطبعة السلفية، مصر، ١٣٨٢ هجرية.
- ٥٨- دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث، الدكتور محمد عز الدين توفيق، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٤.
- ٥٩- الدعاية الصهيونية في العراق، الدكتور سعد سلمان المشهداني (١٩٢١-١٩٥٢)، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١، ٢٠٠١.
- ٦٠- الدعاية واستخدام الراديو في الحرب النفسية، الدكتورة جيهان أحمد رشتي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٥.
- ٦١- الدعاية السياسية وتطبيقاتها قديماً وحديثاً، الدكتور محمد منير حجاب، دار الفجر، القاهرة، ط١، ١٩٩٨.
- ٦٢- الدولة والنظم السياسية مع أسس نظام الحكم في الإسلام، الدكتور إبراهيم عبد الكريم الغازي، دار المتنبي، أبو ظبي، ١٩٨٩.
- ٦٣- الدين والدولة من توجيه القرآن الكريم، الدكتور محمد البهي، مكتبة وهبة، مصر، ط٢، ١٩٨٠.
- ٦٤- الرأي العام وتأثره بالإعلام والدعاية، الدكتور محمد عبد القادر حاتم، بيروت، ١٩٧٣.

- ٦٥- الردع في السياسة الخارجية، عبد اللطيف المياح، رسالة ماجستير، معهد الدراسات القومية والاشتراكية، الجامعة المستنصرية، بغداد، ١٩٨٦ .
- ٦٦- الرحيق المختوم، صفى الدين المباركفوري، دار الوفاء، مصر، ط١٧، ٢٠٠٥ .
- ٦٧- الرسول القائد، اللواء الركن محمود شيت خطاب، مكتبة النهضة، بغداد، ط٢، ١٩٩٦ .
- ٦٨- الرسول والعلم، الدكتور يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، ط٥، ١٩٩١ .
- ٦٩- الرسول- صلى الله عليه وسلم- واليهود وجهاً لوجه، الدكتور سعد المرصيفي، مكتبة ابن كثير، الكويت .
- ٧٠- الروح، الإمام ابن القيم، دار التريية، بغداد، ١٩٨٨ .
- ٧١- رؤية إسلامية للاستشراق، أحمد غراب، الرياض، بلا سنة طبع .
- ٧٢- زاد المعاد، الإمام ابن القيم، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٤، ٢٠٠٣ .
- ٧٣- سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام، للإمام محمد بن إسماعيل الصنعاني، تحقيق: إبراهيم عصر، دار الحديث، القاهرة، بدون تاريخ .
- ٧٤- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، مطبعة السعادة، ط٢، ١٩٥٠ .
- ٧٥- السنن الكبرى، أحمد بن الحسين البيهقي، مطبعة دار المعارف، مصر، ط١، ١٣٥٤ هجرية .
- ٧٦- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد بن ماجه القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت .
- ٧٧- السير الكبير وشرحه، للإمامين محمد بن الحسن الشيباني وشمس الدين السرخسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧ .
- ٧٨- السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام، تحقيق وضبط : مصطفى السقا، إبراهيم الايباري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة الحلبي، مصر، ط٢، ١٩٨٥ .
- ٧٩- السيرة النبوية، الدكتور علي محمد الصلابي، دار المعرفة، بيروت، ط٣، ٢٠٠٥ .
- ٨٠- السيرة النبوية دروس وعبر، د. مصطفى السباعي، مطبعة أنوار دجلة، بغداد، ط١، ٢٠٠٣ .
- ٨١- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق بشير محمد عون،

مكتبة دار البيان، دمشق، ١٩٨٥ .

٨٢- شرح النووي على صحيح مسلم، للإمام يحيى بن شرف الدين النووي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

٨٣- صحيح البخاري، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن الهيثم، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤.

٨٤- صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ .

٨٥- صلح الحديبية، محمد أحمد باشميل، دار الفكر، بيروت، ط٣، ١٩٧٣.

٨٦- صناعة الحياة، محمد أحمد الراشد، دار المنطلق، دار المجتمع، ط٢، ١٩٩٢ .

٨٧- علم النفس الاجتماعي، الدكتور حامد عبد السلام زهران، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٤.

٨٨- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد كاتب الواقدي، دار التحرير، القاهرة، ١٩٦٨.

٨٩- علم النفس في الميدان العسكري، كامل علوان الزبيدي، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط١، ١٩٨٨ .

٩٠- علم النفس الاجتماعي في المجالات الإعلامية، الدكتور زيدان عبد الباقي، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٧٧ .

٩١- علم النفس في القوات المسلحة، العقيد شارل شانديسي، ترجمة محمد ياسر الأيوبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بغداد، ط٢، ١٩٨٤.

٩٢- العمارة العسكرية في العراق القديم، الدكتور مؤيد سعيد، بغداد، بلا سنة طبع .

٩٣- عيسى في القرآن الكريم، عدنان الربيعي، بغداد، ٢٠٠٤، بلا مكان طبع.

٩٤- غسيل الدماغ، الدكتور فخري الدباغ، المؤسسة اللبنانية للنشر، بيروت، ١٩٧٠.

٩٥- فتح القدير شرح الهداية، للإمام المرغيناني، لابن همام الحنفي، القاهرة، بدون تاريخ.

٩٦- فتح الباري شرح صحيح البخاري، للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت .

٩٧- فصول في علم النفس العسكري، محمد عاطف السعيد، القاهرة، ١٩٥٩ .

٩٨- فقه الكتاب والسنة، الدكتور أمير عبد العزيز، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٩٩٩.

- ٩٩- فقه النصر والتمكين، الدكتور علي محمد الصلابي، دار المعرفة، بيروت، ط٣، ٢٠٠٦.
- ١٠٠- فقه السيرة، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط٧، ١٩٧٨.
- ١٠١- فقه السيرة، الشيخ محمد الغزالي، دار الفرقان، بيروت، ١٩٨٠.
- ١٠٢- الفكر والحرب، جان غيتون، ترجمة المقدم الأيوبي وأكرم الديري، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٥.
- ١٠٣- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ط٣٤، ٢٠٠٤.
- ١٠٤- قصص الأنبياء، ابن كثير، مكتبة الإيوان، مصر، ٢٠٠٦.
- ١٠٥- القاموس المحيط، مجد الدين الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٧.
- ١٠٦- الكامل في التاريخ، عز الدين علي بن أبي الكرم المعروف: بابن الأثير، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥.
- ١٠٧- كشف القناع عن متن الإقناع، للإمام منصور بن يونس اليهودي، تحقيق: الشيخ محمد عدنان ياسين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٩.
- ١٠٨- الكشف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جاز الله محمود بن عمر الزمخشري، ١٩٦٦.
- ١٠٩- لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
- ١١٠- مبادئ الإسلام ومنهجه في قضايا السلم والحرب، أبو بكر إسماعيل محمد ميقا، الرياض، ١٤١٠ هجرية.
- ١١١- مبادئ القانون الدولي العام، الدكتور محمد حافظ غانم، القاهرة، ط٢، ١٩٦٢.
- ١١٢- المبسوط، للإمام شمس الدين السرخسي، دار المعرفة، بيروت، ط٣، ١٩٧٨.
- ١١٣- مجموع الفتاوى، شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني، المكتبة التوفيقية، مصر، بلا تاريخ.
- ١١٤- محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية-الدولة الأموية-، الشيخ محمد الخضري بك، مؤسسة المختار، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣.
- ١١٥- المحكم في العقيدة، الدكتور محمد عياش الكبيسي، إعلام الفكر والثقافة، قطر، ط١، ٢٠٠٣.

- ١١٦- المحصول في علم الأصول للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي (٥٤٤-٦٠٦)
دار الكتب العلمية ؛ بيروت ؛ ط ١، ١٩٨٨.
- ١١٧- المحلى، للإمام محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري، دار
الكتب العلمية، بيروت .
- ١١٨- مختصر فتاوى ابن تيمية، أشرف عليه الشيخ عبد المجيد سليم، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا
سنة طبع .
- ١١٩- المدرسة العسكرية النبوية، الدكتور محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، عمان، ط ١، ٢٠٠٤.
- ١٢٠- المدخل في الاتصال الجماهيري، الدكتور عصام سليمان موسى، مكتبة الكتاني، الأردن، ١٩٨٦.
- ١٢١- مسؤولية الإعلام الإسلامي في ظل النظام العالمي الجديد، الدكتور رشدي شحاتة أبو زيد،
القاهرة، ط ١، ١٩٩٩.
- ١٢٢- مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق، لأبي زكريا أحمد بن إبراهيم بن محمد الدمشقي، دار
البشائر الإسلامية، بيروت ط ٣، ٢٠٠٢.
- ١٢٣- المغازي، محمد عمر الواقدي، تحقيق الدكتور مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت، ط ٣،
١٩٨٤.
- ١٢٤- مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج، للإمام محمد الشربيني الخطيب، مصر، ١٩٥٨.
- ١٢٥- المغني، موفق الدين محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي، دار الحديث، القاهرة، ط ١، ١٩٩٥.
- ١٢٦- المفردات في غريب القرآن ؛ أبو القاسم الحسين محمد المعروف بالراغب الأصبهاني، دار القلم ؛
دمشق (٢٠٠١).
- ١٢٧- المقدمة، لابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٧.
- ١٢٨- مقصدية الدعوة في الجهاد وأحكامه، الدكتور عمار عبد الله ناصح علوان، دار ابن حزم،
بيروت، ط ١، ٢٠٠٨.
- ١٢٩- المنهج الحركي للسيرة النبوية، منير محمد الغضبان، مكتبة المنار، الأردن، ط ١، ١٩٨٤.
- ١٣٠- المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية، مجموعة باحثين، الدار العلمية، الرياض،
ط ٢، ١٩٩٥.

- ١٣١- موسوعة الجرائم الماسة بأمن الدولة الداخلي، الدكتور سعد إبراهيم الأعظمي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٠.
- ١٣٢- النظرية الإسلامية في الاستطلاع والأمن ومقاومة الجاسوسية، اللواء الركن جمال الدين محفوظ، ١٩٨٣، بلا مكان طبع .
- ١٣٣- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، للإمام محمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٥.
- ١٣٤- الهجرة والنصرة في القرآن الكريم، الدكتور موسى بناي العللي، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط١، ١٩٨٩ .
- ١٣٥- وجوب التعاون بين المسلمين، الشيخ عبد الرحمن السعدي، دار المعارف، الرياض، ١٤٠٢ هجرية.
- ١٣٦- اليهود مصدر إفساد وانهلال ودمار، الدكتور توفيق الواعي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٩٩٥.

المجلات

- ١٣٧- مجلة الأحمدية، منهج القرآن في مكافحة الإشاعة، الدكتور محمد عياش الكبيسي، ع ٥- ٢٠٠٠.
- ١٣٨- مجلة الأحمدية، النصر في القرآن الأسباب والمعوقات، الدكتور عيادة أيوب الكبيسي، ع ١- ١٤١٩ هجرية .
- ١٣٩- مجلة الباحث الإعلامي، طبيعة العلاقة بين الخطاب الدعائي والخطاب السياسي، الدكتورة نزهت محمود الدليمي، ع ٤- ٢٠٠٨ .
- ١٤٠- مجلة البيان، إسلامية جامعة تصدر عن المنتدى الإسلامي، الأعداد:
- أ- الحرب النفسية ومفاهيم جديدة لممارسات قديمة، محمد أحمد منصور، ع ١٦٥، آب- ٢٠٠٠.
- ب- حرب المعلومات الرب القادمة، حسن الرشدي، ع ١٦٦، أيلول ٢٠٠٠.
- ج- الاستعمار النفسي في ثوبه الجديد، الدكتور ماهر عباس جلال، ع ١٦٣، أيار- ٢٠٠٠.
- د- أسلحة لا تصنعها الحضارات، محمد بن عبدالله الشمراي، ع ٢٢٦- ٢٠٠٦.
- ١٤١- مجلة جامعة صدام للعلوم الإسلامية، أحكام الإشاعة والحرب النفسية في الشريعة الإسلامية،

الدكتور خالد رشيد الجميلي، ع ١٢-٢٠٠٢ .

١٤٢- مجلة جامعة صدام للعلوم الإسلامية، كيف تساس الحروب في الإسلام بعد نشوبها، الدكتور إبراهيم الصايل، ع ٧، ١٩٩٦ .

١٤٣- مجلة الحكمة -بغداد-، الحرب النفسية في المنظور الإسلامي، الدكتور هيثم عبد السلام، ع ٢٩ -٢٠٠٢ .

١٤٤- مجلة حوليات الإعلام، الحرب النفسية وأساليب مواجهتها، وهيب مجيد الكبيسي، ع ٣، ١٩٨٣ .

١٤٥- مجلة الحكمة -لندن-، الإشاعة والتعامل معها في ضوء القرآن الكريم، الدكتور الحسن بن خلوي الموكل، ع ٣١، ١٤٢٦ هجرية .

١٤٦- مجلة الخطيب -العراق-، دعوة إبراهيم -عليه السلام- في القرآن، ع ١٩، ١٤٢٨ هجرية .

١٤٧- مجلة الدفاع، الإعلام الرشيد وحماية الدماغ من الغسيل، الدكتورة وفاء مرسى، ع ١٣٢ - ٢٠٠٣/١/١ .

١٤٨- مجلة الشريعة والقانون -الإمارات-، أحكام الحرب والسلام في الإسلام، الدكتور وهبة الزحيلي، ع ٣، ١٩٨٩ .

١٤٩- مجلة كلية الآداب، الإذاعات السرية والحرب النفسية الإذاعية الامبريالية، الدكتور إبراهيم الدافقي، ع ٣٢- ١٩٨٢ .

١٥٠- مجلة كلية الدراسات الإسلامية، المنافقون في مدينة الرسول-صلى الله عليه وسلم-، الدكتور هاشم يحيى الملاح، ع ٥، ١٩٧٣ .

الفهرس

٥	الإهداء
٧	المقدمة
٩	منهج البحث
١١	خطة البحث

الفصل الأول

١٣	الحرب النفسية: تعريفها، نشأتها معناها في الشريعة الإسلامية
١٥	المبحث الأول: تعريف الحرب النفسية ونشأتها
١٥	المطلب الأول: الحرب النفسية، تعريفها ومصطلحاتها
٢٣	أولاً: الحرب السياسية
٢٤	ثانياً: حرب المعنويات
٢٦	ثالثاً: حرب المعلومات
٢٧	رابعاً: حرب الأفكار
٢٩	خامساً: الحرب الباردة
٣٠	المطلب الثاني: نشأة الحرب النفسية وتطورها التاريخي
٣٢	أولاً: الحرب النفسية في وادي الرافدين
٣٦	ثانياً: الحرب النفسية في مصر القديمة:
٣٨	ثالثاً: الحرب النفسية في الصين والهند القديمة

٤١	رابعاً: الحرب النفسية عند المغول.....
٤٣	أبرز سمات هذه الحرب المتبعة عبر تاريخ الصراعات والحروب في العالم
٤٥	المبحث الثاني: معنى الحرب النفسية في الشريعة الإسلامية.....
٤٥	المطلب الأول : معنى الحرب والنفس في الشريعة الإسلامية
٤٥	أولاً: معنى الحرب في الشريعة الإسلامية
٥٧	ثانياً: معنى النفس في الشريعة الإسلامية
٦٢	أولاً: الجهل
٦٢	ثانياً: الهوى
٦٣	ثالثاً: الغفلة
٦٣	رابعاً: الشهوات
٦٦	المطلب الثاني : الحرب النفسية في المنظور الإسلامي
٦٦	أولاً : تعريف الحرب النفسية في المنظور الإسلامي
٦٩	ثانياً: ألفاظ الحرب النفسية في القرآن
٦٩	الخوف
٧٠	الرعب
٧١	الوهن
٧١	ثالثاً: مبادئ الحرب النفسية في الإسلام وغاياتها
٧٤	رابعاً: سمات الحرب النفسية في الإسلام
٧٧	خامساً : شروط الحرب النفسية في الإسلام
٧٧	أ- العمل المنافي للجهل
٧٧	ب - أن تكون هذه الحرب في سبيل الله

- ج - أن يكون خوض الحرب لمصلحة الأمة ٧٧
- د - النظر إلى قوة المسلمين ٧٨

الفصل الثاني

- الحرب النفسية... أهدافها، أساليبها، مقاومتها ٧٩
- المبحث الأول: أهداف وأساليب الحرب النفسية ٨١
- المطلب الأول: أهداف الحرب النفسية ٨١
- المطلب الثاني: أساليب الحرب النفسية ٨٩
- أولاً: الدعاية ٨٩
- ثانياً: الإشاعة ٩٣
- ثالثاً: الضغط الاقتصادي ٩٦
- رابعاً: المناورات السياسية ٩٨
- خامساً: غسل الدماغ ٩٩
- سادساً: هناك أساليب أخرى من أساليب الحرب النفسية ١٠٣
- ١- الردع ١٠٣
- ٢- إثارة الذعر ١٠٤
- المبحث الثاني: خطورة الحرب النفسية وطرق مقاومتها ١٠٥
- المطلب الأول: خطورة الحرب النفسية ١٠٥
- المطلب الثاني: سبل مقاومة الحرب النفسية ١١٢

الفصل الثالث

- الحرب النفسية في القرآن الكريم والسنة النبوية ١٣١

المبحث الأول : مشروعية وحكم الحرب النفسية	١٣٣
المطلب الأول : مشروعية الحرب النفسية	١٣٣
أولاً : في القرآن الكريم	١٣٣
ثانياً - في السنة النبوية	١٣٨
ثالثاً - في إجماع العلماء	١٤٣
المطلب الثاني : حكم الحرب النفسية	١٤٨
أولاً - الفريق الأول : الحرب النفسية فرض عين	١٤٨
ثانياً - الفريق الثاني : الحرب النفسية فرض كفاية	١٥١
ثالثاً : متى تكون الحرب النفسية محرمة	١٥٤
رابعاً : الحرب النفسية في حالة الكراهة	١٥٥
خامساً - حين تكون الحرب النفسية مباحة	١٥٦
المبحث الثاني : الحرب النفسية في القرآن الكريم	١٥٧
صور وأساليب الحرب النفسية في القرآن الكريم	١٥٧
شواهد وأساليب الحرب النفسية في القرآن	١٦٠
أولاً - في قصة النبي نوح عليه السلام	١٦١
ثانياً - في قصة النبي إبراهيم عليه السلام	١٦٤
ثالثاً - في قصة يوسف عليه السلام	١٦٧
رابعاً - في قصة النبي موسى عليه السلام	١٦٩
خامساً - في قصة النبي سليمان عليه السلام	١٧٣
سادساً : في قصة النبي عيسى عليه السلام	١٧٦
الفتنة أشد من القتل	١٧٩

المبحث الثالث: صور وأساليب الحرب النفسية في السنة النبوية	١٨٢
المطلب الأول: صور وأساليب الحرب النفسية في العهد المكي	١٨٢
أبرز صور وأساليب الحرب النفسية الموجهة للمسلمين في المرحلة المكية ...	١٨٣
أولاً: أسلوب السخرية والاستهزاء	١٨٣
ثانياً: أسلوب الإغراء والترغيب	١٨٦
ثالثاً: حرب الإشاعات والافتراءات	١٨٨
رابعاً: حرب الإيذاء والاضطهاد	١٩٠
خامساً: طلب المعجزات والخوارق	١٩٢
سادساً: أسلوب المقاطعة الاقتصادية	١٩٥
سابعاً: أساليب أخرى مختلفة	١٩٧
المطلب الثاني: صور وأساليب الحرب النفسية في العهد المدني	١٩٨
أولاً: المشركون	١٩٩
١- أسلوب مصادرة الأموال	٢٠٠
٢- حبس المسلمين في مكة	٢٠٠
٣- استهداف الأسرة والمجتمع الإسلامي	٢٠٠
٤- إرجاع المهاجر بالاختطاف وغيره	٢٠١
٥- التعاون بين المشركين واليهود والمنافقين لأذى المسلمين	٢٠١
٦- محاربة سادة المدينة	٢٠١
٧- التهديد باغتيال الرسول ﷺ	٢٠٢
ثانياً: اليهود	٢٠٣
أ- حرب الجدل والمراء	٢٠٤

- ب- التشكيك بنبوة الرسول ﷺ ٢٠٦
- ج- اليهود ومحاولة تمزيق صف المسلمين ٢٠٧
- د- سوء أدبهم مع رسول الله ﷺ ٢٠٨
- هـ- محاولة إيذاء المسلمين اقتصادياً ٢٠٩
- و- بث الإشاعات المحطمة للمعنويات ٢١٠
- ز- الدعاية اليهودية في حادث تحويل القبلة ٢١٠
- ثالثاً: المنافقون ٢١٢
- ١- حادثة الإفك ٢١٣
- ٢- تعاون المنافقين مع اليهود وغيرهم ٢١٥
- ٣- تحذيلهم للمسلمين في جانب المعنويات ٢١٦
- ٤- تحذيل المنافقين لسرايا المسلمين ٢١٦
- ٥- استهزاء المنافقين برسول الله ﷺ ٢١٧
- ٦- اتخاذهم مسجد ضرار لإغواء الناس ٢١٨

الفصل الرابع

- الأحكام الفقهية للحرب النفسية ٢١٩
- المبحث الأول: الأحكام الفقهية للدعاية والإشاعة ٢٢١
- المطلب الأول: الأحكام الفقهية المتعلقة بالدعاية ٢٢١
- المطلب الثاني: الأحكام الفقهية المتعلقة بالإشاعة ٢٤٤
- المبحث الثاني: أحكام الحرب الاقتصادية والمناورات السياسية وأحكام فقهية عامة ٢٥٧
- المطلب الأول: الأحكام الفقهية المتعلقة بالحرب الاقتصادية ٢٥٧

أولاً: وجوب استغلال الموارد الاقتصادية	٢٥٨
ثانياً: وجوب الإنفاق في سبيل الله	٢٥٩
ثالثاً: جواز استهداف مرافق العدو	٢٦٠
رابعاً: حكم غنائم الحرب النفسية	٢٦٢
خامساً: جواز فرض الحصار الاقتصادي على العدو	٢٦٤
سادساً: حكم توظيف المال في الحرب النفسية	٢٦٥
سابعاً: الجزية تشريع اقتصادي يراد به تخذيل العدو وكسر شوكته	٢٦٧
ثامناً: حكم مصالحة الكفار على مال	٢٦٩
تاسعاً: جواز الانفاق من أموال الزكاة على خطط شن الحرب النفسية	٢٧٠
عاشراً: معالجة الأزمات الاقتصادية	٢٧٢
المطلب الثاني: الأحكام الفقهية المتعلقة بالمناورات السياسية	٢٧٤
أولاً: وجوب تجنب المجتمع المسلم كل ما يؤثر على وحدته	٢٧٥
ثانياً: التزام ولاية الأمر بكل ما يقوي علاقة الثقة المتبادلة	٢٧٦
ثالثاً: افتعال الأزمات السياسية في صفوف العدو	٢٧٦
رابعاً: حكم المعاهدات السياسية والعسكرية مع العدو	٢٧٧
خامساً: جواز السلم مع العدو	٢٧٩
سادساً: عودة المسلمين إلى حالة الحرب مع الكفار	٢٨٠
سابعاً: حرمة استهداف دولة العدو ما دامت ملتزمة	٢٨٢
ثامناً: حكم الإسلام في المعارضة السياسية	٢٨٣
ويستتج العلماء من هذه الحادثة أموراً هي	٢٨٤
تاسعاً: جواز أن يطلب المسلمون ابتداءً عقد الهدنة مع العدو	٢٨٤

عاشراً: المناورات السياسية في صلح الحديبية و جواز التأثير في وفود العدو	٢٨٥
حادي عشر: حكم أخذ الرهائن من العدو أو تسليم بعض المسلمين رهناً	٢٨٧
ثاني عشر: يجوز استمالة رؤساء الخصوم بالمناصب السياسية	٢٨٩
ثالث عشر: حكم التلويح السياسي باستخدام أسلحة الدمار الشامل	٢٩٠
رابع عشر: رسل الطرفين وحكم التعامل معهم	٢٩٢
خامس عشر: حكم التمثيل الدبلوماسي	٢٩٤
سادس عشر: استباحة الاستفادة من أعراف الجاهلية في العمل السياسي	٢٩٥
المطلب الثالث : أحكام فقهية عامة في الحرب النفسية	٢٩٧
أولاً: حكم النية في الحرب النفسية	٢٩٧
ثانياً: وجوب كون الحرب النفسية لإعلاء كلمة الله تعالى	٢٩٨
ثالثاً : حرمة الاعتداء على النساء للتأثير على معنويات العدو	٢٩٩
رابعاً: حكم (الفرار من العدو) في الحرب النفسية	٣٠٠
خامساً: حرمة الاعتداء على دور العبادة والمستشفيات لزعة معنويات	٣٠١
سادساً : حكم وجود إمام للمسلمين أو عدم وجوده في الحرب النفسية	٣٠٣
سابعاً : حكم أصحاب الأعذار في الحرب النفسية	٣٠٤
الخاتمة	٣٠٧
خلاصة الرسالة ونتائجها	٣٠٧
المصادر	٣١١
الفهرس	٣٢١

